

مجلة
الثقافة
الوطنية
الديمقراطية

أدب ونقد

العدد
(٢١٠)
فبراير
٢٠٠٣

ياسكندرية.. بحرك عجائب

بروين شاكر: كل الدوائر أصغر من أقدامى



الشخصية المسيحية في السينما المصرية

باول: الصفاقة التي سيرد عليها المستقبل
الأدب الإيراني.. الأرض.. العدل.. الحرية



أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

تأسست عام ١٩٨٤ / السنة الثامنة عشر العدد ٢١٠ / فبراير ٢٠٠٣

رئيس مجلس الإدارة: د. رفعت السعيد

رئيس التحرير: فريدة النقاش

مجلس التحرير : إبراهيم أصلان

د. صلاح السروي / طلعت الشايب

د. علي مبروك / غادة نبيل

كمال رمزي / ماجد يوسف

حلمي سالم / مصطفى عبادة

علي عوض الله كرار

المراسلات: مجلة [أدب ونقد] ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهمالي

القاهرة / هاتف ٢٩ / ٢٨ / ٥٧٩١٦٢٧ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

المستشارون

د. الطاهر مكي / د. أمينة رشيد
صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس

شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون
د. لطيفة الزيات / د. عبد المحسن طه بدر
محمد روميث / ملك عبد العزيز

الغلاف
أحمد السجيني
أعمال الصف والتوضيب
نسرین سعید إبراهيم

تصحيح : أبو السعود علي سعد
الغلاف الأمامي والخلفي والرسوم الداخلية الفنان سيف وانلى
بورترية بروين شاكر للفنان عز العرب
الاشتراكات لمدة عام
باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها
البلاد العربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا

الطباعة

شركة الأمل للطباعة والنشر
الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر
يمكن إرسال الأعمال على العنوان البريدي أو البريد الإلكتروني:
adabwanaqd@yahoo.com
موقع [أدب ونقد] على الانترنت: adabwanaqd.4t.com

نرجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن عشر
صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

محتويات العدد

● أول الكتابه فريدة النقاشه

● ديمقراطية مدفوعة الثمن / ملف ١١

- أمريكا والشرق الأوسط صراع أم حوار / كولان باول / ترجمة غادة نبيل ١٢
- الصفاقة التي سيرد عليها المستقبل / غ. ن ٢١
- بيانات الخلاص والأمل / د. على ميروك ٢٦
- ليلة بالالوان / قصة / عبد الستار حتيته ٢١

● الأدب في الشرق الأرض - العدل - الحرية / ملف ٢٢

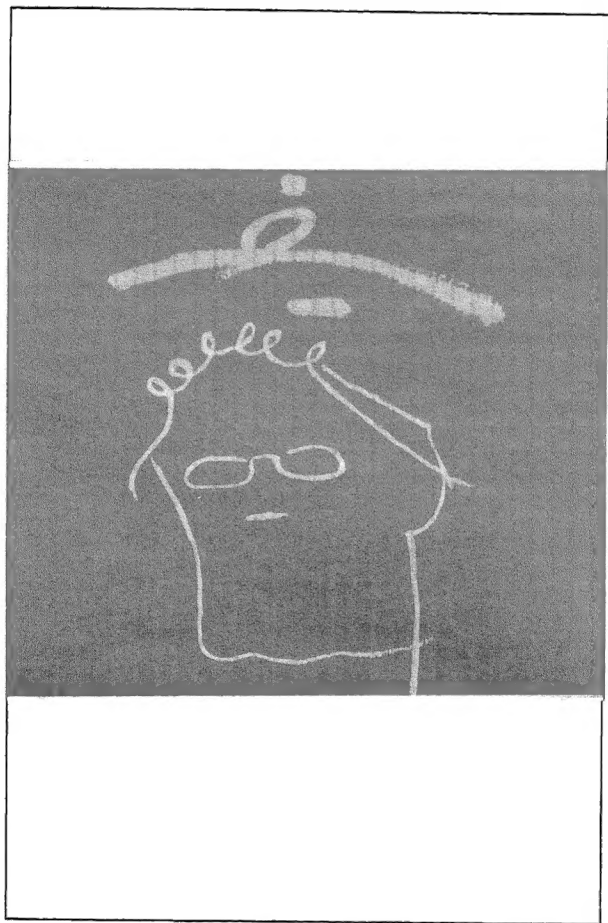
- محكمة العدل بين توفيق الحكيم وبهرام بيضاني د / أبو الحسن سلام ٢٤
- * الديوان الصغير / كل الدوائر أصغر من أقدامى / مختارات من
- بروين شاكر ترجمة وتقديم د. إبراهيم محمد إبراهيم ٤٢
- القصة النسائية في إيران : مختارات من مريم جمشيدى
- ترجمة وتقديم أسامة فتح الباب ورقية الشبراوى ٥٥
- خمس قصائد لى / شعر / وليد الخشاب ٧٩

● يا إسكندرية بحرك عجائب / ملف ٨١

- معنى هذه المدينة / د. مجدى توفيق ٨٢
- المكتبة الامس وغداً فتحي سيد فرج ٨٦
- أسطورة الأخوين وانلى / عصمت داومنتاشى ٩٥
- سيف وانلى يرسم حياة فان جورج د. ع. ١٠٦
- إسكندرية نجيب محفوظ / عبد الله هاشم ١٠٩
- اسكندرية / شعر أحمد فؤاد نجم ١١٢
- فى وضع النهار / قصة / قسطنطين كفافى / ترجمة أبو بكر العيادى ١١٣
- * الاسكندراني التائه / محمد الباز ١٢٢
- الشخصية المسيحية فى رحلتها على الشاشة الفضية سينما انتصار بدر ١٢٦

● ندوة أدب ونقد متابعات ١٢٤

- ظل العائلة .. لغة الحنين / متابعة : صفاء النجار ١٣٥
- الحروب : أوراق المكان والالم / متابعة : نجوى على ١٣٩
- لعبة الكراسى الموسيقية / رأى / على عوض الله كزار ١٤٤



أول الكتابة

فريدة النقاش

يحمل لكم عددنا هذا إطلالة على أدب بلدين من بلدان آسيا المسلمة هما باكستان وإيران في محاولة منا للتعرف معا على هذا العالم الشاسع المجهول لنا القريب إلى ثقافتنا والبعيد عنا والذي يدرسه الأكاديميون في أقسام الآداب واللغات الشرقية في الجامعات . وتظل نتائج دراساتهم حبيسة في الأدراج لا يعرف عنها الجمهور الواسع شيئا ، لأن المصادر الأجنبية لتقافتنا ظلت حكرا على أوروبا ثم أضيفت إليها أمريكا منذ نهاية القرن الثامن عشر مع الحملة الفرنسية وعلى امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين مع الحملات الاستعمارية الانجليزية والفرنسية والتي توجهت الاستعمار الاقتصادي الأمريكي في منتصف القرن العشرين بعد انحسار الإمبراطوريتين الكبيرتين آنذاك إنجلترا وفرنسا تحت ضربات حركة تحرر وطني عارمة شملت القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وحين اندلعت الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩ وأطاحت بالنظام الاستبدادي التابع لأمريكا بزعامة الشاه محمد رضا بهلوي برزت ملامح اهتمام عام بالأدب والثقافة الإيرانية، خاصة وأن زعيم الثورة كان فقيها ورجل دين هو آية الله الخميني، الذي طبع الثورة بطابعه رغم أنها في العمق كانت عملا شعبيا واسعا ضد الاستبداد والاستغلال شاركت فيه الطبقة العاملة الإيرانية القوية التي خاضت مع طلائعها الاشتراكية نضالا يأسلا ضد نظام الشاه، من أجل حقوقها وحقوق الشعب كله كما شارك المهمشون وهم بالملايين بعد أن زحفوا إلى المدن تحت ضغط إفقار الريف وعرفت الثورة صورا من المد الجزر في ظل صراع سياسي وفكري ضار أطاح فيه «الخميني» بالمعارضة الديمقراطية بوحشية وانفرد رجال الدين بالسلطة وحدثت تصالح ضمني وغير معلن بينهم وبين كبار ومتوسطي التجار (البازار)، وفي عام ١٩٨٩ صدرت فتوى يقتل سلمان رشدي» الكاتب البريطاني من أصل هندي.

وكان الصراع الفكري ولا يزال إحدى العلامات المميزة للوضع الإيراني وقد تبلور حتى فيما قبل انتخاب الرئيس «محمد خاتمي» بين الإصلاحيين من جهة الذين يرمز إليهم «خاتمي» وقد عاينوا الناخبين للتصويت له في الانتخابات الرئاسية ، والمحافظين من جهة أخرى الذين تمترسوا في النواثر الدينية التقليدية ، والحوزات العلمية معتمدين على القوى الاجتماعية القديمة التي تقاوم من أجل الانفراد بالثروة والسلطة وإسباغ حماية دينية على هذا الانفراد. ولكن حيوية الشعب الإيراني وروحوه النضالية العالية كانت ولا تزال سندا لتيار إصلاحى يتعاظم قوة وتقوينا رغم سطوة المحافظين.

والآن وفي قم- حيث المقر الفكري للثورة الإيرانية والتي أوصلت آية الله الخميني- إلى الحكم في طهران عام ١٩٧٩ وتضم ثلاثين ألفا من علماء الدين الإيرانيين تتبلور حركة جديدة تعيد التفكير في دور

علماء الدين ، وتطالب بانسحابهم من السياسة وفصل الدين عن السياسة ويعتقد هذا التيار أن دخول السياسة شوه صورة علماء الدين في إيران الذين أصبحوا يخشون من أنهم إذا عارضوا سياسات الحكومة الإصلاحية سوف يخسرون الناس. وقال أحد هؤلاء العلماء إن رجال الدين عندما يكونون في السلطة لا يتسامحون مع الأفكار الأخرى وفي أوساط هؤلاء انتشرت دعوات قوية لإلغاء عقوبة رجم النساء التي تناضل ضدها النساء الإيرانيات والأوساط الديمقراطية كافة منذ زمن طويل.

وقال أحد علماء الدين الإصلاحيين إن العقوبة إذا أصبحت مصدرا للنفور من الدين تصبح غير مقبولة وبمساعدة بعض رجال الدين الإصلاحيين قدمت مجموعة من عضوات البرلمان مشروع قرار لإلغاء عقوبة الرجم التي أساءت إلى نساء كثيرات وحطمتهن وقتلت بعضهن.

بالإضافة إلى ذلك فإن الفصل المتعسف للجنسين وإجبار المرأة على ارتداء الحجاب والتشدد في تطبيق الشريعة أصبح مصدرا للاستياء. وأنكر أنه أثناء زيارتي لإيران في بداية عام ٢٠٠٢ للمشاركة في ندوة عن العلاقات العربية الإيرانية أنني انتقدت فرض الحجاب على النساء الإيرانيات قائلة إن اختيار الزى هو مسألة شخصية وحق من حقوق الإنسان وإذا شاعت المرأة أن تلبس الحجاب فلا بد أن يحترم الآخرون حقها تماما مثلما لو شاعت أن تكون سافرة . ووجدت مداخلتي هذه تأييداً قويا من النساء الإيرانيات والمثقفين الديمقراطيين المشاركين في الندوة وشعرت ساعتها أن أشياء كثيرة تتغير في المجتمع الإيراني ، وأن هذا التغير قائم.

وقد شكل علماء الدين الإصلاحيون رابطة الباحثين والمدرسين التي تجتمع مرة أسبوعيا وجرى تسجيلها قبل ثمانية أشهر كتجمع بنى مواجه لجمعية المدرسين المحافظين. ويسيطر المحافظون على المواقع المهمة في الحكومة وفي المجتمع الإيراني من الأمن الداخلي إلى القضاء بالإضافة إلى المؤسسات الاقتصادية.

ومع ضعف الاقتصاد الإيراني وارتباط الجيل الجديد بالإنترنت وشبكات التلفزيون الفضائية فإن رجال الدين أصبحوا هدفا للإحباط الشعبي كما تقول جريدة الشرق الأوسط في تقرير لها من طهران. ويسيطر على الحكمة الخاصة لرجال الدين متشددون محافظون وهي المسئولة عن التعامل مع المنشقين وقد أصدرت حكما بالسجن خمس سنوات على حسين يوسف أشكوارى بسبب حديث له في برلين قال فيه إنه لا يجب أن يفرض على المرأة تغطية رأسها . وحذر أحد الكتاب من الاستبداد باسم الدين لأنه أخطر أنواع الاستبداد على حد قوله .

أما الكاتب والأستاذ الجامعي «هاشم آغا جاري» فقد صدر ضده حكم بالإعدام بسبب محاضره ألقاها في ذكرى مرور ربع قرن على رحيل الفكر الإسلامي المستنير على شريعتي الذي تعلم في فرنسا وترجم كتابات فرانز فانون إلى الفارسية ونفاه شاه إيران بسبب معارضته للاستبداد . ولكن مات ميتة غامضة بعد أيام من وصوله إلى منفاه في لندن عام ١٩٧٧ قبل اندلاع الثورة بعامين . وقيل حينذاك إن

جهاز «السافاك» أي مخابرات الشاه دس له السم في طعامه وكان في الراية والأربعين من عمره. ووصف أعاجارى على شريعتى بـ«مارتن لوثر» الإسلام وأن دعوته هي بروتستانتية في مسار الدعوة الإسلامية الشيعية مؤكداً الحاجة الماسة إلى إصلاح دينى كان شريعتى قد دعا إليه وأجرى مقارنة مع البروتستانتية التي جددت المسيحية .

وهي الدعوة أي دعوة أعاجارى-التي أثارت جدلاً واسعاً في الأساطير الثقافية الإيرانية وحين صدر حكم الإعدام ضده انفجر الشارع الإيراني وخرجت مظاهرات طلابية حاشدة ، وعبر المثقفون عن احتجاجهم بصور مختلفة، ورفض «أعاجارى» أن يستأنف الحكم تعبيراً عن الاحتجاج على الدوائر الظلامية التي تستهدف إطفاء أنوار العقل والحرية وساندته حركة إيرانية وعلمية واسعة النطاق فجري تجميد الحكم.

كان على شريعتى- يدعو- بخلاف المثقفين التقليديين الذين قصرُوا خطابهم على شعوب المسلمين- إلى الانفتاح على الفكر غير الإسلامى وإلى التجديد فى الإسلام ، وأسس على شريعتى طبقاً للحكتور وايد عبد الناصر «فى حسيثيه ارشاد»-والحسينية هو الاسم الذى يطلقه الإيرانيون على دار التوبة الدينية ونسبة إلى الحسين بن على رضى الله عنه وهى قاعة المحاضرات التى كان يلقى فيها دروسه -أسس لجناحاً متخصصة فى إعادة تفسير القرآن الكريم ، وإعادة تفسير التاريخ الإسلامى ، وتأكيد تشجيع الإسلام للفنون».

وكان شريعتى يرى أن بداية تحريف المفاهيم يعود إلى حكم الأسرة الصفوية التى حكمت إيران من عام ١٠٥١ إلى ١٧٢٢ ، وتحول التشيع إلى شعائرية تحتكرها مؤسسة بنية ذات طابع بيروقراطى ويقول وليد عبد الناصر إن شريعتى فى هذا الإطار «أعاد تفسير مفاهيم العدل والحج والغيبة والشهادة والإمامة» وعاشوراء بانحياز واضح للعدالة والاستتارة والاجتهاد . ورفض ما من شأنه تبرير التسلط السياسى أو الاستغلال الاقتصادى أو احتكار السلطة الدينية. كما دعا إلى تطهير التشيع مما سماه الخرافات التى تتناقض مع الحقائق العلمية الحديثة. ولابد أن نذكر هنا أن الإمام «محمد عبده» كان قد أطلق دعوة مشابهة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فى مصر لتطهير الإسلام السننى من الخرافات.

ودعا شريعتى المسلمين «إلى ترك العلوم للمتخصصين باعتبار القرآن الكريم رؤية شاملة توجه العلم والعلماء فى اتجاه معين وتشجعهم».

وكان شريعتى قد تحدث وكتب فى زمن «قارم فيه غالبية رجال الدين فى إيران أى نور للمثقفين من خارج المؤسسة فى تناول مسائل قهوية. وقد حظر عدد من كبار رجال الدين فى قم تدريس كتابات على شريعتى فى المدارس الدينية والحوزات العلمية لأنهم اعتبروه غير ملم بشكل كامل ومتعمق بالمسائل الدينية» .

وذكرنا هذا الموقف بما حدث مع الباحث المصري فى علوم القرآن الدكتور «نصر حامد أبو زيد» حين اتهمه رجال الدين التقليديون بأنه يجتهد فى غير تخصصه وذلك حتى يتجنبوا مناقشة منهجه فى التأويل والاستخلاصات أو يناقشوا أفكاره الجديدة. التى وصل إليها ، ويدل من ذلك حركوا الدماوى ضده وصولا إلى الحكم بتطليقه من زوجته أستاذة الألب الفرنسى الدكتور «إيتهايل يونس» قاطعين الطريق على منهجه العلمى الموضوعى ورؤيته الثقافية وحارمين طلابه الذين جرى تخويفهم من التلمذ على يديه.

بل إن الدوائر الظلامية المترزمة أفتت بقتل المفكر د. فرج فودة الذى أثنى البحث فى الإسلاميات مستهدفا إضاعة طريق العقل والنقد أمام المسلمين ، ثم أقدم أحد الشباب المهورسين على قتله فعلا. معركة الإصلاح الدينى محتمة إذن فى صفوف السنة والشيعة على حد سواء مما يؤكد أن هناك احتياجا موضوعيا ملحا لمثل هذا الإصلاح.

وإذا كنا نحن فى مصر والوطن العربى نعرف قليلا أو كثيرا عن اجتهادات علماء المسلمين السنة فى هذا السياق فإن أقل القليل هو ما يتوفر لنا حول اجتهادات المسلمين الشيعة ، وقد آن الأوان أن نرى صورة الإسلام ككل خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار مايجرى فى أوساط المثقفين المسلمين فى كل من إنثونيسيا وماليزيا وهو ما سنفرده له مساحات من مجلتنا فى الأعداد القادمة.

وسيكون الإصلاح الدينى الذى ينبثق من احتياجاتنا وشجاعتنا الذاتية هو ربنا العقلانى على كل من التطرف والظلامية من جهة والهوس الأمريكى ضد الاسلام من جهة أخرى.

رأى على شريعتى أن المجتمعات التى تستورد الحضارة من الخارج ثم تقوم بتجميعها وتركيبها نون جنور. وبنون استعداد وبنون تغيير للتفكير والفكر ، وبنون إرساء هذه الحضارة على أسس وقواعد ثابتة من أعماق ترابها الثقافى والتاريخى والقومى ، لا تصير ذات حضارة وليس هذا فحسب، لكنها تفرط فى فرصة أن تكون يوما ما ذات حضارة.

فإذا ربطنا بين هذا القول ودمويته لاحترام العلم والتمكن منه باعتباره قوة سوف نصل إلى أحد جنور المائزق الراهن للحضارة العربية الاسلامية التى تعيش على الاستيراد نون الإبداع والابتكار ، وتأخذ من الحضارة قشورها «حين تقوم بتجميع وتركيب» متغافلة عن الأسس العلمية ذات التاريخ الطويل التى أنتجت هذه الأنوار أى أنها حضارة هشة تتعامل مع مفردات العلم وتنتاجه التطبيقية نون فلسفتها ومناهجها وتقطع الجنور مع تراث ازدهارها الذى أضاء الأنوار لأوروبا فى عصور الظلام الوسطى.

قارن «شريعته» بين المفكر والتبى حيث يتشابه النوران فى إيقاظ المجتمع الخامل فإذا كان العلم قوة فالفكر نور» على حد قوله، وهو أعظم مسئوليات المفكر فى مجتمعه هى أن يجد السبب الأساسى والحقيقى لانحطاط المجتمع ، ويكشف السبب الأساسى للركود والتأخر والمساءلة بالنسبة لمواطنه وجنسه

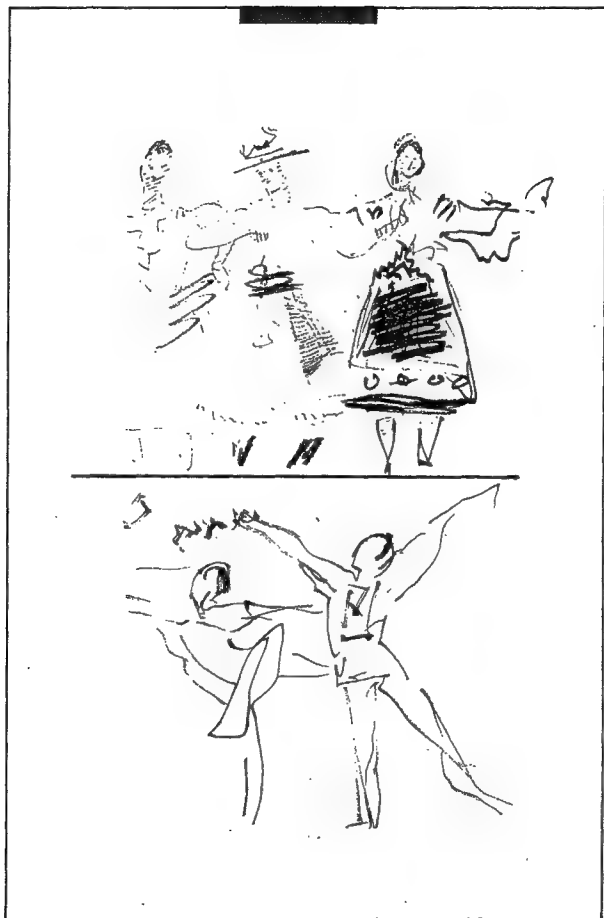
وبينته ، ثم يقوم بعد ذلك بتنبية مجتمعه الفافل الغائب عن الوعي إلى السبب الأساسي لمصيره وقدره التاريخي المشؤوم .

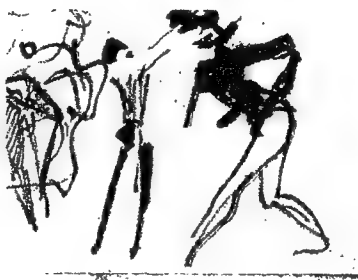
المفكر إذن هو نبى هذا العصر الذى يوقظ روح شعبه من السبات ، ويحمل مشاعر الوعي والعقل، يضئ الظلمات ويفتح الدروب المفلقة.. وشرط المحبة الجسارة « كما يقول أحمد فؤاد نجم . لقد رفض شريعتى عبادة التاريخ وعبادة الموتى ، لكنه دافع بشجاعة عن الأصالة الذاتية «لا أريد أن أوحى أننا فى الماضى كنا على ما يرام من كافة النواحي أبدا كنا جامدين متوقفين ، ولكننا كنا أصلاء . وماذا يعنى أننا كنا أصلاء ؟ يعنى أنه نواتنا كانت هى نواتنا « كنا متوقفين لكننا كنا بشرا ، أى أننا كنا نختر نواتنا أى أننا كنا الذين نقوم بصناعة ملابسنا وبنى منازلنا ، كانت نواتنا هى نواتنا لأننا كنا نختر ألواننا وزيناتنا والأنماط الخاصة بنا .»

بوسعنا أن نرى فى هذه الكلمات وجه تشابه مع دعوة حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى الذى تصدر عنه «أدب ونقد» للتنمية بالاعتماد على الذات . فهل نتذكر أيضا أن الصين هذا العملاق القادم ليست مدينة لأحد ، وأن القروض التى أغرقتنا فى الديون هى واحدة من أسباب تبعيتها للرأسمالية العالمية ، وعجزنا بسبب انعدام العدالة وإرتهان الإرادة السياسية للأجانب والفساد والاستهلاك الترفى عن تعظيم الانخار فى بلادنا من أجل هذا الطم أى تنمية بالاعتماد على الذات .

يطرح «على شريعتى» وهأعاجارى» القضايا الكبرى التى تخص تطورنا كبلدان نامية ذات حضارة قديمة عريقة . تختلف أو تتفق معهما لكنهما يملكان هذه الجسارة التى هى شروط المحبة للشعب والمستقبل . المستقبل الذى تطلعا إليه مختلفا وإنما لا تكبله التبعية أو الاستقلال والاستبداد . وتظلله العدالة والمساواة والحرية للشعوب والأفراد على حد سواء سوف تتابع طرح بعض هذه القضايا فى أعداننا القائمة لتتلافى تقصيرنا فى الانفتاح على ثقافة آسيا بما فيها من مسلمين ويوليين وهنوس وتاويين ولايينيين.

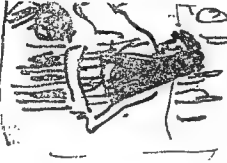
سوف يكون هذا العدد بين أيديكم وقد تصاعدت هبستيريا الحرب التى تزعم الامبريالية الأمريكية شنها على العراق وقد تصاعدت أيضا الاحتجاجات العالمية التى تسعى لمنع وقوع هذه الحرب.. ونحن مدعوون إلى الانخراط فى هذا السعى الشريف للإنسانية دفاعا عن إنسانيتها ضد توحش ويريبة رأس المال فلا دم من أجل النفط . كما هو شعار المظاهرات فى العالم أجمع . لا دم من أجل النفط .





ديمقراطية مدفوعة الثمن

- أمريكا-الشرق الأوسط .. صراع أم حوار : كولين باول
- الصفقة التي سيزد عليها المستقبل : غادة نبيب
- بيانات الخلاص والأمل .. من بونابرت إلى باول : د. علي مبروك



امريكا والشرق الأوسط: صراع أم حوار

كولين باول

ترجمة: غادة نبيل

جنبا إلى جنب الإعداد المحموم للحرب علي العراق قدم وزير الخارجية الأمريكية «كولن باول» مبادرته للشراكة الأمريكية مع الشرق الأوسط التي أعلنها أمام مؤسسة أمريكية معروفة باتجاهاتها اليمينية المعادية للشعوب .. وهذا هو نص المبادرة.

أريد أن أشكركم أيها الأصدقاء ، أصحاب السعادة السيدات والسادة ، أنتم بصفة خاصة ومؤسسة **Heritage** لدعوتى هنا لقضاء لحظات مع هذا الجمهور ومع جمهور المشاهدين والاستماع إليكم ومناقشة الآمال والطموحات التي نتقاسمها مع شعوب الشرق الأوسط. كما أريد بصفة خاصة أن أرحب بالضيوف المبرزين في الهيئة الدبلوماسية وأعضاء الكونجرس ومجتمع المنظمات غير الحكومية والقطاع الخاص.

شكراً لكم جميعاً أنكم وجدتم الوقت في جنول أعمالكم لمشاركتنا هذا المساء. وأنه لمن المناسب أن نتقابل هنا في مؤسسة **Heritage** ذلك أن رؤية هذه المؤسسة والتي هي بناء دولة تزدهر فيها الحرية والفرص والرفاهية والمجتمع المدني هي نفسها ذات الرؤية التي نشترك فيها مع شعوب الشرق الأوسط لمستقبل بلدانهم.

إن الشرق الأوسط منطقة هائلة ذات أهمية للشعب الأمريكي . والملايين منا يتعبدون في الكنائس والمساجد والمعابد اليهودية يمارسون شعائر الديانات الثلاث العظيمة التي ولدت في الأراضي التي تقع بين البحر المتوسط والخليج الفارسي (العربي-الأقواس من عنفنا).

إن لغتنا وتقاليدها مليئة بإشارات إلى القدس وبيت لحم ومكة ودليل هواتفنا يشتمل على أسماء مثل: موسى وليفي وشاهين وهو ما يعبر عن جنور عائلية عميقة لنا في الشرق الأوسط.

وإنه لمن المحزن -حد المأساة- أن الألوف من أبناء ونساء بلدنا قد ماتوا في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على يد إرهابيين ولدوا وتمت تنشئتهم على العنف (الثوري) في الشرق الأوسط.

وبادراكنا لأهمية المنطقة فإننا قد كررنا على مدى نصف قرن وأكثر دنا وثروتنا لمساعدة شعوب وحكومات الشرق الأوسط . وبالفعل فإن عملي في الخدمة العامة وخاصة في الخدمة العسكرية قد شكلته الأحداث في تلك المنطقة . إذ حظيت بأن أكون رئيس أركان الحرب للقوات المشتركة عندما قادت الولايات المتحدة التحالف الدولي-والذي شمل عدة دول عربية- الذي طرد المحتلين العراقيين من الكويت.

واليوم -كوزير للخارجية- فإن الشرق الأوسط يحتاج الكثير من اهتمامي. لقد ركزت سياستنا حيال الشرق الأوسط على كسب الحرب ضد «الإرهاب» ونزع سلاح العراق ووضع نهاية للصراع العربي الإسرائيلي.

والحرب ضد الإرهاب ليست مقصورة على الشرق الأوسط . إن أصبنا هناك لديهم مصلحة كبيرة في مثل تلك الحرب ضد الإرهاب وفي كسبها لأن الكثيرين قد عانوا من بلاء «الإرهاب» مباشرة . أنا سعيد أن أصبنا هم على مستوى التحدي وذلك من خلال دعم لعملية «الحرية المطلقة» في أفغانستان وتبادل المعلومات المخبرية وتلك الخاصة بتطبيق القوانين واعتقال الإرهابيين المتهمين والتعامل بطريقة أكثر صرامة مع تمويل «الإرهاب».

ويجب أن نتعامل أيضا مع الخطر الجاد والمتنامي الذي يمثلته النظام العراقي بزعامة صدام حسين وذلك بالتعاون مع دول الشرق الأوسط وأصبنا وحلفائنا والمجتمع الدولي.

ومن خلال إصدار القرار ١٤٤١ قدم مجلس الأمن للعراق الفرصة الأخيرة للوفاء بالتزاماته تجاه السلام والمجتمع الدولي إما أن ينزع النظام العراقي سلاحه بنفسه أو أن ذلك السلاح سيتم نزعنا دون الخيار لهم لكن هذا القرار لا يمكن تأجيله.

أيضا نحن لدينا مصلحة قومية عميقة في إنهاء الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني ونحن

نعمل مع أصدقائنا في المنطقة وفي المجتمع الدولي لتحقيق سلام دائم يقوم على رؤية الرئيس بوش للدولتين اللتين تعيشان بجانب بعضهما البعض في سلام وأمن . وهذا السلام سوف يحتاج من الفلسطينيين إلى قيادة فلسطينية جديدة ومؤسسات جديدة وإنهاء الإرهاب والعنف . وكلما يحقق الفلسطينيون تقدماً في ذلك الاتجاه سيكون على إسرائيل أيضاً أن تتخذ قرارات صعبة بما في ذلك وقف كل نشاط لبناء المستوطنات بما يتماشى مع تقرير ميتشيل . وكما أكد الرئيس بوش فإنه بالجهد المكثف من جميع الأطراف سوف تكون ولادة فلسطين ديمقراطية ناجحة أمراً ممكناً بحلول ٢٠٠٥ .

إن هدفنا النهائي هو تسوية عربية -إسرائيلية عادلة حيث يقبل كل سكان المنطقة بعضهم البعض كجيران ويعيشون في سلام وأمن ويبنون مستقبلاً أفضل للجميع . لقد كانت هذه التحديات في مقدمة اهتمامات سياسة أمريكا للشرق الأوسط والسبب قوى وأن كل واحد من هذه التحديات يؤثر بعمق على مصالحنا القومية ومصالح الناس الذين يرون في الشرق الأوسط موطنهم . ونحن ما زلنا ملتزمين -بعمق- بمواجهة كل من هذه التحديات بحيث نتعامل معها بحماس وتصميم .

وفي نفس الوقت فقد صار من الواضح -على نحو متزايد- أنه لا بد من أن توسع مدخلنا في معالجة شؤون المنطقة إذا ما كان لنا أن ننجح وبخاصة ، لا بد أن نعطي اهتماماً حيوياً وقوياً للإصلاح الاقتصادي والسياسي والتعليمي جاناً نعمل مع الناس والحكومات لسد الفجوة بين التوقع والواقع وهو ما أسمته الملكة رانيا بفصاحة بالغة «فجوة الأمل» . إن انتشار الديمقراطية والأسواق الحرة والذي غنته عجائب الثورة التكنولوجية قد خلق دينامو يمكنه أن يولد الازدهار ورفاهية الإنسان على مستوى غير مسبوق لكن هذه الثورة (التكنولوجية) تركت معظم الشرق الأوسط متخلفاً .

شاركت دول الشرق الأوسط على مر التاريخ بإسهامات لا تقدر بثمن في تطور الفنون والعلوم . أما اليوم فالكثير من الناس هناك يفتقرون إلى الحرية السياسية والاقتصادية وتمكين النساء والتعليم الحديث الذي يحتاجون إليه ليحققوا الازدهار في القرن الواحد والعشرين .

وقد حدد تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢ الذي وضعه عدد من كبار المفكرين العرب وأصدرته الأمم المتحدة خياراً جوهرياً بيت الجمود وبين نهضة عربية يمكن أن تبنى مستقبلاً مزدهراً لكل العرب . وليست هذه كلماتي إنما هي من خبراء عرب نظروا بعمق في هذه

القضايا وهي مبنية على الحقائق الواضحة.

هناك ما يقرب من ١٤ مليون عربي بالغ لا يجدون الوظائف التي يحتاجون إليها ليضعوا الطعام على موائدهم وليجدوا سقفا على رؤوس عائلاتهم ولكي يضعوا الأمل ليس فقط في قلوبهم بل في قلوب أطفالهم.

وسوف يدخل قرابة ٥٠ مليون مواطن عربي سوق العمل المكتظ أصلا عبر السنوات الثماني القادمة لكن اقتصاد الدول لم يعد يخلق وظائف كافية . النمو ضعيف والناتج القومي الإجمالي لا يقرب من ٢٦٠ مليون عربي أقل من مثيله لما يقرب من ٤٠ مليون أسباني وما زال يتراجع وإذا ما أضفنا انتاج ٦٧ مليون شخص في إيران نجد أن المجموع ما زال ثلثي نظيره في إيطاليا .

وداخلها هناك الكثير من اقتصاديات الدول التي تختنقها اللوائح والمحسوبة . وتفتقر إلى الشفافية وهي مظلة أمام الاستثمار والتجارة.

كما أن دول الشرق الأوسط هي أساسا غائبة عن الأسواق العالمية وهي توفر بالكاد ١ بالمائة من صادرات العالم غير النفطية.

إن عشر دول من الشرق الأوسط تنتمي إلى منظمة التجارة العالمية ولقد باتت حكومات المنطقة تدرك الآن مثلما حذر الرئيس المصري حسنى مبارك «إن إعطاء أولوية للتصدير هو مسألة حياة أو موت» . ونقص الفرص الاقتصادية هو بمثابة تذكرة إلى اليأس فإذا ما تضافر مع أنظمة سياسية جامدة يكون لدينا خليط خطر فعلا . وهكذا إلى جانب اقتصاديات أكثر حرية فإن العديد من سكان الشرق الأوسط يحتاجون إلى أن يكون صوتهم السياسى أكثر قوة.

نحن نرفض التصور الاستعلائى القائل بأن الحرية لن تتطور في الشرق الأوسط أو إنه لا توجد منطقة في العالم لا تستطيع أن تؤيد الديمقراطية.

لقد كان الرئيس بوش يعبر عن مطامح وأشواق الناس في كل مكان عندما أعلن في خطابه في وست بوينت أنه إذا ما وصل الأمر إلى حقوق واحتياجات الرجال والنساء لن يوجد صدام حضارات إن متطلبات الحرية تنطبق تماما على إفريقيا وأمريكا اللاتينية وجميع العالم الإسلامى . إن الناس لو منحوا حق الاختيار بين الاستبداد والحرية سوف يختارون الحرية . وما علينا سوى أن ننظر إلى شوارع كابول للمدينة بالسكان الذين يحتفلون بنهاية حكم طالبان في العام الماضى.

هناك أشعة أمل في الشرق الأوسط كذلك . دول مثل البحرين وقطر والمغرب بدأت إصلاحات

سياسية جريئة والمؤسسات المدنية تزداد نشاطاً وفعالية في العديد من الدول العربية وهي تعمل على قضايا حيوية مثل ضمان ببطاقتها هوية للنساء من في أشد الحاجة إليها .

كما أننا نشاهد انفجاراً في منافذ الاعلام بدءاً من القنوات التلفزيونية الفضائية وحتى الصحف الاسبوعية الصغيرة وعلى الرغم من أن بعضها ما زال أقل من مستوى المسؤولية لتقديم التغطية المسؤولة والمعلومات والوقائع الفعلية إلا أنها إجمالاً توفر المطومة للمزيد من الناس أكثر من أي وقت مضى. ومع المعلومات آخر الأمر ، تأتي المعرفة ، المعرفة لتربية النشء والمعرفة بما يحدث في مناطق أخرى من العالم.

رغم ذلك فإن الكثير من الشرق أوسطيين تحكمهم أنظمة سياسية مغلقة والكثير من الحكومات تكبح مؤسسات المجتمع المدني ننظر إليها كتهديد أكثر مما ترحب بها كأساس لمجتمع حر وديناميكي وملئ بالأمل وما زالت لغة الكراهية والاستبعاد والتحريض على العنف هي الأكثر شيوعاً في كل المنطقة.

وكما قال ملك المغرب لبرلمان بلاده منذ عامين «لتحقيق التنمية والديمقراطية والتحديث من الضروري تحسين وتقوية الأحزاب السياسية والنقابات العمالية والهيئات والاعلام وتعظيم حجم المشاركة وأخيراً ، هناك الكثير من أطفال المنطقة يفتقرون إلى المعرفة اللازمة للاستفادة من عالم يتميز بالحرية الاقتصادية والسياسية. هناك عشرة ملايين طفل في سن التعليم المدرسي لم يدخلوا المدرسة وهم إما يعملون أو في الشوارع وذلك بدلاً من أن يكونوا في فصولهم الدراسية.

إن ما يقرب من ٦٥ مليون من أبائهم لا يستطيعون القراءة أو الكتابة ناهيك عن عدم إمكانياتهم مساعدة أبنائهم في دروسهم أو تعليمهم القراءة والكتابة وبالكاد فإن شخصا واحداً من بين مائة شخص لديه الإمكانية للحصول على كمبيوتر ومن هؤلاء (أو هذه النسبة) النصف فقط هم من يملكون القدرة على الوصول للعالم الأوسع عن طريق الإنترنت وحتى عندما يذهب الأطفال إلى المدرسة فإنهم كثيراً ما يفشلون في الحصول على المهارات التي سوف يحتاجونها بشدة لكي ينجحوا في عالم القرن الحادي والعشرين . إن التعليم كثيراً ما يعني التعلم القائم على أكثر مما يعني التفكير الابداعي النقدي الضروري للنجاح في ظل العولمة.

ولقد وجد الخبراء الذين وضعوا تقرير التنمية العربية أن «التعليم قد بدأ يفقد دوره البارز كوسيلة لتحقيق الترقى الاجتماعي في الدول العربية ليتحول بدلاً من ذلك إلى وسيلة لإطالة أمد التراث الاجتماعي والفقر».

إن هذه إدانة واضحة. لكنها أكثر من ذلك. إنها دعوة للحرك.
هناك قضية مستمرة فى كل هذه التحديات وهى تهيش النساء إن أكثر من نصف نساء
العالم العربى أميات.

كما أنهم يعانون أكثر من الرجال من البطالة وضعف الفرص الاقتصادية والنساء كذلك
يشكلن نسبة صغيرة من أعضاء البرلمان فى الدول العربية أكثر من أية منطقة أخرى فى العالم.
وما لم تطلق دول الشرق الأوسط قدرات وامكانات نساها فإنها لن تبني أى مستقبل للأمل .
وأى مدخل للشرق الأوسط يتجاهل تخلفه السياسى والاقتصادى والتعليمى سوف يكون مبنياً على
الرمال ، ذلك أن الوقت قد حان لإرساء قاعدة متينة من الأمل إن الأمل هو موضوع حديثى اليوم.
تريد أمريكا أن تتحالف مع الناس فى الشرق الأوسط وتتحرك قدماً للأمام على أساس الأمل
الأمل فى السلام والأمل فى حياة أفضل لأطفال الشرق الأوسط وأطفال العالم.

ولصالح هذا الهدف فإنى أعلن اليوم مبادرة تضع الولايات المتحدة بحزم فى صف التغيير
والإصلاح ومستقبل حديث للشرق الأوسط .فى صف الأمل.

فى مارس الماضى أثناء زيارة الرئيس مبارك إلى واشنطن طلب الرئيس بوش منى أن أتراس
عملاً جديداً للحكومة الأمريكية لدعم شعوب وحكومات الشرق الأوسط فى جهودهم لمواجهة هذه
الاحتياجات الإنسانية الضاغطة والتي تمثل تحدياً.

إنى سعيد إذ أعلن النتائج المبدئية لعملنا- مجموعة برامج مبتكرة وإطار عمل للتعاون
المستقبلى الذى نسميه مبادرة الشراكة الأمريكية- الشرق أوسطية.

إن مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية هى جسر بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط
، بين حكوماتنا وشعوبنا وهى مبادرة تغطى فجوة الأمل بالطاقة والأفكار والتمويل .

إن مبادرة شراكتنا هى استمرار وتعميق لالتزامنا القائم منذ فترة بعيدة بالعمل مع كل
شعوب الشرق الأوسط لتحسين حياتهم اليومية ومساعدتهم لى يواجهوا المستقبل بأمل.

ومثلما أن قرارنا لاعادة انضمامنا لليونسكو هو رمز لالتزامنا بتعزيز حقوق الإنسان
والتسامح والتعلم كذلك هذه المبادرة هى إعلان مجسد لالتزامنا نحو الكرامة الإنسانية فى الشرق
الأوسط.

بداعة نحن سنخصص ٢٩ مليون دولار لنجعل هذه المبادرة تبدأ بداية قوية وبالعامل مع
الكوتجرس سوف نسعى للحصول على تمويل إضافى يارز للعام القادم وهذا الدعم سوف يكون

أكثر من المليار دولار أو أكثر التي تمنحها في صورة مساعدات اقتصادية للعالم العربي كل عام. وترتكز مبادرتنا على ثلاث دعائم إذ أننا سوف نتعامل مع جماعات القطاعات العام والخاص للقضاء على فجوة الوظائف بالإصلاح الاقتصادي واستثمار رأس المال وتطوير القطاع الخاص وسوف يشترك كل زعماء الجماعات لرسم فجوة الحرية بمشروعات لتدعيم المجتمع المدني وتوسيع المشاركة السياسية وإعلاء صوت النساء كما أننا سوف نعمل مع الآباء والمعلمين لرسم فجوة المعرفة بمدارس أفضل وفرص أكبر للتعليم العالي.

أصدقائي.. إن الأمل يبدأ بشيك وهذا يتطلب اقتصاداً حيوياً .

وعبر مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية سوف نعمل مع الحكومات لإنشاء لوائح وقواعد اقتصادية من شأنها أن تجذب الاستثمار الأجنبي وتسمح للقطاع الخاص بالازدهار كما أننا سوف نساعد المشاريع الصغيرة والمتوسطة في الوصول إلى دم وحياة ورأس المال وكخطوة أولية يسعدني أن أعلن أننا سوف ننشئ جهات تمويل للمشروعات للشرق الأوسط على غرار نموذج تمويل المشروع البولندي الأمريكي الناجح وهذه التمويلات سوف تبدأ الاستثمار في مشروعات جديدة واعدة.

كما أننا سوف نساعد المزيد من البلدان في المشاركة في غنية الاقتصاد المتوحد وهذا يعني أن نقدم لأعضاء طموحين للاتحاد بمنظمة التجارة العالمية مثل السعودية والجزائر ولبنان واليمن المساعدة التقنية لتصل إلى معايير عضوية منظمة التجارة العالمية وهذا يعني أن نبني على اتفاقية التجارة الحرة الناجحة التي عقدها مع الأردن بأن نبدأ اتفاقية تجارة حرة مع المغرب كما يعني أن نعمل مع دول مثل مصر والبحرين لاستكشاف وسائل لتعطيل علاقتنا التجارية الاقتصادية الثنائية بما في ذلك اتفاقيات ممكنة للتجارة الحرة.

إن الاقتصاديات المفتوحة لكي تكون ناجحة تتطلب أنظمة سياسية مفتوحة.

وهكذا فإن القاعدة الثانية في مبادرة شراكتنا سوف تدعم أولئك المواطنين في كل منطقة ممن يطالبون بأن يكون لهم صوت سياسي مسموع ولقد بدأنا المشروع الأول الرئيسي في هذا المجال الشهر الماضي عندما أتينا بوفد مكون من ٥٥ سيدة عربية وزعيمات سياسيات إلى الولايات المتحدة لمراقبة انتخاباتنا للتجديد النصفى للكونجرس.

لقد كان لي لقاء ممتاز بهذه المجموعة الرائعة ولكم أعجبت بطاقتهم والتزامهم ولقد طرحن أسئلة صعبة على وتناقشنا في القضايا كما يفعل الناس في المجتمع الحر.

لقد كانت هؤلاء النساء فخورات بارادتهن وتحديث بقصاحة عن أمانتهن في عالم حيث يمكن

لأطفالهن أن يكبروا ويعيشوا في سلام وتحديث عن آمالهن في رؤية نهاية للصراعات التي تعيق منطقتهم. أيضا تحدثن عن توقعاتهن من أمريكا وعن كيف أنهن يرغبن في أن يسيطرن على حياتهن وأقدارهن وطلبن معرفة المزيد عن الديمقراطية الأمريكية وكيف يمكنهن أن يجعلن أصواتهن الخاصة أكثر تأثيراً.

وتتطلب المشاركة السياسية المتعاظمة كذلك تقوية المؤسسات المدنية التي تحمي حقوق الأفراد وتوافر الفرص للمشاركة.

وعبر مبادرتنا سوف ندعم هذه الجهود . ولكي تكون فعالة فإن الاقتصاديات الحرة والنظم السياسية المفتوحة تحتاج إلى مواطنين متعلمين وهكذا فإن الدعامة الثالثة في مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية سوف تركز على إصلاح التعليم.

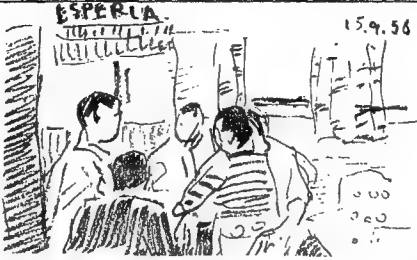
إن برامجننا سوف تركز بصورة خاصة على تعليم الفتيات. لقد قال شاعر مصري ذات مرة يقصد أحمد شوقي («الأم مدرسة إذا أعدتها ... أعدت شعبا طيب الأعراق».

وعندما ترتفع معدلات تعليم الفتيات فإن كل المؤشرات الأخرى المهمة للتنمية في بلد ما سوف ترتفع هي الأخرى.

ويعمادة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية سوف توفر المنح لكي تبقى الفتيات في المدارس ولتوسيع مجال تعليم الفتيات والنساء وعلى نطاق أوسع سوف تعمل مع الآباء والمعلمين لزيادة الاشراف المحلي والعائلي على النظم المدرسية وفي كل مجال من هذه المجالات نحن ملتزمون بشراكة حقيقية تبادلية مع مواطني وبلدان المنطقة ومع الكونجرس بل حتى مع متبرعين آخرين عندما نبدأ تنفيذ هذه الأجندة.

إن مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية هي إحدى أكثر المهمات الصعبة التي فكرنا فيها سواء نحن أو أصدقائنا في المنطقة ويجب أن نكون واقعيين تماما بينما نتحرك قدماً فيما يتعلق بالعوائق التي أمامنا وفيما يتعلق بالوقت الذي سوف تستغرقه المبادرة لنرى تغييراً حقيقياً يتجزأ والدور المحدود الذي يمكن لأطراف خارجية أن تلعبه.

وعلياً أن نفهم كيف أن مصلحة الشرق الأوسط الحقيقية يجب أن تدفع هذه المبادرة وأن التزام الشرق الأوسط فقط هو الذي سوف يحافظ عليها بمرور الوقت . لكن يجب كذلك أن نكف عن التسليم بالتوقعات القليلة وكما يظهر الغليان في المنطقة فإن شعوب الشرق الأوسط نفسها معنية بهذه القضايا ذلك أن هذه هي القضايا التي يتكلمون عنها وهي قضايا هم على استعداد



لأن يتعاملوا معها.

ونحن لا نبدأ من الصفر كذلك لأننا أصلاً نعمل مع طائفة كبيرة من الشركاء فمثلاً في الشهر الماضي فقط أعلننا تأسيس مؤسسة **LEAD** حيث تشارك الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية كل من البنك الدولي والقطاع الخاص في مصر لدعم قروض المشروعات الصغيرة في مصر . وبالإضافة لهذا ، فإنه عبر شراكتنا في التعليم نحن بالفعل مشاركون مع دول المنطقة في مجالات تدريب المدرسين وتدريب اللغة الانجليزية وبرامج أخرى لتدعيم نظمها التعليمية. حقا، إن جانباً كبيراً من عملنا سوف ينصب على إعادة تأمل برامجنا الحالية لكي نتعلم منها ونتأكد من أن مساعدتنا تلمس حيوات أكبر عدد من الناس كلما أمكن.

كما أننا كذلك لا نشجع استخدام مدخل «مقاس واحد يناسب الجميع» ! فالمنطقة أكثر تنوعاً من هذا وسوف نلامس الأشياء بأيدينا ، ننصت ونعمل كي نتأكد من أن برامجنا تم تفصيلها لمواجهة احتياجات الناس حيث يعيشون حياتهم ففي كل أسفارى عبر الشرق الأوسط في الحياة العامة والخاصة شاهدت عن قرب مدى حماس وإبداع وإخلاص الآباء بينما يحاولون أن يبنوا مستقبلأ أفضل لأولادهم لكننى رأيت أيضاً إحباطهم عندما يكون التقدم بطيئاً إلى هذا الحد المولم . لا بد أن نتحرك بشكل أسرع وسوف نتحرك بشكل أسرع.

عبر مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية نحن نضيف الأمل إلى أجنحة الولايات المتحدة- الشرق الأوسط.

ونحن نعد ونزهرن طاقتنا وقدراتنا ومثلنا لتحقيق الأمل لكل أبناء الله الذين يصفون الشرق الأوسط بـ « الوطن » . وطنهم.



Leonid



ردا على كولن باول:

الصفاقة التي سيرد عليها المستقبل

غادة نبيل

السيد كولين باول وزير خارجية السيد بوش خرج علينا بالضبط في توقيت حشد قوات بلاده لاتمام احتلال منطقة الخليج بما يعرف أن أغلب الحكام العرب والأنظمة العربية لاتريد سواء أمام شعوبها المقهورة.

السيد باول يتحدث عن بناء الأمل للسنوات القادمة في المنطقة وذلك من خلال مبادرة شراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط (يفترض أنه جغرافياً جعل ذلك مرادفاً للعالم العربي فحسب) .. والسيد باول كان يتكلم عن " الشرق أوسطيين " أى نحن وبالطبع الاسرائيليين فالعالم أولاً وأخيراً ماهو إلا قرية صغيرة ولها حاكم واحد هو الذي قام بتعيين واختيار السيد باول في وظيفته التي خرج منها يطل على القرية التي تدمرها بلاده ويعظنا عن الأمل.

والآن لتتأمل وصفة الأمل المصنوعة في أمريكا لعنا نفهم من يتولون عنا عملية الإحساس بكرامتنا لأن السيد باول يتحدث عن أن مبادرة بلده هي تجسيد مادي للالتزامها تجاه الكرامة الانسانية في الشرق الأوسط .. وقوات بلده لاتعسكر في الخليج بل إنها لم تفكر أصلاً في شن حرب على العراق إلا

من أجل هذه الكرامة.

أوكيه ياسيد باول سوف نقوم بـ " مط " أفقتا الضيق لنحاول أن نفهم وإن نفترض أنك تسخر وتهزأ .. سنتعامل مع ماتقوله أو سنحاول على الأقل .. بجدية وهكذا سنعطيك أكثر مما أعطيت كل قضايانا ونظرتك إلينا وإلى الإجراء الذي ترتكبه الإدارة التي تشكل أنت بمنصبك أحد أهم عناصرها . يقول سيانته : " لقد كرسنا على مدى نصف قرن وأكثر دمنا وثروتنا لمساعدة شعوب وحكومات الشرق الأوسط " .

منذ نصف قرن وأكثر ! . هذا تاريخ نشوء دولة إسرائيل في العصر الحديث وذلك بتسليم فلسطين من الانتداب البريطانى إلى اليهود عبر وعد بلفور ثم تبنى الولايات المتحدة لهذه الابنة الوحيدة لها ودعمها - كما هو واضح - مادامت الامبراطورية الأمريكية . وما من دم أو ثروة إلا التي يقصدها السيد باول لإسرائيل أما نحن فنعجز تماماً عن رؤية كيف أن أربع حروب خاضتها هذه الأمة حتى الآن وبذعت فيها من دمها وثروتها . كيف يمكن أن تكون قد ساعدتنا أو حصلنا فيها على الدعم والمساندة من بلاد مستر باول .

ويقول : إما أن ينزع النظام العراقي سلاحه بنفسه أو أن ذلك السلاح سيتم نزعها ولا ضرر ولا فرق إن لم يجد المفتشون النوايا أى سلاح لكى ينزع فى العراق فالاجتياح واقع والحرب قائمة قائمة - مع أنها لن تكون حرباً بل تمهيداً من طرف واحد بدون أى توازن فى القوة ..

لعل رغبة التدمير الهستيرى التي تسيطر على الإدارة الأمريكية تتجاوز عن " العتة " والاستبداد المطلق الكامن وراء قرار الحرب السابق على إرسال المفتشين للعراق .. ويقول باول " إنه اختياريهم (يقصد القيادة العراقية بكن هذه القيادة بلا شعب) .. إنه اختيار العراقيين أن يضرب بلدهم أو لا يضرب !! .. ياالديمقراطية !

ثم نكتشف أن هذه الإدارة تملك قراراً ورؤية حيال إنشاء دولة فلسطينية بطول عام ٢٠٠٥ .. كلام قديم ومانعرف سوى أن أى توقيت أو ترسيم أو عظام تلقى إنما تعكس الرؤية والقرارات التي يتم اتخاذها فى تل أبيب .

فالإدارة الشارونية - الأمريكية تملك أن تقول لشرنمة من الشعوب العربية إما سلام على الطريقة الأمريكية .. أى بشروط إسرائيل المنفردة أو لاسلام ولا دولة فلسطينية يملك " شارون الذى ظل يصرخ وقت ضرب الأبراج الشهيرة فى ١١ سبتمبر " العراق ويأسر عرفات " ويشير بأصبعه على أعدائه الذين يريد أن يأتى النور عليهم - أقول يملك وحده مفاتيح السلام المبني على الحل النهائي والآخر للمشكلة الفلسطينية (القتل - التهجير الجبرى والإحلال العرقى أو الترحيل الترانسفير - جعل الحياة للفلسطينيين مستحيلة على أرضهم .. إلخ) المهم إنه يملك الحل الأخير لتلك المشكلة مثلما كان هتلر

يمك الحل الأخير لمشكلة الوجود اليهودى فى أوروبا .

والسيد باول يتحدث - كمادة المسرحيين السياسيين الأمريكين - عن نهاية للإرهاب والعنف من منطلق مايراه أى شخص يأتى إلى رئاسة الوزراء فى تل أبيب .

يتحدث باول بخبث فى المبادرة التى من الأفضل أن يقطع وراعاها الكثير من الماء الذى نتعنى لو نصبه فى حلقه غصباً مثمناً تغفل بلاده باعتماد سياسة الإكراه والنوع على الكرامة الوطنية فى أى بلد يجعله حظه العاثر مسيلاً للعاب القائمين على مصلحة الأمن القومى الإسرائيلى الأمريكى، يتحدث وهو يستعير جملاً مقتبسة من كلمات الملكة رانيا ملكة الأردن والرئيس حسنى مبارك وملك المغرب بل تبلغ الصفاقة والتلاعب - فى تدخلم حتى فى نظم ومناهج التعليم بحجة أن النظم التعليمية فى بلاد العرب ترسخ " التحفيظ " وإيس الإبداع والتفكير وهى حقيقة - إنه يستشهد ببيت الشاعر أحمد شوقى الشهير " الأم مبرسة إذا أعدت بها / أعدت شعباً طيب الأعراق " .. أمريكا هى الأم .

فقط نحن العميان سنرى الفهم والنية .. ألسنا عرباً ؟

بالطبع هو صادق وهو يقول إن لغة الكراهية والاستبعاد والتحريض على العنف هى اللغة السائدة فى منطقة بلاد العرب ولا ينسى أبداً إبادة صدام المتكررة للمواطنين الأكراد فى العراق ولا الحرب الأهلية فى لبنان .. لكن ماذا عن لغة السيد بوش تجاه العالم وتجاه منطقتنا وهو المتحدث الرافى الذى لا يحارب أحداً إلا من منطلق منع الحرب ؟

السيد بوش الذى قسم العالم إلى عالم حر وجنير بالحياة .

وعالم غير حر جنير بالإبادة والتكمير أى . ليضمن فرصته الوحيدة فى البقاء .. عليه أن يرضى بمواضعات ضد كرامته وضد هويته .. عالم على " الشرق أوسطيين " فيه كما يسميهم باول ليذغم الجميع محتل وصاحب أرض فى سلة واحدة وبرتاج .. عليه أن يخضع لوجود " الإرهاب الإسرائيلى الذى تحميه أكبر قوة نووية فى العالم استخدمت أسلحتها الذرية أول ما استخدمتها ضد الشعب اليابانى والآن لا تتصور أن تسمح لقوة أخرى مرئية أو غير مرئية بتطوير سلاح مشابه أو حتى أقل .

أين العالم الذى يعظ باول عن ضرورة تنمية اقتصاديه - الذى من المفترض وفق حكم الحاكمين - أن يكون حراً فقط ومتعوهاً تماماً والذى يتكلم فيه عن احتياج الشرق الأوسط إلى " صوت سياسى أكثر قوة " يبدو وكأن الفلسطينيين محرومون تماماً ومستبعدون واقعياً من أن يكون لهم أى حق أو دور فيه مالم تتم إعادة صياغة المواطن الفلسطينى الذى يتحدث باول عن ضرورة تغيير قيادته ! رغم أنه يقول فى هذه الأجندة التى ليس مسموحاً فيها الفلسطينى بأى صوت يختاره وهو وفق رؤيته هو وليس رؤية أعدائه إنه يرفض النظرة الاستعمارية التى ترى أن " الحرية " لن تنمو وتتطور فى الشرق الأوسط ..

لنبتهج ! سيعطوننا الفرصة وهو على أية حال يشعر بالرأفة الكبيرة تجاه ٤١ مليون عربي ليست لديهم وظائف تضمن لهم سقفاً فوق رؤوسهم وطعاماً على مائدتهم .. والكثير من أطفال العرب إما فى البيت أو يعملون أو يبيعونهم هم أطفال شوارع والأمريكان سيضعون لنا أن تختفى الظاهرة وينسى هنا أو يتناسى بول محمد الدرة والطفلة حنين ذات التاسعة التى كانت تقف فى شرفة منزلها والأطفال الثلاثة الذين استشهدوا أثناء محاولتهم التسلل إلى إحدى المستعمرات اليهودية فقتلهم الجيش الإسرائيلي ونشر الأهرام أن جثثهم تعرضت للتمثيل بالسكاكين بعد القتل .. وغيرهم من طوابير الأطفال فى فلسطين والعراق ..

يجيبون إلقاء الخطب عن السلام وهم يدفعون الحشود للحرب ويتكلمون عن شراكة قهرية مفروضة من الأقوى على الأضعف الذى هو منهك وخاضع ومتعاون وفاسد أحياناً كثيرة لكنه كذلك اختار هذا الكم من الضعف الذى جعل العراق والعرب كلهم يقفون هذا الموقف من قضية التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل مقارنة بالموقف الشامخ القوى الذى تلقفه كوريا الشمالية من قضية التفتيش عن أسلحة دمارها الشامل.

وبالنسبة منا يقول بول إن مبادرته هى جسر بين حكومات وشعوب بلده وبلادنا ! يجعل الحكومات والشعوب شيئاً واحداً لدى الفريقين رغم المظاهرات المناهضة لدخول بلاده الحرب ضد العراق والتى تقوم فى أمريكا نفسها وفى الكثير من عواصم العالم الأوروبية والعربية أى اختلال إذن يريدون لنا ابتلاعه هؤلاء؟

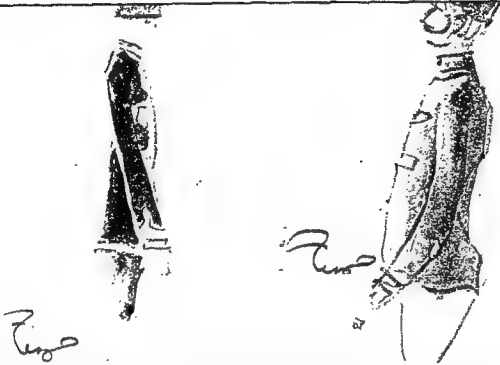
وهل اجتياح العراق يتم بإرادة الشعب العراقى أو القيادة العراقية أو أكثر الشعوب العربية و لنتناخض من الموقف شديد الخيانة والتنازل الذى تلتزمه بعض الأنظمة العربية فى الخليج، وهل كرامة الأمة العربية هى التى تتحقق بتتصيب جنرال عسكري أمريكى وهى الصورة الحديثة من فكرة المنوب السامى لإحدى الإمبراطوريات العظمى أيام زمان فى بلاد المستعمرات ؟

سوف يساعدنا الأمريكيين فى المشاركة واقتسام مايسميه بول " غنيمة " الاقتصاد العالمى .. بأن نستورد المزيد من القمح الأمريكى والخبراء الأمريكىين وندخل فى عمليات ومشروعات اقتصادية تعتمد أكثر فأكثر على ما يحدث فى الأسواق العالمية وتزداد مديونيتنا للبك الدولى ويأخذوا هم بترونا وكرامتنا وأرضنا والتعليم (وتعليمنا يحتاج إلى تشوير وتغيير لا جدال) يأخذون عقولنا وهويتنا

إنها غنيمة للمكونة نالز والفرايد تشيكن .. أن يأخذوا - أخيراً - بطوننا.

يتحدث بول عن مجموعة من السيدات اللاتى استضافتهن بلاده ضمن منحة ليعرفن المزيد عن الديمقراطية الأمريكية.

لا أستطيع التطليق على هذا بكلام محترم صالح للنشر . فقط أنكر بكلام رئيسه : " من ليس معنا



فهر ضدنا" لكنه يؤكد - أقصد باول - نفيأ لاي شكوك وتاويلات - أن بلاده وإدارته لاتشجع على سياسة أن مايصلح لزيد يصلح لعبيد ولو جبراً ويقول - بسلامته - لابد أن نتحرك بأسرع مايمكن وسوف نتحرك بأسرع مايمكن .

ونحن نرى هذا .. نراه فقط ونمارس السلطة الوحيدة التي ارتضيهاها لأنفسنا : سلطة البصم ثم يعود ليذكر كلمة أدين لها بالكثير من القهقهة التي كنا فعلاً نحتاجها بسبب توترات مختلفة مررنا بها أخيراً : المثالية الأمريكية.

يتحدث باول عن " مثالية " بلاده التي تحيط بنا في مايحدث وامانه من شواهد في فلسطين وفي الأسلحة الجديدة التي تنوي بلاده استخدامها وتجربتها من باب التسلية على الشعب العراقي إذ جعل هو تلك المثالية هي الباب للأمل الذي ظل يتحدث عنه طوال مبادرته التي يلقي بها أمام شعوب المنطقة وعليهم أن يغتنمو الفرصة ، لعلها تكون الأخيرة لهم ، للدخول في حيز يصفه بـ " كل أبناء الله " في ختام مبادرته فاضحاً إدعاء التسامح المقتعل بلغة دينية مسرحية أذكر أن صحفياً يهودياً اختار أن يصف بها عمق تظفل التراث العبراني المسيحي في نفسية وعقلية الرئيس الأمريكي الحالي وكيف أنه يحب إسرائيل - بحسب وصف ذلك الصحفي على الإنترنت - " حباً من الحشا " .

أبناء الله الذين كما يذكرهم باول هم كل من يقولون عن الشرق الأوسط " وطننا " .. إسرائيل قبلنا ياسادة !

السنا جميعاً أبناء الإله الأمريكي الجديد ؟

هيا إنن قيل أن يفوتنا موعد الصلاة !



بيانات الخلاص والأمل

من بونايرت إلى باول

د. على مبروك

وإن فإنها البشرية ، لابد أن تعم فيافي العرب بعد أن أضيف الأمل إلى أجندة الولايات المتحدة الشرق أوسطية ، التي لم تتسع قليلا لغير إسرائيل والنفط ، ثم ما هي تتسع أخيرا بوعبر الأمل- الذي ليس ثمة ما هو أكثر تردادا منه في مبادرة السيد «باول» - للعرب كبشر ، وليس كنقط فقط ، لكنهم يخلون مع ذلك ، من قبل البشر الأدنى في الرتبة والمكانة ، وهكذا فليس لأحد أن يتصور اتساع «الأمل الأمريكي» للعرب حقاً كبشر . بل فقط كصور تتزين بشارات واكسسوارات الأمركة.

ولعل ذلك ما يدركه المرء ، مباشرة وصريحا ، من ملاحظة الثمن المتدنى لهذا الأمل ، فإذا هو الأمل «أمريكي» ، فإنه كان لابد أن يكون «محسوبا» ومدفوع الثمن ، وأعني أنه ليس أبدا من قبيل الأمل تصنعه بلاغة الكلمات ، أو فصاحة اللسان ، بقدر ما هو الأمل مشفوعاً بالكلفة وحساب الجدوى ، ومن هنا فإنه يبدأ بشيك «على قول السيد باول الذي لم يتورع عن استخدام لغة البيزنس والراسمالية على نحو يليق بواحد من السلالة البراجماتية المباركة ، وإذا هو الشيك

ضئيلًا ومتدنياً . فإنما ليليق بالعرب الذين انحطوا إلى مواطنى الدونية ، والسقوط ، خالق أنها .
تسع وعشرون مليون دولار . فقط هي جملة ما أمكن رصده لتنفيذ هذه المبادرة ، ويماعنى - وعلى
فرض توزيع هذا المبلغ بالسوية بين العرب - أن العربى الولحد لن يتكلف أكثر من «نصف جنيه
مصرى» - حسب أعلى سعر للدولار - ليصبح مواطنا على حسب المواصفات القياسية الأمريكية ..
بل وحتى حاصلا على شهادة جودة وهكذا «نصف جنيه لكل مواطن» (يا بلاش؟) سوف تنحل
مشاكل العرب جميعا مع الديمقراطية والحدائق والتكنولوجيا ، ومنظمة التجارة المالية ، وكل شئ
وماهى - بعد جهود مئات المفكرين وعشرات المشاريع الفكرية ، ابتداء من الطهطاوى والتونسي
وانتهاء بالجابرى وحنفى (بل وحتى النجم الصاعد طارق حجي) - تنتهى أسئلة الحدائق
والديمقراطية فى العالم العربى إلى أن تجد إجابتها عبر هذا الاستثمار لمبلغ تافه .. يالها من
نهاية تليق بالعرب حقاً!!.

وعلى أى الأحوال فإنه يبقى أن صبر العرب لم يتسرب هباء . فبعد العقود - وحتى القرون
- من اليأس والقطوع ، ها هو ذا يبرز فجر الأمل وهو يبرز هذه المرة من قلب «الأطلنطى» بعد أن
ظل العرب طويلا يتوقعونه بازغاً من قلب «المتوسط» ، مبددا ظلمات عالمهم للتخلف الذى لم يفارق
بعد أفاق العصور الوسطى ، حيث «لغة الكراهية والاستبعاد والتحريض على العنف هى - على قول
«باول» - الأكثر شيوعاً فى كل المنطقة» .. «وهنا فإنه ولولا أن المصادفات السعيدة قد جعلت
السيد «باول» يلمح بعض أشعة هذا الأمل تتلألأ فى فضاء البعض من ممالك العرب السعيدة
«المغرب والبحرين وقطر» ، لكانت ظلمة اليأس - ولا شئ سواها - هى ما تغطي فضاءات عالم
العرب كله ، ولكن ذلك لابد أن يحيل إلى ضرورة أن يتطلع بقية العرب للتغساء إلى ما جرى فى
هذه الممالك السعيدة الثلاث ، مستلهمين وناقلين ، لينالوا اعتراف السيد باول ، ولو بأمل واحد
يشع من أرجاء عوالمهم الكثيرة.



لاتخرج مبادرة السيد باول عن سياق التقليد الغربى المستقر فبعد جرت عادة
الغرب (الاستعماري) على ابتداء كل موجة من موجات تمدده على العالم بمنشور أو بيان يتعالى
فيه بنفسه إلى ذروة البرئ المخلص ، ويتثنى فيه بغيره إلى مواطنى «التخلف العاجز» أو حتى
الفاقد ، وبالطبع فإنه «المخلص» يتلى لا يبتغى شيئاً لنفسه ، بقدر ما يحمل على عاتقه عبء

الخلاص غيره ، وأما ما وراء ذلك من السعى إلى الهيمنة «فإنه يبقى من قبيل المسكوت عنه وما لا يقال.

وهكذا فإنه وابتداء من منشور «يونابر» إلى المصريين- الذى كان الأول ضمن سياق موجة التمدد الغربى الاستعمارية الحديثة على العالم العربى -وانتهاء بمنشور «باول» الذى لن يكون الأخير . فإنه لا شئ يطرحه الغرب إلا تلك الثنائية المانوية عن التخلف أو السقوط ثم الخلاص ، والتي تكاد أن تلخص جوهر الرؤية المسيحية للعالم من «مدينة الله» السامية فى مقابل «مدينة الأرض» الساقطة .. ولكن ومع ضرورة الوعى بثلثه فيما قد أتى المسيح، المخلص ليحرر حقا وليس ليستبد فإن الغرب إنما يمتد للاستعباد تحت راية الخلاص.

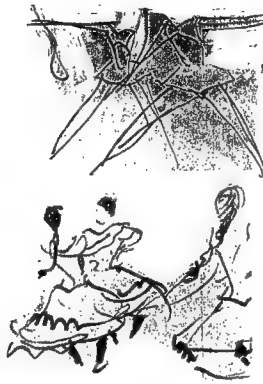
ومن هنا إلحاح كل من «يونابر وباول» على الابتداء من تكريس حقيقة تخلف موضوعهما وسقوطهما وهما مستعدان تماما لتوثيق ما يصدرانه وتزويده بحقائق حول هذا التخلف من أصحاب الشأن أنفسهم تأكيداً للحيد والنزاهة) فإذا يلح «باول» على أنه أى مدخل للشرق الأوسط يتجاهل تخلفه السياسى والاقتصادى والتعليمى سوف يكون مبنياً على الرمال . فالكثير من الناس هناك يفتقرون إلى الحرية السياسية والاقتصادية ، وتمكين النساء والتطعيم الحديث. وهذه ليست كلماتى ، إنما هى من خبراء عرب نظروا بعمق فى هذه القضايا وهى مبنية على الحقائق الواضحة» ، فإن «يونابر» قد سبقه إلى الإلحاح على نفس التخلف (الراهن) لموضوعه حيث :كان سابقا فى الأرض المصرية المدن العظيمة والظجان الواسعة والمتجر المتكاثر يوما أزال ذلك كله (حيث التخلف الراهن) إلا الظلم والطمع من المالك . هذه الزمرة المجلوبة من بلاد الألبازة والجراكسة يفسنون الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد مثله فى كرة الأرض كلها» وبالطبع فإن الإنطلاق من هذا «التخلف والسقوط» (الذى انتفعا يكرسانه عبر دغدغة مشاعر السامعين بالإشارة إلى ماضيهم المشرق ، تكريسا لتخلفهم المزدوج لا بالنسبة للغرب فقط ، بل وبالنسبة لأسلافهم أيضا ، ليمسنى السيطرة عليهم تماما) لم يكن إلا التوطئة اللازمة لتقمص دوره المخلص البرئ» راح يلعبه «نابليون» منادياً « يا أيها المصريون» قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حاكم من يد الظالمين » ثم راح باول يتقمص نفس الدور مؤكداً على أنه يقدم مبادرة تغطى فجوة الأمل» (فى الخلاص طبعاً) بالطاقة والأفكار والتمويل . وهى استمرار

وتعميق لالتزامنا القائم منذ فترة بعيدة بالعمل مع كل شعوب الشرق الأوسط لتحسين حياتهم اليومية ومساعدتهم لكي يواجهوا المستقبل بثمل، وكذا فهي إعلان مجسد لالتزامنا نحو الكرامة الإنسانية في الشرق الأوسط.

وإذا كانت الوقائع ، ثم الوثائق ، قد كشفت حدود براءة نابليون ، وفشحت زيفه وهو الذي لم يتورع عن أن يتخذ من الأزهر اصطبلًا لخيله ، بعد أن كان قد ارتدى عمامة الشيخ وجبته ، فإن الأمر في حالة السيد «باول» كان يمكن أن يمر بسهولة لو أنه اكتفى بمجرد الترويج للالتزامات مبارته ، من دون أن يماثلها مع شيء من قبيل «الالتزام بتعظيم حقوق الإنسان والتسامح الذي يمثله القرار الأمريكي بإعادة الانضمام لليونسكو..» بحيث تكشف هذه المماثلة عن أن التزاماته لا تجاوز أبدا حدود الادعاء ، وأعنى من حيث يرتبط قرار انسحاب الولايات المتحدة ثم عودتها إلى اليونسكو بالموقف من أمينها العام الأسبق السيد أحمد مختار إمبو ذلك الإفريقي الذي تعرفت الولايات المتحدة في وجهه على ملامح واحد من سلالة عبيدها السابقين يتمرّد على عبوديته ويطمح إلى جعل اليونسكو منبرا للمقهورين ، فاصطدمت به ، ولم تقبل بما هو أنني من إبعاده في تناقض صارخ مع ما يدعيه «باول» من أن القرار هو «رمز للالتزام بتعظيم حقوق الإنسان والتسامح» . وهكذا تتكشف مماثلة «باول» عن حدود ما يعلنه من التزامات في مبارته ، تلك الالتزامات تجاه عبيده الحاليين (من العرب) الذين يرتبط الالتزام نحوهم باحترامهم لشروط عبوديتهم والقائم عليها.

ورغم التماثل ، فيما يتعلق بثنائية السقوط والخلاص ، بين كل من بونابرت وباول ، فإنه كان لا بد أن ينبثق بينهما ضرب من الاختلاف لا محالة ، وأعنى من حيث أن الواحد منهما كان لا بد أن يستعير لغته ومفردات خطابه من قاموس عصره.

ومن هنا فإن «بونابرت» قد راح يوظف ، في منشوره ، مفردات التنوير ويستخدم لغته من قبيل «الحرية والتسوية .. وأن جميع الناس مقساوون عند الله ، وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط. بل إنه وانطلاقا من المبدأ المتفائل لعصر التنوير الذي يقضى بضرورة أن يحكم العقل العالم» قد راح يعين الفئة التي يتجه إليها بخطابه من بين المصريين بأنهم «العلماء والفضلاء والعقلاء الذين» راح يداعبهم بأنهم سيدبرون الأمور، وبذلك

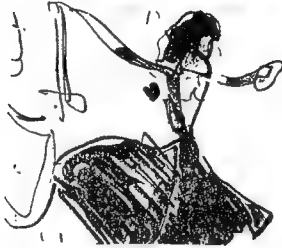


يصلح حال الأمة كلها» ، وإذن فإنهم العقلاء هم قصد الخطاب وغايته عند الروح المجسد لعصر التنوير كله ، أعني نابليون.

وأما السيد «باول» -الذي راح ، مخلصا لمبادئ رأسماليته المنتصرة ، يستعير مفردات خطابه من قاموس البيزنس وعالم الرأسمال- فإنه قد مضى بدوره يعين الفئات التي يتجه بخطابه إليها ، في العالم العربي ، بنائها جماعات الضغط السياسي والاقتصادي من رجال الأعمال والبيزنس التي تدوى بمطارقها على جدران سلطة مصمته.

وإذ يتجاوب ذلك مع السعي الراهن من جانب العديد من المثقفين للانخراط في جماعات للضغط تبدو بمثابة القناعات الأنثيق لجماعات الضغط السياسي والاقتصادي ، وعلى نحو يبدو معه وكأن المثقف يستحيل إلى جزء من اللعبة ، فإن ذلك يدفع إلى ضرورة مقاربة «سؤال الغرب» من جديد.

فإذ لا ينازع أحد في واقع الفساد والتخلف الراهن ، فإنه يبقى السؤال عن المخرج.. أهو الغرب؟ أم إنه النقد؟.



ليلة بالألوان

سبد الستار حنينة

كانت هناك بنت صغيرة تحب والدها ولا تفارقه أبداً .. تقرأ معه الصحف ، وتشاهد ، إلى جواره ، نشرات الأخبار . إذا جاء الليل ، نامت على دفاء أنفاسه مطمئنة ، لكنها الليلة لم تتم . أغمضت عينيها .. بجانبها الأيسر خاضت فوق مرتبة السرير الطرية . أخذت تحديق إلى وجه أبيها الكبير ، بشاربه الأسود ، وخده الحليق ، وشعر رأسه المنتكش على المخدة المبللة بالعرق . وفجأة حرك يديه الكبيرتين .. ويكفيه دمع عيني ، فخرجت منهما ألوان تليفزيونية مرتعشة .

وعندما مدد ذراعيه إلى جواره انتفض وهو يتمتم ، ثم همد كأنه مات .. لكن أصابعه الطويلة تشبثت بملاة السرير . ولوثتها بالألوان المضيئة النابضة بالحياة .

وفي هذه اللحظة كان والدها ينام على ظهره وعيناه شاخصتان في سقف حجرة النوم المظلمة .. طبقات داكنة تضغط فوق بعضها البعض .. تطبق على صدره .. تخنق عنقه المستديرة . خيوط طويلة مشتبكة ممتدة بطول الجدران .. خيوط ملونة تهزها ذبذبات الضوء .. رؤوس ملقاة على قارعة الطريق تنزف ، وفوقها تهوى الأنقاض مرتطمة في ضجيج أصم .

مدت البنت يدها تبحث عن جسد والدها .. غاصت أصابعها في لحم مهروس بالشعر .. بالدم



معجون . دم أحمر ، وأزرق ، وأبيض .. هكذا الألوان تنبض مابين سقف الحجرة وحواف المخدع ، وسط الظلام المطبق والصمت المخيف . اهتزت الأرض .. اختلط الأثين بالبكاء .. والدها يحملها في حضنه مهزولاً ..

- " ماذا هناك ؟ " - صاح أحدهم .

- " زلزال ! "

يجرى هو ، وهي تبكي مذعورة .. المباني الشاهقة ، العارية من الأسمنت ، تنهار على جانبي الطريق الضيقة المعتمة ، فالي أين ؟ صاح أحدهم :

- " فروا إلى هناك .. هناك ! "

يجرى هو ، وهي تتشبث في عنقه .. تصرخ .. ترى وجهها يتفجر بالدموع والدم الأحمر .. ترى نزيق رأسها . وفوقها حومت الطائرات تهز أسطح العمارات . دارت في لمح البصر ، وبوت الانفجارات .. سحب الدخان .. السنة النيران تصاعدت من خلف الركاب المتصدع .

من وراء كتف والدها ، يتخبط الأولاد والبنات وهم يفرّون على غير هدى ، فيتساقطون وراء الغبار الأصفر . المائن وأبواق الكنائس نقلت على الهواء مباشرة صوت قارئ نشرة الأخبار :

" أيها المواطنين ، قام العدو بقارة غائرة .. "

نهض والدها من مرقده مذعوراً قابضاً عنقه وصدره باصابعه الطويلة . أضاء النور ، فاضمضت عينيها . سمعته يجرح الماء مستعيذاً مستغفراً . سأل إن كانت مستيقظة .. تظاهرت بأنها تغط في نوم عميق .. أظلم الحجرة .. استلقى جوارها ثقيلًا .. هنيهة وهمد كأنه مات !

تحقق البنت الصغيرة إلى وجه والدها الكبير بشاربه الأسود ، وترفع يديها ضارية الفراغ الثقيل الممتد بين السقف وحواف السرير .. كأنها تتقى الانقراض والضجيج الأصم والغبار الأصفر !



الأدب في الشرق : الأرض .. العدل .. الحرية

- محكمة العدل بين توفيق الحكيم ويهرام بيضاني : د. أبو الحسن سلام .

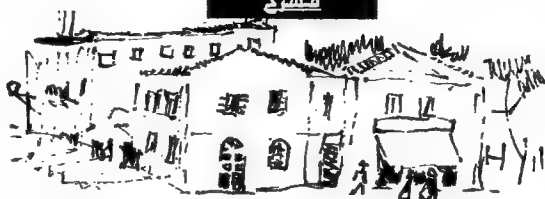
- كل الحوائر أصغر من أقدامى : مقالات من برون شاكر

ترجمة وتقديم : د. إبراهيم محمد إبراهيم

- القصة النسائية في إيران : مقالات من مريم جمشيدى

ترجمة وتقديم : أسامة فتح الباب

رقية الشبراوى



محكمة العدل بين توفيق الحكيم وبهرام بيضاني

د. أبو الحسن سلام

شغل المسرح بقضية العدل ، فنسج كتابه الأحداث حولها ورسموا الشخصيات رموزا للعدل ورموزا للظلم في مواجهات صراع ترامى ما بين حاكم ومحكوم مما صبغ نصوصهم بصبغة سياسية تستهدف نقد المجتمع ونقد الحكم في بيئة تفرق في بحر الرشوة والجور والتعسف والإجحاف وانتهاك الأعراض.

ومن بين كتاب المسرح الذين تناولوا شخصية القاضي رمزا للحكم وعنوانا لعدله أو جورهِ يبرز اسم (برتولات بريشت) في رسمه أدور (أزدك) قاضيا في (دائرة الطباشير القوقازية) (١) ولا يحكم وفق قانون سائد في الدولة ، ولا وفق العرف الاجتماعي في البلاد ، ولا وفق الوقائع والشهود ، ولكنه يحكم وفق معتقده السياسي حيث الأرض لمن يفلحها لا لمن ورثها والابن لم رياه وليس لمن ولده!!.

ولعل غرابة أحكام قاضي بريشت قد أغرت كتابا ترسموا ظل العلاقة بين الحاكم والمحكوم بتشخيص صورة القاضي فجاء تشخيصهم لها مقاربا لصورة أزدك في (دائرة الطباشير القوقازية) فقد وجدنا عند قاضي (بهرام بيضاني) الإيراني في مسرحيته (محكمة العدل في بلخ)

(٢).

ظلا لقاضى بريشت كما وجدنا ذلك أيضا عند قاضى (توفيق الحكيم) فى (مجلس العدل)

(٣).

وهكذا خرجت صورة القاضى عند بهرام وعند الحكيم من عبادة (أزدك) قاضى بريشت فى دائرته الطباشيرية غير أن المشكلة تتبدى فى معرفة أى من الاقتباسين كان الأسبق من الآخر.

خاصة إذا وجدنا بعض المواقف المتشابهة فى أحكام القاضى فى (مجلس العدل) مع أحكام القاضى فى (محكمة العدل فى بلخ) وهو تشابه يكاد يكون متطابقا ، وفى مسرحية (بهرام بيضانى) يلجأ القاضى المنحرف إلى كشف فساد دعوى الاتهام المقامة من رجل ضد آخر رغب القاضى لمصلحة له عند المتهم أن ينقذه لعله يكذب المدعى فقضى بحكم مستحيل التنفيذ:

«جعفر» : أنا جزار يا سيدى .. منذ أيام ، وبينما كانت زوجتى عائدة من الحمام ، وهى فى شهرها الأخير ، دفعها هذا الرجل الخليع .. وقعت زوجتى على الأرض فلجهضت.

سلمان: (يقفز من مكانه) كله كذب ويهتان .

جعفر: (باكيا) سيدى .. تعبت أربع سنوات حتى جاعنا هذا الطفل.

القاضى: معك الحق .. يجب تعويض هذا .

جعفر: (مسرورا) روى فذاك .. لك الشكر.

القاضى : الجنين الذى تقول إنه أجهض كان صبيا أو بنتا؟.

جعفر: صبيا .

القاضى : حسنا . تأخذ هذا الفتى إلى بيتك ، وتحسن ضيافته . وبعد أن تشفى زوجتك

تدفعها إلى الفتى ليعد لك صبيا .

جعفر : ماذا تقضلت؟.

القاضى: إن أنجبت صبيا فهو المطلوب... وإن كان المولود بنتا فعلى زوجتك أن تحمل ثانية.

جعفر: (يغضب) لم أفهم ما قلت .

القاضى : فإذا كان الثانى صبيا فقد بلغت المقصود ، وإن كان بنتا فقد بلغت المقصود أيضا ،

فحسب الشرع الأثنيان تعادلان نكرا.

جعفر: لقد تأثرت تأثرتى .. ما هذا الكلام؟.

القاضى: هذا لصالحك!.

(يضحك الحضور .. يخرج كبير العسس مغتاظا).

جعفر: سأفتح فاهى الآن وأقول ما يجرى على لسانى . لقد تراجعت عن حقى .

القاضي : ولكن الشاب لن يتراجع عن حقه.

جعفر: دعوني أذهب ..أنا أصلا لا زوج لى ولا دار ولا طفل.

القاضي: فقد كان ما قلت كذبا .خمسون دينارا غرامة الكتب.(٢)

هذا الموقف نفسه صورته توفيق الحكيم فى مثل (الصيرماتى) وزوجه التى أسقط الفران حملها ومثولهما شاكيين أمام القاضي فى مجلسه غير العادل حيث قضى بما قضى به قاضى (محكمة العدل فى بلخ).

الزوج: يا سيدى القاضي . أنا وزوجتى هذه كنا نسير أمام القرن .

القاضي: انتما أيضا .

الزوج: وزوجتى حامل

القاضي : وما دخل الحمل فى القرن .

الزوج: لا سخل

: استمر

وجدنا المشاجرة على أشدها بين هذا الفران وبين صاحب الأوضة

قلنا لكم اتركوا الأوضة

لم أتدخل فى العراك نظراً لوجود حريمى معى وهى حامل فى شهرين حمل كنت أنتظره بفورغ صبر يا سيدى القاضي لأنى لم أرزق بعد . وهذه أول خلفه.

: ما دمت لم تشترك فى العراك وتنتظر الخلفة فلماذا أشرفت لتبلغنا الخبر السعيد ونهتك بالمولود .

: لا يا سيدى القاضي مع الأسف الشديد ، فرحة ما تمت ، لن يكون هناك مولود .

القاضي: سبحان الله ، السبب

: السبب هذا الفران

: ماله أيضا فى هذا؟.

: كان يتشاجر فى الطريق ، يلطم هذا بيده ، ويركل ذاك بقدمه فقلت له حاسب ياعم .معنا حريم فما كان منه إلا أن ضرب بقدمه بطن زوجتى فأسقط حملها.

لأهمية هذا النص وعلاقته من جانب بالنص الإيراني الذى أتناوله هنا، وعلاقته من جانب آخر بما يحدث الآن من انتهاك لحرمان الدول والشعوب تحت غطاء قانونى من مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة (وهذا ما ذكره توفيق الحكيم فى توطئة لمسرحية : مجلس العدل) .لهذه

الأمية أرى نشر هذه المسرحية- وهى قصيرة- فى نهاية قراعى هذى).

وتظهر المقاربة الثقافية بين (محكمة العدل فى بلخ) و(دائرة الطباشير القوقازية) حيث تستلهم المسرحيتان أسطورة الملك سليمان الحكيم الذى قضى بوضع طفل تدعى امرأتان أنه ابن لها، بوضعه فى دائرة طباشيرية وأن يشقه سيفه نصفين طولين تحصل كل امرأة منهما على النصف الذى يواجهها غير أن الأم الحقيقية تصرخ متنازلة عن حقها فى أمومة الطفل ليحكم سليمان الحكيم لها بالطفل.

أما استلهام (دائرة الطباشير القوقازية) فقد استهدف تجسيد فكرة الاشتراكية العليا التى تقول (إن الأرض لمن يزرعها وليس لمن يرثها والمصنع للعمال وليس لصاحب رأس المال والوالد لمن يربيه وليس لمن يله).

وإذا كان استلهام بريشت للحكاية الشعبية من منظور حدثى يفرض المسكوكات الفكرية وثقافة الإذعان، الأمر الذى يجعله يفرغ الحكاية الشعبية أو الأسطورة أو الحادثة التاريخية من مضمونها التراثى أو التاريخى المرسخ للفكر الإنعائى ليشهد المضمون بحيثيات يعيد فيها المتلقى الدلالات معروضة على وعيه لا على حسه، بما لا ينفى عن العرض المسرحى قدرته على الإمتاع مدخلا لدوره فى الاقتناع مدعوما بمبدأ السببية.

وفى ظنى أن كل استلهام من التراث، وإن انطلق من منابع تراثية إلا أنه لابد وأن يستهدف خدمة حاضر مجتمع الكاتب أو المبدع سواء توقف عند ذلك الحد أو تجاوزه إلى استشفاف مستقبل آمول يتعدى حدود مجتمعه ليرقى إلى مصاف إنسانى أكثر عمقا وثراء.

والحكيم حيث اقتبس شخصية القاضى المنحرف إسقاطا على فكرة الحاكم الفاسد، إنما أراد بها نقد فكرة التحالف بوصفها فكرة تليفية، كما أراد بها نقد فكرة التأميم بوصفها فكرة أريد بها سرقة الآخر، لأنها لم تكن تأمياً لمصلحة الجماهير وإنما هى تأميم يستولى فيه الحاكم (القاضى) بوساطة مؤتمن من قبل صاحب رأس المال (الآوزة) على ماله، فى الوقت الذى كان مطلوباً منه إنضاجها لا اختلاسها وتقديره طعاماً سائفاً للحاكم/ القاضى. فالفران يختلس الآوزة بعد إنضاجها لها ويقدمها إلى القاضى وعندما يطالب صاحبها بها، يهرع المؤتمن (الفران) إلى الحاكم (القاضى) مدعوراً فما كان من القاضى إلا أن يطمئنه ويرشده إلى الرد المناسب على صاحب الآوزة (قل له طارت) (وبعده يحضر إلى) وعندما يقف صاحب الآوزة فى حضرة القاضى ويستمع إلى دهشته مما أدعاه الفران حول (طيران الآوزة بعد نضوجها فى الفرن) يباغتته القاضى بسؤال يشككه فى عقيدته الدينية (هل تؤمن بأن الله يخبى العظام وهى رميم) فما يستطيع صاحب الآوزة إلا أن يجيب (بلى أؤمن) وهنا يمسك القاضى (الحاكم بأمره) بتلابيبه :

(فلماذا لاتصدق ما قاله لك الفران) ولكن صاحب الأوزة الذى يؤمن باله تصيبه الدهشة ولا يبدو عليه التصديق بطيران الأوزة المذبوحة المطبوخة!

-المدعى عليها- غير أن القاضى قد لف حول عنقه حبل العقيدة وأحكمه فما يستطيع أن يتململ من الإقرار بصديق الاستشهاد القرائنى ، ولا يستطيع الإقتناع بملاعة توظيفه أو الرجوع إليه فى ذلك الموقف ، لكن الغريب أن القاضى لا يمهله لحظة واحدة للتفكير أو التدبر ، إذ يعاجله بالحكم بتفريمه بغرامة مالية رمزية.

ولكن الأمر لا ينتهى عند ذلك الحد ، وإنما يعقد الحكيم الحدث ويفرعه مع أن مسرحيته تقع فى فصل واحد، فيخرج بذلك عن تقاليد البناء الدرامى للمسرحية ذات الفصل الواحد ، حيث تلتزم فى غير مسرحيته تلك بحدث درامى واحد لا تغريغ فيه ، إذ يترتب على مطاردة صاحب الأوزة للفران فى سبيل استرداد ماله (أوزته المحمرة) إرتكاب الفران فى فراغه عبر الأزقة والحوارى عددا من الجرائم ، إذ يصطدم بزوجة مرقع الأحنية (الصرماتى) فيسقط حملها ، ويقفز من أعلى مؤذنة المسجد فيدق عنق رجل جالس بأسفل الحائط الخارجى للمسجد ويصيب حمار أحد الفلاحين المارين بالأذى .. وهؤلاء جميعهم يقفون أمام القاضى مدعين على الفران بالحق ، طلبا للاقتصاص واقتضاء للعدل ، غير أن القاضى يرد الاتهامات إلى (عناق المدعين ويلزم كلا منهم بالفرامة المالية الرمزية التى يحكم بها على كل واحد منهم ، بما يهدم أركان العدالة فى الدولة ويثبت فساد الحكم فيها وظل العلاقة بين أركان التحالف . وفى ذلك إسقاط على فكرة تحالف قوى الشعب التى سادت فكر دولة (رأسمالية الدولة) فى الستينيات وشعاراتها التلقيفية حيث جمعت تحت شعار التحالف نماذج طبقية : (الرأسمالية «الوطنية») -المثقفين -العمال -الفلاحين) .

وفى مسرحية (مجلس الدولة) تلك يجتمع فى إطارها الدرامى : صاحب رأس مال هو صاحب الأوزة التى تم تأميمها لصالح الحاكم الفرد وعامل هو الصرماتى سمع أنه من حثالة الطبقة العاملة- وفلاح، ومؤذن المسجد وهو رمز للمثقف وفوق هذه النماذج المؤطرة تأطير تحالف تلقى فى الحدث -إسقاط على الواقع السياسى للنظام فى ستينيات الحكم فى مصر -حاكم ومتصرف فى رأس المال المؤمم والتلفيق يخترم فكرة أى تحالف ، إذا لم يبن على كيانات لكل منها استقلالها وبرنامجه وهويتها الطبقية، لذلك فإن التحالف فى الواقع السياسى الستينى فى مصر كان تلقى لأنه لم يكن بين أحزاب لكل منها استقلاله وهويتها الطبقية وبرنامجه وحواراته النقدية مع الأحزاب الأخرى المشاركة أو التى هى بصدد التحالف وصولا إلى برنامج مؤقت لتحقيق هدف قومى محدد وذلك لو كان قد تم لأصعب ذلك التحالف حقيقيا .

ولقد تأسس الإطار الدرامى للحدث فى مسرحية (مجلس العدل) على التلقيق الدرامى لا على التوفيق الدرامى . ولا أرى فى ذلك خلا فى البناء الدرامى للمسرحية لأن خلل العدالة وخلل النظام وخللة أركانه تتضافر شكلا لتؤكد مصداقية التعبير عن المعنى الكلى للمسرحية . ولعل أوفر مثال على خلل البناء الدرامى فى مسرحية (مجلس العدل) هو مناقشة القاضى لصاحب الأوزة - المدعى بالحق المدنى - فى حيثيات إتهامه للفران بعد أن أصدر القاضى نفسه وفى نفس الجلسة حكمه بتغريم صاحب الأوزة ، وليس فى الواقع الحياتى المعيش ما يطابق ذلك ، لأن مناقشة أركان الادعاء وردها سابق فى مجلس القضاء على إصدار الحكم وليس العكس . ولكن فساد القضاء لا يتكبد بالحكم الفاسد فحسب ولكن فى آليات الوصول إليه ، كما أن وضع الحكيم للحكم أمام حوارية الاتهام والدفاع شبيه بوضع العربية أمام الحصان وذلك خطأ ما بعده خطأ ، وذلك ما يثبت فساد القاضى لأنه يصدر الحكم ثم يناقش الادعاء ويرد هو نيابة عن المدعى عليه (الفران) مؤمماً رأس مال الغير .

غير أن نصه توفيق الحكيم أكثر إحكاما من نصه بهرام بيضانى ، ليس كونه من فصل واحد ، فى حين تنقسم مسرحية بهرام إلى قسمين يعنونها المؤلف بالشهدين الأول والثانى غير أن كل مشهد من المشهدين حسبما نص الكاتب يقع فيما يزيد على مائة صفحة وذلك مناقض للتعاريف عليه فى أصول تقسيم الفصول والمناظر والمشاهد المسرحية فى النص .

ومع أن نص الحكيم أكثر إحكاما من نص بيضانى ، إلا أن النظرة النقدية الأولية لبنائه الدرامى تحكم بخل فى البناء قياسا على الحقيقة الحياتية فى الحقائق الخارجية نجد أن القاضى على أى مستوى لا يصدر حكما قضائيا على طرف من أطراف قضية ما عرضت عليه ، إلا بعد أن يقتلها فحما وتحصيما للشواهد والأدلة الثبوتية والقرائن ومقارنتها ببعضها بعضا ومناقشة الادعاء والإنصات للدفاع واستخلاص الحقائق ثم الحكم بعد هذه الرحلة الشاقة . غير أن قاضى الحكيم يحكم أولا قبل أن يقضى وهنا تكون الحقائق الداخلية لنص الحكيم غير مساوية للحقائق الداخلية فيه ، وبذلك يجوز لنا أن نقول نص مجلس العدل لا معادل موضوعى فيه .

غير أن الجملة الأولى من حوار المسرحية تردنا عن هذه الرأى ، إذ يلقي القاضى الفران المنعور فيبادره بالقول : «مالك يا صديقى الفران؟» ولأن هذا التعبير لا يطابق واقع العلاقة السوية بين قاض وفران فلذلك دلالة على خلل فى العلاقة فالقاضى لا يخاطب الفران فى واقعنا الحياتى بالصديق ، ولكنه فى نص الحكيم يعلن عن صداقته له . وبناء الحدث على النحو الذى أشرنا إليه بما يكشف عن غياب المعادل الموضوعى هو تأكيد لخلل العلاقة بين قاض وفران (وفق الحقيقة الخارجية) غير أن الخلل فى البناء الدرامى هنا مقصودة وفيه وضع تلك العلاقة فى مركز اهتمام

المتفرج بقصد إدهاشه بغرابة تلك العلامة كما أنها نظرة تقنية لفساد القضاء ونظام الحكم لذلك يحكم قاضى الحكيم على صاحب الأوزة ويعد ذلك يناقشه وهذا خلل كخال صداقته للفران أما البناء الدرامى لنص: (محكمة العدل فى بلخ) فيقوم على تداخل الزمان وأسلوب القطع التلفزيونى وفق لقطات متلاحمة تسقط منطق الزمان فيما هو أقرب إلى (الكولاج الدرامى) كذلك يلجأ إلى تقنية (التمثيل داخل التمثيل).

محرم العرائض: طبعاً .. قل لنا :

خدابخش: حسناً! غلغلفترض أنى أنا القاضى فى التمثيلية.

بائع الملابس: (لمحرم العرائض) قدم له كرسيك .

خدابخش: ونأخذ تيمور وأحمدك على أنهما الشاهدان لذلك.

تيمور: ماذا تقصد؟.

محرم العرائض: يريد محاكاة التمثيلية.

تيمور : لأنى وأحمدك شهدنا بالأمس أيضاً .

خدابخش : هذه لا علاقة لها بالأمس ..إنها محاكاة كما قلت.

بائع الملابس: نعم.. إنها لعبة مسلية.

تيمور: ولماذا نحن؟ ..فلتقدم غيرنا.

إن صاحب المحكمة خدابخش الذى لم يعد يرضى بظلم القاضى وحاشية السلطة من قائد الشرطة ومعاونيه وفحش أفعالهم ومؤثراتهم يدير تمثيلية يقلد فيها دور القاضى ويقنع بعض أعران الفساد الملتفين حول القاضى الفاسد الذى كان حاجباً من قبل لقاض عادل أقصى ونفى ليحل محله الذى تأمر وشهد ضده زوراً ، واستخدم عدداً من شهود الزور فى كل قضية تعرض عليه ليعود منها بالكسب أو بمحاياة الحاكم أو رئيس المخفر أو الوالى ، لذلك ويصطنع خدابخش الحاجب تمثيلية يستخدم فيها شهود زور فى قضية عرضت بالأمس على القاضى الفاسد يعرض فيها هو نفسه بتاجر شريف ويأخذه الجميلة التى رفضت الزواج من رئيس المخفر أولاً ومن القاضى ثانياً؛ فطعن فى شرفها وحرض زبانية الزور المحيطين به ويرئيس المخفر عليها وعلى أخيها بعد أن أحرقوا له منزله وأجبروه على التخفى والهروب . والحاجب خدابخش الذى أخفى فى منزلة الفتاة حماية لها يدير التمثيلية ويوزع أنوار شهود الزور على الأشخاص الحقيقيين الذين استخدموا فى شهادات زور سابقة وذلك للإيقاع بهم أمام الناس فى ميدان عام والغريب أن شهود الزور يقدمون على تلك التمثيلية لأنهم يعرفون أو ما زالوا يرون فى خدابخش الشخص الساذج السلبى.



إن مسرحية بهرام بيضاني (محكمة العدل في بلخ) إذا قرأتها أو شاهدها ، إن قدر لها أن تعرض ستري مصر وصورة الفساد بكل تفاصيلها الحادثة الآن . الرشوة ، الجور ، السرقة ، الاختلاس ، الخنا ، المؤامرات ، الجرائم ، ولكن في قالب ملهاري مأساوي يرد ذاكرتك إلى بيت المتنبي:

(وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء) .

ولو كان ما صوره بهرام في مسرحيته

تشخيص للواقع الإيراني فليس أمانا

إلا أن نردد قول حافظ إبراهيم.

«... كلنا في الهم شرق».

(١) برتولات بريشت، دائرة الطباشير القوقازية ، ترجمة د. عيد الرحمن بدوي ، سلسلة من يدائع المسرح

العالي ع (٣٠) القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

(٢) بهرام بيضاني ، محكمة العدل في بلخ، ترجمة د. محمد التونجي ، سلسلة إبداعات مالية ع ٣٣٠ ، الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، يوليو ٢٠٠١.

(٣) توفيق الحكيم، مجلس العدل ، القاهرة ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماهير.

* كتبها في الخمسينيات .

** كتبها في السبعينيات .

(*) بهرام بيضاني ، محكمة العدل في بلخ ، المصدر نفسه ، ص ١٠٧-١٠٨.

* بغض النظر عن أسلوب التقية الذي حاول به حماية نفسه من الرقابة الرسمية إذ زعم في مقدمة نظرية لنصه

أنه قصد به مجلس الأمن وما يدور فيه من أعوجاج ينصر من خلاله الدول الكبرى المستلطة على الدول الصغرى.



الديوان الصغير



كل الدوائر أصغر من أقدامى

(مختارات من الشاعرة الباكستانية : بروين شاكِر)

إعداد وتقديم: د. إبراهيم محمد إبراهيم

بروين شاكر واحدة من أهم شاعرات اللغة الأردية فى القرن العشرين. فى باكستان والهند على السواء ، ولدت بمدينة كراتشى الباكستانية فى ٢٤ نوفمبر ١٩٥٢ م وتخرجت فى مراحل التعليم المختلفة حتى حصلت على الماجستير فى اللغة الانجليزية من جامعة كراتشى عام ١٩٨٠ م وأوشكت على دراسة الدكتوراة ، لكن القدر لم يمهلها ، فتوفيت فى حادث سيارة أليم فى ٢٦ ديسمبر عام ١٩٩٤ . وقد تولت بروين شاكر مناصب عديدة تدرجت فيها إلى أن وصلت إلى منصب نائب مدير مصلحة الجمارك بباكستان ، وحصلت على جوائز أدبية عديدة محلية وعالمية، وخلفت وراءها أربعة دواوين هى: خوشبوى: العبق -صديرك : أوراق -خور كلامى: حديث النفس انكار : إنكار ، وقد جمعت هذه الدواوين معاً فى شكل الأعمال الكاملة تحت عنوان ماه تمام: بدر التمام.

هذا وقد زارت بروين شاكر العديد من الدول، وكانت تجيد الانجليزية والفرنسية والفارسية والعربية.

عاشت بروين شاكر حياة اجتماعية صعبة إذ تزوجت وأنجبت ابنها الوحيد «مراد» ، ثم لم تلبث أن دبت الخلافات بينها وبين زوجها مما أدى إلى الطلاق بعد فترة زواج قصيرة مما أثر على حالتها النفسية، فانعكس كل ذلك فى شعرها الذى جاء رقيقاً ومؤثراً ومعبراً عن المشاكل التى تواجه المرأة ، وخاصة المرأة العاملة ، إضافة إلى تعبيرها عن قضايا المرأة ومشاكلها على الصعيد العام وخاصة الطلاق ، وزواج البنت فى سن صغيرة ، ونظرة المجتمع إلى المرأة المثقفة العاملة، وكذا المرأة المطلقة وخاصة فى مجتمع شبه القارة الهندوباكستانية والذى يتميز بنوع ما من المحافظة تقبىه إلى حد كبير ما هو قائم فى مجتمعنا المصرى والعربى كما تحدثت بروين شاكر عن المرأة كأم وزوجة وصديقة بأسلوب يتسم بقدر كبير من الصراحة ولعل قضية المرأة العاملة هى أهم القضايا المعاصرة التى تناولتها بروين شاكر فى شعرها ، إذ أن المرأة العاملة فى عصرنا تواجه العديد من المشاكل التى تسبب لها كثيراً من المعاناة الجسدية والنفسية والذهنية إضافة إلى نظرة المجتمع لها ، وخاصة فى مجتمعاتنا الإسلامية الشرقية حيث تتغلب العادات والتقاليد فى بعض الأحيان على الدين والقوانين ، وتصير الأعراف الاجتماعية هى الفصيل الوحيد الذى يقيس الناس من خلاله من عداهم ويصدرون حكمهم عليه وحتى ولو كانت هذه الأعراف لا تتفق مع الدين والقانون ، فهى تبذل مجهوداً عضلياً مضنياً منذ لحظة استيقاظها فى الصباح الباكر، وإعداد ما يتطلبه خروج الزوج إلى عمله ، والأطفال إلى مدارسهم

بما يمثل مشقة كبيرة لا تتحملها المرأة إلا بدافع الأمومة والحفاظ على كيان الأسرة والعمل على رفع مستوى البيت، أضف إلى ذلك الضغط النفسى الذى يصيبها حين تواجه بمضايقات الآخرين لها، وخاصة إذا كانت فى عمر الشباب، وانشغالها أثناء وجودها فى العمل فكريا وذهنيا، باعتبارها أمأ على أبنائها وخاصة إذا ما كانوا أطفالا صغاراً، ثم ذلك الصراع النفسى الرهيب الذى تعيشه حين تشعر فى كثير من الأحيان بأن خروجها إلى العمل قد أثر سلباً على تربية أبنائها وتقديمهم فى دراستهم، فتصبح بين فكى رضى، فلاهى تستطيع أن تترك العمل وتتفرغ لتربية أولادها ومتابعتهم، إذ أن نخل الزوج لا يكفى متطلبات الحياة، ولا هى تستطيع بلئى حال من الأحوال القيام بالأمرين معاً- العمل وإعطاء الأولاد الوقت والجهد الكافيين-فى وقت واحد، خاصة فى ظل الظروف المعيشية الصعبة التى تعيشها مجتمعاتنا، فتصاب عندئذ بحالة من الإحباط وفقدان الإحساس بقيمة الحياة.

ومما يزيد من معاناة المرأة العاملة وإحباطها إذا كان الزوج غير متعاون معها فيما يظنه هو من واجباتها هى فقط، فتصبح المرأة فى النهاية مثل الآلة تتحرك بشكل روتينى، وتزداد المشاكل الأسرية إلى حد قد يؤدى إلى تفككها وتشتت أفرادها الذين يشكون دائماً من عدم تفرغ الأم أو الزوجة للبيت والأولاد.

أما نظرة المجتمع إلى المرأة العاملة- وأكثرهن يعانين من الظروف سابقة الذكر- فحدث فيها ولا حرج، والمعول هنا على النسبة الغالبة من الناس والذين قد يتغامزون بها، وقد تجرحها تعليقاتهم، فإذا ما تمسكت بكرامتها وإحساسها بذاتها ومقدار ما تقوم به من جهد اتهمها هذا المجتمع وخاصة الآخريون بالغرور والتسلط وعدم الاكتراث بالآخرين. وقد تكون المرأة العاملة بغير عائل يعمل بيتها، كأن تكون أرمل، أو مطلقة، أو ما إلى ذلك، وحينئذ تصبح معاناة أضعاف أضعاف المرأة العاملة التى تعيش ظروفا اجتماعية طبيعية.

هذا وقد عبرت برون شاكور عن الجوانب سابقة الذكر تعبيراً واضحاً ومؤثراً باعتبارها امرأة شرقية تشعر بما يعانى به بنات جلدتها فى مجتمعاتنا المتشابهة غالباً، وباعتبار أنها كانت مطلقة، وتعيش هى وابنها مراد فى كنف أمها، وإن تيسرت أحوالها المادية وارتفعت مكانتها الوظيفية.

فـى الـمـكان الـخـطـا

أحياناً يتتابنى التفكير
لماذا تقل ملكتى فى إسماعيل الآخرين!!
البعض يفضب من ألفاظى
والبعض من لهجتى وأسلوبى
كانت أُمى دائماً
تشكو من انشغالى
والآن يشكو ولدى من الأمر نفسه
«كم تتضائل العلاقات وتتوارى فى سباق
الرزق الأعمى»

فى حين أن الواقع هو
أن بيتى

يستمتع تماماً بنقطة ضعفى
بكونى امرأة
كل صباح

أحمل الحقيبة على أكتافى
ويزداد ثقلها يوماً بعد يوم
ومع ذلك

فإن انحناة ظهرى
تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم
ثم إن هناك على ..

الذى يشترط للتعيين بداية
أن أسنقل من كبريائى

أحاول أن أزرع فى العقول البور أزهاراً
وأحياناً تبدو فيها ينوعة واخضرار

ولا فإن الأحجار

تظل دائماً غضبى من الأمطار

وقيلتى

تستخرج من حروفى النور

لكننى أعرف جيداً

من منهم

تقع على الألفاظ عيونهم

ومن منهم

تقع عيونهم

على قائمة الألفاظ

كل النوائر أصغر من أقدامى

لكن الرقص الهمجى للزمن

لا يتوقف أبداً

وتتسارع كل لحظة نغمات الرقص

فأما أننى بالفعل مخلوق مختلف

ولما أن هذا ليس برجى!

أصـاة سـامـة

الجميع يقولون

ما هذا التكبر والغرور الذى أصابها

أما أنا.

فأروى تبتلى بدمائى

وينوع أوراقي

هى كل شئ جميل فى حياتى

وليس أنسمة هواء

أو قطرة مطر

شعلة من الذهب تحيط بى
وتجبر هذه الوحوش
على الاحتفاظ بمسافة
بينى وبينها
وبالرغم من كل جيلها ومكرها
إلا أن الذئاب
لا تقفز فى النيران!!

محاولة للاختيار

إن كان مقدراً أن أعيش فى غابة
ولا مفر
إن الذئاب ترصدنى فى كل مكان
فأنتنى أفكر:
لماذا إذن

فى مثل هذا الواقع
لا أعيش فى الغابة
التي أختارها أنا!

إلى شاعرة

لا يمكن أن يتصانق الذئب مع الغزال
فكيف تركت البيت
لمجرد أمل فى ظل بسيط
صحيح أن جداره متهاك
وسقفه تملؤه الثقوب
وأشعة الشمس الحارقة
تملا حجراته حتى المساء

فضل ولو قدر شعرة
على برعم من براعمى
أستطيع اللعب حين أريد
وكل أوضاعى من اكتشافى أنا
أستطيع الآن
أن أواجه كل الفصول
وأنا مرفوعة الرأس
فأنا الآن شجرة قوية
أعرف كل إمكانيات نموى الرائع
لكن بداخلى نبتة لبلاب قديمة
عندما يشتد الريح أحياناً
تود أن تتعلق بجذع شجرة قوية!

سراد

الذئاب تحيط بى من كل جانب
عيونها خارج حركاتها
والسننثا تتدلى من حلقها
تلثت كاتها تنفت النيران
وقد تحلقت حولى
نتنظر غفلة منى ولو للمحة
كصيد ماهر
أعد الحبوب والشباك
ولفق التهم
ورصد الجوائز والمكافآت
شباك جأضرة من كل نوع
لكن هناك

لكن الأرض التي يقف عليها هذا البيت
والتي شبت عليها أقدامك
كانت ملكاً لك أنت
تحملت أحاديثك الجافة
كأمر رؤوم
من كان يعيد إليك رداء غفك
حين يعلق طرف طرحتك
بالأشواك أحياناً
أو ينحسر في غفلة منك عن رأسك
من كان يتلقف أوراق وجودك الصغيرة
في أمواج السيول والعواصف الجارفة؟
من كان يبيت بيده على رأسك
عندما كانت المدينة كلها
تتناول أطرافك بالحديث؟
من كان يظلك بينيه
عندما كان المطر يسقط بفزارة؟
من أضاء كل مصابيح بيتك؟
من ذا الذي جعل من أبيات شعرك
كحلاً لعينيه
واليوم
عندما حل الخطب بالوطن
بداً مستقبلك لعينيك مظلماً؟
منذ متى كانت
خدمة الأم بالورود والهدايا
إنها تحتاج إلى لسانك أنت
مباركة لك دنياك الجديدة؟

لكن عليك أن تعطي هذا الكلام جيداً
إن الغابة التي اتخذت منها بيتاً لك
ملينة بالدببة والفئاب.

تغوييب

عيون شاردة
وشعر متناثر
ورداء مهلهل
إنسان ذاهل
يلازمني كظلي
ولكن
كلما صادفته في مكان
اضطرب وغير طريقه
ثم راح يرمقني من بعيد
تري من يكون هذا؟

خب

سحب الربيع
أخذت بين يديها
وجه الوردة
وقبيلتها
فتحوات آلام الوردة
إلى عبق.. وفاحت
عطيل
طلبت رقمي.. على تليفوني
مرات ومرات
مندهشة

حتى متى يظل تليفونه مشغولا
وقلبي يحترق غيره
ترى من يتكلم كل هذا الوقت

صوت الميلاد الأول

هي فتاة
ربما لم ألقها ولو للحظة واحدة
أنا أعرف وجهها
لأن وجهها
يطل من وراء ستار أشعارك وأغانيك
صدقتني
إن هذا الوجه أعز عندي من وجودك أنت
إذ أن في عينيها
يكنم بحر المحبة
لقد جعلت منها إلها ، وظلت تقسك مثلي
جسم تلك الفتاة
هو جسمي أنا
إنها فتاة
بمئة رجب صدى ميلادى الأولى

تخيل

تقول: إن حبك لى بلا حدود
وأنا على يقين من ذلك
ولكن أيها الشاب الخالف
هناك شئ في عينيك لا يطمئن!

حياة

كان لقائنا هذه المرة عجبيا
ها تغيرت أنت أم تغيرت نظراتي
كان يبدو من نظراتك أنه بدلا مني
حل شخص آخر في بيتك
جئت لأهنتك بمنصبك الجديد
فكان استقبالك لى
كاستقبال رجال الدولة في البروتوكولات
وجلست بالقرب منى تكلفاً
ثم تحدثت عن الطقس بحماس
وبعد ذلك
تكلمت عن السياسة قليلا
وعطقت على الأدب ببعض الكلمات
لكك لم تسألنى كماعتك
كيف يمر بك الوقت حبيبتى
كم حجم الأذى في النهار الثقيل
وكم قسوة الوحدة في ليالى الشتاء
وهل تشكون أنت أيضا
من بطم الليالى
ليتك حدثتني عن قصص أحزان الفراق
أو سعادة الوصال
ليتك حدثتني
ولو على سبيل المجاملة !!
أحزان الغد القادم
تترامى لأنتظارى

تلك اللحظة

عندما تغمض عينيك في ظل ناعم لضفائر
جميلة

متخيلا الأيام الماضية

شارداً للحظة

وربما أصابك الحزن وإن لم ترد ذلك

وسيسالك صوت جميل

روحي ! ماذا بك؟

في أي شيء شرد ذهنك؟

وستبدو على شفئك ابتسامة

كشعاع الصباح البكر

وسوف تربت على خديها قائلاً:

كنت أفكر في فتاة

فتاة عجيبة ، كم كانت مجنونة؟

وعندما يعبس جبين رفيقتك الجميل

ستضحك أنت بحب شديد

وستقول لها

إن تلك الفتاة

كانت حماقة عواطفى

كم كانت فتاة حمقاء

ثم تمر بأصابعك بين ثنايا ضفائر رفيقتك

الجميلة

وتقول لها

هيا

في غدا الجديد القادم

ندفن ماضينا!

مجرد فتاة

أجلس حزينة

في حجرتي الباردة

ومن النوافذ نصف المفتوحة

يتصلل الهواء الرطب

يلمس جسمى

فيشعل فيه النيران

ويذكر اسمك

فيدغدغ بدنى

ليتتى كانت لى أجنحة

فأطير قائمة إليك

ليتتى كنت هواءً

فألصق وأعود

لكنى لست شيئا

داخل الأسوار الحديدية

للتقاليد القاسية

أنا متهم يقضى سجنه مدى الحياة

أنا مجرد فتاة!

نصيب

أنا تلك الفتاة

التي رفع شخص ما

طرف طرحتها عن وجهها

فى الليلة الأولى قائلا:

كل ما أملك هو لك

ما عدا قلبى!

إلى من راقبتك

ذلك الذي وضعت رأسك الآن
على أكتافه أثناء الرقص
كنت في يوم من الأيام ملاذاً له
والفرق هو أنتى
صرت وحيدة قبل الليل
أما أنت
فسوف تبقين في وهم هذا الأمان
حتى الصباح!

تنقيص

اليوم
وضع رأسه على كفى
وانتصب بأكياً
في ذكرى شخص آخر!

القمور

كل منا مسافر
وقدرنا واحد
أنا وحيدة على الأرض
وهو كذلك في السماء

رحلة خلوية

صديقتى
يقفن في عرض البحر ضاحكات
وأنا بعيدة عنهن
أجلس على الساحل وحيدة

أعد الأمواج المتعاقبة
أو

أكتب اسمك على الرمال الرطبة!

حلم

الفتيات الواقفات وسط المياه الكثيرة
يتقاذفن بذرات الأمواج الرقيقة
ويضحكن على أى شئ
ويتحدثن عن أحلامهن
أما تلك الصامتات
فترسم في عيونهن أيضاً ابتسامة
وتقبل شفاههن لمسة أحلام خيالية
«وقد صارت كل أروية الفصول القادمة
زرقاء»

ومن بعيد
كانت هناك فتاة صغيرة
تجلس على الساحل
لا تشعر بضحكاتها
ولا بنغمات الأمواج
كانت مشغولة
ببناء بيت صغير من الرمال
وكنت أقول لنفسي
إلهى

نحن الفتيات
لماذا نحب أن نرى الأحلام
منذ نعومة أظفارنا

كم يتواصل حكم الأحلام!!

(نصيحة)

آيتها الفتاة الصغيرة
لاتبنى بيتك من الرمال
بالقرب من الساحل
إذ لو جاءت موجة متمردة
فستقتلع معها بيتك من جنوره
وعندها ستظلن طيلة عمرك
تبكين فى نكراها!!

الطرحه والشرائح

كانت هناك فتاة وحيدة على الشاطئ
تمسك بيد الهواء البارد
وتجربى فوق الرمال المبللة
لايدرى أحد
عمن تبحث
وبعيون قلقة
خالية من الكحل
كانت ترقب فى حيرة
تمايل شراع سفينة تجرى نجفة
على صدر البحر الواسع
كيف تطبق على طرحتها فى حسرة!

صديق

تلك الصخرة الوحيدة

بصحة البحر

شريت سم الوحدة

حتى صار جسدها الذهبى

أزرق

مدينة الأطباء

خلف مدينة الأطباء
بعض الشباب فى زى بلون الماء الرقيق
يؤنون وأجباتهم
فى خفة مثل موج الصبا
يكفكون الدموع
يعالجون الآلام
أعجبنى كثيراً
هؤلاء الأطباء ، نوى الوجوه الوردية والزى
الملانكى
ولون الحياة واللغة الندية
واللمسة القمرية ، ونفيس عيسى
ود القلب لو أكتب لهم شيئاً
وليبق دائماً
هذا الضياء العطوف فى وجوههم
هذا النور الرقيق فى عيونهم
هذا البريق الوردى فى لهجتهم
هذه الضحكة الجميلة على شفاههم.
لتبقى دائماً مضيئة متلألئة هكذا
ولتضحك الحياة بصحبتهم
لكن هذا الدماء لم يكتمل على شفتي
إذ جاء فجأة من جهة ما

جسد إنسان صريح

غارق في دماؤه

ووجهه كئيب

لقد استغرق هذا المنظر ذهني

فابتلت لهجتي كما ابتلت رموشى

وتلون رداء حديثى بلون الدماء

لكن هو ذلك المنفذ أمامى

ظل واقفا يضطك

ولم ينقطع حبل حديثه

ولم يكن فى عيونه أثر لآى ألم

بل إنه

عندما رأى حزنى ضحك قائلاً:

«سيدتى ! هذا يحدث كل يوم

على من سنحزن

من يتحمل آلام الآخرين

هذا يحدث كل يوم

دع من هذا

وتعالى نتحدث قليلاً

ويدأت عيوني تحملى فى ملك الرحمة هذا

بحيرة

وظللت أنظر إلى ذلك الإنسان الذى يرتدى

لباساً بلون الماء

منحوتاً من أجنحة الملائكة

وحاول الناس كثيراً إقناعى:

«هذا طيب ، الموت بالنسبة له

حدث عام ، وليس مصيبة عظمى»

مبارك للأطباء مكانتهم

ولكن الطريق الذى جاء منه هؤلاء

على كل منحنى فيه

جاءت قلوبهم تحت أقدامهم.

إشتروا الطبابة بدلاً من القلب الحساس

الرقيق

وهذا الثمن غال جداً

غال جداً!

إلى صديقاتى الصافير



عصفورتى الوبعية

لماذا جئت إلى حجرتى

ليس هنا سوى الكتب

التي يمكن أن تعطيك فقط خريطة بيتك

ولكن

صديقك الذى يحضر القش

ليس بمقبروها



عصفورتى الحبيبة

خذى قشك من نافلتى وارحلى

فريما

خراب بيتى غدا

يقضى على عمار بيتك

ويحل عليك ظل مفرق شعري!



٢

عصفورتى الوحيدة فى البيت المزخرف
فى عيونك المهجورة كالنجمة
أحزان «أم الأمراء» ساكنة الشرق
كأنتى أرى فيك أُمى
أقول لنفسى:
لماذا يكون قدر الأمهات واحداً؟
حجورهن يملؤها الورد
وأفنية بيوتهن خالية!!

٣

عصفورتى
لماذا تيكين؟
فاليوم جأت الشمس إلى بيتك
حاملة رسالة النسيم
واشعة الشمس تمسك بأصابع أطفالك
راقصة
وعانق الهواء صفارك لأول مرة
ومتى عاد إلى البيت من يعانق الهواء ذات
مرة



القصة النسائية فى إيران

مختارات من هريم جمشيدى

ترجمة وتقديم

اسامة فتح الباب

رقبية الشبراوى

بالرغم من التجربة التاريخية التى يصل عمرها إلى عدة قرون ، والتى كانت نتاجا لدر من النظم ، والنثر . فإن تاريخ كتابة القصة فى إيران لا يتعدى المائة ، ونيف سنة ، حتى اطلع الإيرانيون على عالم الغرب .. وما واكب هذه الأجواء المتنوعة من الأدب والفن .

وقد أسفر البحث بين قهارس الكتب المختلفة ، ومصادر الأدب القصصى الإيراني عن نتيجة مهمة ، وهى أن كتاب القصة الإيرانيين فى القرن الأخير من شيوخ ، وشباب يصل إلى ١٢٠٠ كاتب ، وكاتبة وتشكل الكاتبات ما يقرب من تسع هذا العدد تقريبا .

وكان الأدب القصصى النسائى قد بدأ يشق طريقه إلى النور بشكل جدى عندما نشرت الأدبية الإيرانية ذائعة الصيت سيمين دانشور مجموعتها القصصية (آتش خاموش) (النار المطفأة) فى عام ١٩٤٩م .

وإن كان هناك أثر قصصى نسائى آخر مثل (آفسانه ورامين) طبعة طهران عام ١٣٢٣

هش عام ١٩٤٥ م للكاتبة الإيرانية «مريم فيروز» تم نشره قبل هذا التاريخ إلا أنه ، وللأسف الشديد نفذت طبعته وليس من السهل الآن العثور عليه والحكم بما إذا كان هذا العمل عملاً قصصياً أم لا . مع أن بعض الكتب قد عرضت له واعتبرته أول عمل أدبي منشور خطه قلم سيدة إيرانية.

ويمكن تقسيم الكاتبات الإيرانيات إلى عدة فرق.

١- الفريق الأول : وهو فريق الكاتبات اللاتي استمر نشاطهن القصصى حتى قيام الثورة الإسلامية ثم انقطع هذا النشاط بقيام الثورة، ولم ينشر لهن أثر واحد بعد الثورة . ومن هذا الفريق كاتبات لم ينشرن إلا عملاً واحداً، أو عملين فقط، ثم إن هذين العملين لا يتسمان بالجودة الأدبية كما أنهما قد يفتقران إلى الصبغة الفنية ، والتكنيكية وما لبثت هذه الجماعة أن اعتزلت العمل القصصى ، والتحققت بقطاع أدبي آخر.

٢- الفريق الثانى : ويتمثل فى مجموعة الكاتبات اللاتي يمكن أن يطلق عليهن اسم الكاتبات المخضرمات ، وهن اللاتي نشرن أعمالاً قصصية قبل الثورة ، واستمر نشاطهن حتى بعد قيام الثورة . فهناك كاتبات معدودات سطرن أسماؤهن بحروف من نور بين أشهر الكاتبات اللاتي لمعت أسماؤهن فى مجال القصة ، ولا يزال حتى اليوم.

الفريق الثالث: ويتمثل فى مجموعة من الكاتبات اللاتي لم يكنن إلا بعد الثورة ، وهؤلاء الكاتبات أطلقن على أنفسهن اسم كاتبات جيل الثورة ، والمقطوع به أن هذا الجيل من الكاتبات قد اتسمت أعماله بخصائص ، وملامح جديدة ومختلفة عن مضمون القصة قبل الثورة ، وهذا الأمر ليس بالغريب فالثورة الإسلامية قد أحدثت تحولاً عظيماً فى البنية السياسية ، والاجتماعية ، والأدبية ، وتغيرت قواعده ومجالات وتبدلت رغبات واحتياجات مختلفة ، وصديق من قال إن الأديب هو امرأة العصر فقد أدت أحداث الأيام الأولى للثورة ، وكذلك الأشهر القليلة التى مرت قبيل الثورة إلى ظهور خصائص أدبية ، وفنية عديدة.

من هنا فإننا اليوم أمام أدب جديد من نوعه ذى خصائص أدبية مختلفة ، ولذلك فهو فى حاجة إلى أسس ومعايير جديدة تضاف إلى المعايير التقليدية للنقد الأدبى حتى يمكن تقييمه ونقده بشكل علمى دقيق . يكما أنه يحتاج إلى سبر أغوار الإنسان ذاته ومع أن أدب الثورة الإسلامية لا يزال يفتقر إلى المبادئ العامة التى يجب توافرها فى الكتابة القصصية ، إلا أنه جدير بالعرض ، ومع أن الكتابة النسائية تعكس التجارب الشخصية للمرأة ، إلا أنها تعكس فى الوقت ذاته الملامح السياسية ، والاجتماعية للمجتمع بأسره «فمثل هذا القصص يفيض صدقاً ، وإخلاصاً .

إن الوصول إلى مرحلة الحكمة الفنية ، وتفعيل الخبرات يحتاج إلى وقت طويل بينما لا يزال أدب الثورة يعيش طور الصبا في كافة مجالاته ، ومناحيه ولكل هذا قد يكون من قبيل العجلة طرح هذا الأدب النسائي في هذا الوقت مع أنه يعد تجربة إنسانية ، ونتيجة سياسية واجتماعية.

ونحن الآن نسعى للتعرف على هذا الإنتاج القصصى للمرأة الإيرانية التي كان عليها أن تخطو خطوة إلى الأمام لتعبر عن وجودها ، وتثبت للمجتمع أنها كائنة ، لها دورها الذي لا يقل أثرا عن دور الرجل لأنها تطلع القارئ على جانب يكاد يكون خفيا عنه ، ومهما حاول الرجل تصويره ، وتجسيده فإن قلمه يخونه ، ويهتز بين أصابعه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر تقدم إحدى القصص المقدمة اليوم للقارئ تجربة أنثوية فريدة قد يشاهدها الرجل من بعيد ولكنه لا يستطيع أن يصفها الوصف الدقيق لأنه لا يعيش هذه التجربة ، وإن يستطيع أن يعيشها ، فهي تجربة امرأة تضع طفلا ، فالفقاصة مريم جمشيدى برعت ، وأبدعت في وصف هذا المشهد وتجسيم هذه الصورة ، إنها أحكمت قبضتها على قلمها ، وأطاعها هذا القلم ، فأخذت تجرى به على سطور أوراقها ، وهو يرسم صورة مؤثرة ترحل بالقارئ بعيدا عن واقعه الذي كان يعيش فيه قبل قراءة هذه القصة ، يؤثر فيه تأثيرا بالغا فهي تصور امرأة تضع في المستشفى ، والمشهد يقوم به أكثر من شخصية ، وهذه الشخصيات هي المرأة التي تعاني آلام المخاض ، والطبيبة ، والمرضات ، وطبية التخدير ، وأم المرأة ، وكانت الكاتبة تعطى خيط الحديث لكل شخصية في إحكام التعبير عن تجربة ربما تكون قد مرت بها هي بل إنها من المؤكد أن تكون قد مرت بها ، وهذه التجربة لا يمكن للرجل أن يصورها ، أو يجسدها كما جسدها الكاتبة ، ويعد هذا من الجوانب التي تتفرد بها المرأة على مسرح الكتابة القصصية.

وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الكتابات اللائي أثرن في حركة الكتابة النسائية في إيران ، ومن هؤلاء الكاتبات ، الكاتبة الإيرانية الشهيرة «سيمين دانشور» التي تعد أشهر الكاتبات الإيرانيات في العصر الحديث حيث بدأت القصة النسائية في إيران على يدها ، ويقصتها «آتش خاموش» (النار المطفأة) ، وتوالى إنتاجها الأدبي واستمرت تنتج أروع الأعمال ، وأكثرها إبداعا قرأينا لها بعد ذلك «مدينة كالجنة» عام ١٣٤٠ هـ ش ، و«سوشون» عام ١٣٤٨ هـ ش ، و«على من ألقى السلام» ١٣٥٩ هـ ش ، والجزء الأول من رواية (جزيرة الحيرة) عام ١٣٧٢ هـ ش.

ومن الكتابات البارزات في الأدب الإيراني والتي يمكن أن تحتل المرتبة الثانية بعد

سيمين دانشور الكاتبة الإيرانية المقتدرة «كلى ترقى» والتي ولدت عام ١٣٨١ هـ.ش. و١٩٤٠ في مدينة طهران ، وكانت تعمل أستاذة بالجامعة في قسم الترجمة . وهى كريمة السيد لطف الله ترقى مدير مجلة «ترقى» ، وكانت ترقى قد بدأت تشق طريقها لاحتراف كتابة القصة منذ عام ١٣٤٤ هـ.ش ١٩٦٥م ونشرت مجموعتها القصصية الأولى فى عام ١٣٤٨ هـ.ش «من هم جه كوارا هستم» ، (أنا أيضا ما أمتعنى) .

ويأتى الدور فى الحديث على كاتبتنا التى أبدعت أعمالا أدبية رائعة منها: المجموعة القصصية التى بين أيدينا ، وهى مريم جمشيدى التى ولدت عام ١٣٤٣ هـ.ش ١٩٦٤ م ونشرت فى عام ١٣٦٧ هـ.ش ١٩٨٨ م مجموعتها القصصية : كهواره خوبى» ، (المخدع الجميل) و«عالم وأدم» (العالم والإنسان) وتحتوى هاتان المجموعتان على آلام ومتاعب وقضايا تهم المرأة الإيرانية فى فترة ما بعد الثورة .

الشاب

قلت مرة أخرى : هل يتحدث إبراهيم؟ .

أمسح عيني ولا أصدق . هل كنت أرى كل تلك الأشياء فى المنام؟ .

ولن يعود إبراهيم فى الحقيقة . هل يعقل ؟ لا . إبراهيم قد رحل منذ فترة طويلة ، وضاع ! ضاع إبراهيم منذ فترة طويلة . كم هو مؤلم ! أذهب إلى الفناء ، وأجلس فوق السلم الأسمنتى المعتم للغاية .

عندما كان إبراهيم يريد أن يذهب و .. لا يعود .. أنظر للأفق ، وهذا القمر الفضى بعيونه الزرقاء ينظر إلى بتودة ، ولكنى متبرم جدا من الأنس به .

إننى لا أفهم ما حدث بالمرّة لقد جاضى فى المنام ، ربما يكون هذا هو السبب غل الأشياء التى كان يقولها كأنها وخزنتى بمخز ، إنه كان يصرخ ، ولا يريد أن يقول ، ألححت عليه كثيرا ، وتوسلت إليه لكى يقول ، وهكذا أعتقد أن إبراهيم قد وقع أسيرا ، وخلاصة الأمر فإن إبراهيم كان يستطيع أن يرى كل هذه الأشياء ، و .. يا إلهى .. إبراهيم !

كان هناك شئ يزعجنى ربما كان هذا الشئ هو كلام إبراهيم مؤكداً . فكلام إبراهيم كان ثقيل ، ثقيل جدا كأنهم أفرغوا عليه قدراً من السائل الحيدى وهكذا كان يتملكنى إحساس غريب بالضيق ، فقد تغيرت كثيراً ، وأصبح لدى يقين بأنه هو رد فعل كلمات إبراهيم . فيا لها من أشياء ! أقول لا تفعل قمنا لى ليس له تفسير .

هل يمكن! أيمكن أن يكون داخل المعتقل على هذا النحو .. لا ، لا أيتننى إبراهيم فى المنام ، هل يمكن أن أصدق ما رأيت فى المنام.

ولكن كل هذه الأشياء حقيقية ، فقد قبضت رقبة إبراهيم بقيد محكم، وإبراهيم يتراجع ، ويئن! يا لها من قسوة! وبألمها من وحشية! وما أبشعه ألما! فهل لهم علاقة بالجميع! الآن لا يمكن .. لا ، لا ، إبراهيم نفسه قال لا يمكن . أى لا يمكن أن يحدث . نحن مع هؤلاء .. لا ، لا ، أصلا لا يوجد أحد شريف.

إبراهيم كان يقول إننى يجب أن أعرف! وأمى كانت تقول أيضا لماذا كان قليل الكلام، ويجب أن ألع عليه لكى يحرك شفتيه بكلمة . وكان قلبه قد قبض جدا لم أجرؤ أن أدقق فى ملامحه بعد التقاطيب التى كانت قد علت جبهته بعد مضى عامين يصبح هو نفسه رجلا حذرا أم لا فقط اصرارى هو الذى جعله يتحدث ، وكان يقول نفس الكلام الثقيل ، يبدو أنه كان متعبا للغاية . ألقى نظرة إلى عينيه كان من الواضح أنه أمضى الليل كله مستيقظا وكان يقول إنه لم يكن يستطع مشاهدة نجوم الليل.

يا ليت لسانى كان قد انعقد ولم يتحرك ، فلو كان هو هناك وذهبت أنت لجعلوا سقف السجن حجابا للسماء.

فى رأيك أين يجب أن أكون؟ فوق ، بين طبقات السماء؟ لم يقل لئلا . وكان يقول لنفسه . ومع هذا سألت : هل لا تقول يا إبراهيم؟ قال : إنه لن يقول لئلا مرة ثانية.

ونسيت ويا ليتنى لم أنس فى أى وقت أن أسأل أين هذا المكان الذى كان يتحدث عنه فهو لا يستطيع أن يشاهد نجومه ولا يداوى جروح نادر . وعندما لا يتحدث هو بنفسه يجب أن أسأله أنا، وعلى هذا الشكل تنكرت وسألت.

إبراهيم ، يقال إنك قد ضعت . وأخيرا لماذا؟ وأنت يا إبراهيم الذى كنت تعرف الجبهة جيدا وأنت نفسك أكنت طفلا وتربيت فى هذا المكان! إلا أن إبراهيم قد أوما برأسه وأشار لى بيده.

قلت: إبراهيم . إننى أعرف هؤلاء جيدا . هى نفسها أيدى الإخوة قوية للغاية ، وبإفادة . وأنت يجب أن تقهر بها.

ولكنى لم أفهم لماذا يتألم إبراهيم من كلامى ، وأجابنى بابتسامة مريرة هل ترى شيئا؟

قلت : إبراهيم كيف، لا أرى شيئا! ويدك بهذا القدر من الضخامة . حتى لو أننى

رغبت لم أستطع أن أراها.

ولكن إبراهيم لم يصدق وفى الحقيقة أصبح كل شئ سيئاً حيث لم ألس يده وكما يقول صعب جداً جداً ، ولكننى كنت أعرف أنه لو لم يتحدث لكان يذهب ، ولم يستطع قلبى أن يعود مرة ثانية وفى هذه الأثناء قلت هل تتحدث معى مرة ثانية أيضاً يا إبراهيم؟ إذن فينبغى أن أحافظ على نفسى تماماً كالقمر . فهو يرنو إلى قصة ييضاء أملا فى الغد .

الآن أسمع صوت مؤذن الشيخ المسجد القديم فى حيناً يدوى فى الفناء ويخفف من عبء قلبى ، أنهض من مكاني للصلاة ثم بعد الضوء أقف للصلاة. وعندما أصل القنوط إبراهيم أمام عيني يتجول فوق ظهر يدي والآن ولا أزال فى فتوتى.

والآن ، ولا أزال فى فتوتى أحدث صوتاً عالياً يتلمسه . اللهم لا أن تقدر لأى إنسان أن يصل إلى سن الكهولة فى انتظار أى عزيز.

ثم أداوم هياجى الداخلى!

يارب عجل بظهور الموعود على حقه!

وفى النهاية زال الغم الذى يعلى قلبى، يتبقى على الإنسان أن يصل لنظرة الناس.

الناس الذين هم وحيدون يلقون السلام على الشمس بمفردهم!

وفاة زوجة

كان قد مر وقت طويل ، ولم يكن قد رآها فهو مريض . وكانهم يغفلون نمها داخل جسده الذى أصبح يشبه الإثاء حتى إن النار كانت تشتعل فيها من أخصص قدمها حتى مفرق الرأس ساعة بساعة لدرجة أن لعابها أخذ يتبخر.

كم كانت تعاني كانت قد وضعت أطراف غطائها على شعرها. وقبعتها كانت تحس أنها فى خفة قطعة نقد معدنية كانت أحياناً تجزع ، يتقزع أمام زوجها «حيدر أورا» وذلك لأنها كانت قد ضاقت نرعا ، وتنتظر إلى حيدر بعينين يملأهما الغيظ كانت تريد الحديث إلى زوجها وحيدر كان صامتاً وكانت شفتاه قد شجتا ، وسيطر على قلبها إحساس سيئ ، ورضيت بأن يقضى الله دائماً على العريضة التى يعريدها حيدر داخل البيت سواء بسبب ، أو بدون سبب. إن زوجها يعي تماماً أنها ليست سيئة ، أو حزينة .. وخلايا النحل النشطة داخل حديقة الحاج اسفنديار الميلاى تجعل الخلية تقيض بالعسل الجيد.

«سيدة البيت» كانت لا تزال تواصل سيرها تجاه المنزل بسرعة متلاحقة وفكرت ، ولكن

الآن ماذا!!!! وهل كانت تستطيع هذه المرأة ألا تقول لزوجها .. وبون إرادة منها انهمرت في البكاء وأصبح على وجهها خطان من أثر اللمعس . تذكرت الطبيب الأنيق ذا العظمة التي تعلو رقبته . ذلك الرجل الهندي الألكن الذي كان يلوك اللغة في فمه ، وانتهى به المطاف إلى أن توفي في بلده ، لم يشعر الرجل بأنه غريب هنا فما أكثر أن أشاد بنفسه قائلا: «إننى أستطيع أن أعمل لك عملية «تاهة» ، ولكن لم تسفر عن نتيجة «والتاهة» ..»

تذكرت الزوجة دون أن تصغى لما تبقى من كلامه أن الموت شئ يشبه ضيقاً مجهولاً من الممكن أن تشاهد هيبته في وقت تناول طعام الفطور ، أو أثناء صلاة العصر عندما تسجد ، أو عندما تستغفر الله ، أو عندما تقوم للتشهد . وبين لحظة ، أو أخرى يدخلك بيته كذاك لم تكن غريباً عنه أبداً.

«الموت» يدخل بمقرده من باب ، ويخرج من نفس الباب ، وهو يصطجيك دون أن تكون قد انتظرت مجيئه ، أو أن تكون قد هيات نفسك للذهاب معه.

«الزوجة» بينما كانت تومئ برأسها . يصقت من قمها فنثرت قطرات عرقها ، وبملمت في نفسها قائلة «لقد يعمت وجهى شطرا القبة مرات عديدة ، وانتظرت موتى... منذ اللحظة الأولى التي أصبحت فيها يلهمب ذلك المرض الميثوس منه.. منذ ذلك الوقت عرفت مصيرى ... أنا كنت أعرف أن شمس عمرى لن تكفيس لأن تضى ربيع هذا العام ..لم يكن الصيف قد نفخ في نفيره بعد إلا ورطت ..وألمأا كتبت وصيتى كلما كان نفسى يصعد واشترت كفتا لجثى .لقد أمهلت نفسى خمسة أشهر أخرى..»

وقبأة كانت قد وثبت من فوق مقعدها خائفة تريد أن تتحدث مع الطبيب.

يا أواره لقد مرت عدة أشهر وأنت على علم بمرضى لو أنك لا تفهم لغتى ، فائت كنتس تعرف علاج مرضى وئن فلماذا لم تجر لى العملية حتى الآن ..لماذا تركت هذه الغدة السرطانية تعزو كل جسدى ..والآن لن يجد علاجك ولا دوائسك لقد جئت للتو فأجبنى ..

ولكن الزوجة لم تفوه بكلمة ، بعد ذلك كان لسانها قد ثقل وكانت تعرف أن الكلام غير مناسب لحالتها لم يكن الطبيب ينظر إليها بعينين مفتوحتين ويفهمها بلغة الصمت فلا يقف ، وينهب ... وكفته كان قد قال : «إنك أتيت كنت قد أتيت متلخرة .متلخرة.

«الزوجة» عندما عادت إلى البيت كان حيدر في البيت حزينا وقد جلس القرفصاء واضعا ركبته تحت إبطه في زاوية بعيدة.

«الزوجة» التي لم تكن تتوقع رؤيته في البيت في هذا الوقت من النهار دخلت حجرتها ،

ومرت متثاقلة من أمام زوجها . ولم يرها حيدر ، ولكنه سمع صوتها حيث كانت تثن بصوت عال: «حيدر الموت لك يا حيدر» . لو تعرف كيف أصبحت مثل السمكة التي أخرجت من الماء وألقيت بعيداً .. إنك لا ترانى مهما تلويت من الألم لا ترانى...».

رفع حيدر رأسه فجأة وصرخ فى وجه زوجته المضطرب ، وقال «كفى يا امرأة ، وانهض أيها العجوز .. إنك تعدين بركان دم ابنك الوحيد قد أريق على الأرض».

«الزوجة» نظرت إلى زوجها تشبه نظرة الخروف الأسود.. ولا يساعدها قلبها على الكلام ..لفت فى الحجرة لفة سريعة واجترت أهة وتالت بينما كانت منشغلة فى جمع القمامة من فوق البساط قائلة: اذهب قدام لرضاء الله.. فإنه يظل يضى البيت حتى الصباح ولا فكيف كان كل هذا العالم وكل هؤلاء الناس يعبدونه..

ثم صاحت صيحة عالية من أعماق قلبها واتجهت نحو المطبخ وكان حيدر قد أفاق فجأة وأخذت عيناه فى البكاء ومن غيرس تفكير نهض من مكانه وتبع زوجته إلى المطبخ حيث وقف إلى جوارها وقال بصوت متقطع «ماذا حدث يا امرأة .. لقد أشعلت ناراً فى القلب وفى البيت وتترفين من عينك دماً..»

ولكن عندما سكن كل شئ ولم يسمع إلا صوت البكاء وصوت غسيل الأواني والأكواب عاد إلى وسط الحجرة وصرخ قائلاً : «فإلى أى قبر أسود ذهب هؤلاء الأيتام حتى لا أراهم فى داخل البيت ألا يسمعون صيحات أمهم .. ألا يؤثر فيهم تلاوة الروضة(١) التى تترنم بها ثم أستطاع أن يرفع صوته أعلى منها فقال: حسنية ، إن الهواء بيدد صوتك فلا يسمع أيتها اليتيمة».

وأراد أن يتناول ابنه هدايت هو الآخر بالسنياب والفحش حتى هدأت «السيد» وخرجت من المطبخ تماماً مثل النجم الذى يضى الأرض يشعاعه من السماء وهو وحيداً جلست وسط الحجرة وفى يدها الشاى ويدون حتى أن تستطيع إلقاء نظرة عابرة غفمت «لماذا تحدث اضطراباً أيها الرجل.. أجلس حتى تجدد نشاطنا بعدها أى سؤال ستسأله سأجيبك عليه ولا شأن لك بحسنية أو بهدايت ... إنهما لا يعرفان شيئاً قط.. وأنت الذى يجب أن تعرف كل شئ».

جلس حيدر تائهاً وحيران أمام زوجته بلامحه السوداء التى تشبه تماماً التوت الأسود ، وظل منتظراً «الزوجة» عندما انتهت من كلامها رفعت رأسها.. واستقر بصرها فجأة على وجه زوجها كان يبدو لها أن حيدر قد مات منذ سنوات بينما كان متكئاً على الحائط وقد أغلق جفونه بشدة.



كان هواء الخريف السيئ يحرك غصون الأشجار وأوراقها . وكانت حسنية قد جاءت إلى الساحة لكي تكتس أوراق شجرة التين العجوز وتراقب الغروب من ناحية وتنتظر في الساحة من ناحية أخرى حتى يعود حيدر من حديقة الحاج اسفنديار .

ولما تذكرت حسنية أن جو الخريف ليس ملائماً وتعتقد أن الخريف على الأقل لا يتجنب المشردين بالشوارع بينما كان يهجم على الحديقة محدثاً صوت أزيز وهو يعريس جسد الأشجار ..

ارتفع صوت «الزوجة» بشدة وبوى بين النافذة والساحة عادت حسنية وقد ربطت نطاقها .

سقطت «الزوجة» في السرير كئنها لجاجة عاجزة وأخذت تتن . تقدمت حسنية . وأمسكت بيدها المحمومة ، وقالت بغصة متقطعة في حلقها : «ماذا تريدان يا أمه .. أتريين في مشاهدة وقت الغروب هل أمشط لك شعرك وأجدله لك في جديلة طويلة ..

إلا أن الزوجة أطلقت صيحة من الألم وكأنها بقرة . ولم تستطع الكلام . وثبت حسنية من مكانها بقدها المشوق لكي تخرج قرصاً من البقجة الملوثة بالأقراص بوتحضرها لها . وصل حيدر هو الآخر من طريقه . واتكأ على الحائط ماسكاً ظهره من الألم وأخذ يحملق في زوجته .

الآن وقد مر أحد عشر شهراً وزوجته طريحة فراش المرض تتألم في أنفاسها . الأكثر من ذلك أنه مر عليها ربيع أسود بل وحتى الصيف قد انتهى هو الآخر على هذه الحال ، ودار الفلك دورته عاد بعدها إلى نقطة البداية وفقس بيض النحل للمرة الثانية بحديقة ميلاني كما أن هدايت قد تسلم حذاء وقبعة من الجندي أما زوجته فلم ترحل ولم تبق . ولونها يزداد شحوباً واصفراراً يوماً بعد يوم ، وجسمها يزداد نحولاً ، كانت الأفكار قد تملك يد بينما استقر صوت حسنية الدافئ في ثنيه وهي تقول : «بابا إن حالة أمي أصبحت اليوم أكثر سوءاً . أظن أن أُلها سوف يسكن فقد أعطيتها قرصاً منوماً .

صاح حيدر قائلاً : «لقد نفذ صبري يا ابنتي .. انهضي واغل لي كوباً من الشاي الخالي من العطور ..»

سألت حسنية بينما كانت تنهض دون أن تستطيع توجيه نظرها إلى عيني أبيها : «من أي شيء تفنصيرك يا أبي . من أمي .»

نظر حيدر إلى ابنته نظرة غريبة ثم حول نظره المتعب إلى سرير «الزوجة» ولم يتفوه بكلمة . كان يرى أن زوجته قد حفرت لها حينما مظلماً وبارداً . والآن قد مر وقت طويل لم

يدر بينهما أى حوار . فزوجته دائماً تنومه.. تنوح ليلاً.. وتنوح نهاراً وتنوح فى وسط الليل.. وكأنها تماماً قطة تنقف عاجزة تحت الأمطار تنكر حيدر بالماضى وكيف أصبح صوتها كصوت اللبك حتى إنه كاد ينسى مفارقاتها بينما كان يعرض شريط ذكرياته معها فى رأسه . وضع رأسه بين كفيه . وصرخ فجأة وبلا اختيار .. أما زوجته فقد غطت فى النوم شيئاً فشيئاً ..

كان قد أخرج باقة من الورد الأحمر من وسط الكليم فى الحجرة .
«الزوجة» ويمجرد أن وقع نظرها عليه أحست من أعماق قلبها كأن الغدة السرطانية قد تبددت تماماً . أرسلت إليهما نظرة شبابية ، ومفعمة بالحياة وتسممت عبق المكان فما أطيب عطرها وكان بيتهم هو حديقة الحاج اسفنديار ، وقاطفى زهور الربيع .
«الزوجة» أحبت أن تأخذ غصنا وتداعب وجهها بأوراق الورد والذي كان يبدو وكأنه وجه امرأة عجوز ومن هنا أدنت ورده من وجنتيها بلطف ، وأغمضت عينيها فجأة .
ثم ألقت بنظرة إلى أركان الحجرة . وكان صوت غطيط زوجها حيدر أراه يزلزل الأشياء حتى المرأة فوق الرف . نادت «الزوجة» بما أوتيت من قوة قائلة: انهض ، وأضئ المصباح .

قفز حيدر من نومه فزعاً وهو لا يصدق بوجلس فى مكانه : «ماذا حدث يا امرأة . هل صرعت جن . ن صوتكلا يشبه صوت من يشرف على الموت» .
«الزوجة» أخذت المرأة تلاحظه مرة أخرى قائلة: «لا تكن قاسياً معي يا حيدر ، انهض ، وأضئ المصباح . كان صوتها دافئاً ولطيفاً» .

استسلم حيدر للحيرة بتجمد فى مكانه ولم يستطع الانتكاء .
«الزوجة» اضطرت للقيام من سريرها ورقعت خطوة فى خفة السحاب نحو الحائط ، ووضعت يدها على مفتاح المصباح ، إلا أنها مهما ضغطت على المفتاح لم يضاء المصباح .. أخذ الألم يصعد فى جسدها لحظة بعد أخرى ومن هنا فإنها سبنت رأسها على المفتاح واجترت أمة مؤثرة .

وبعد لحظات قام حيدر نحوها وضغط على مفتاح المصباح وبإضاءة المصباح وقعت عيناه على زوجته ساقطة على الأرض بجوار الحائط تابطها حيدر وفزع وأدار وجهها إليه .. بينما كانت عيناها شبه المفتوحتين متجهتين إلى لا مكان فلم تكن ترى شيئاً بعدها ..
كان حيدر يبكي متلئلاً بغير متأكد مما إذا كانت قد ماتت ، أم لا ..

رياح وأمطار

دقت ساعة الحائط الثانية بعد منتصف الليل، وكانت الأحوال تجرى على غير ما أرادت الطبية حيث كان أفراد النوبيات يتحدثون فى الردهة بلا حساب كان الشتاء فى ذروته حيث أخذ الجليد يتساقط بشدة.

تدحرجت المرأة ناحية النافذة وكان الألم قد سلبها النوم، كانت ستائر النافذة أحياناً مفتوحة ، وأحياناً أخرى مغلقة، لم تكن تعرف شيئاً عن الجليد الذى يتساقط خلف الزجاج.

كانت تتفقد عقارب الساعة فى الحد الفاصل بين المعرفة ، والجهل حيث كان وجهها مغطى فى غالبه بماسك من الأكسجين وكانت فرصتها فى الراحة بين عودة الألم ، وسكونه عدة ثوان معدودة ، لكى يمكنها التفكير فى شئ بسيط ، وشئ دقيق كان يعبر من أمام خيالها اللحظة فقط لحظة . شئ بالغ الدقة من التفكير ، وذكرى فى حجم شعرة، ولو أن الموت كان بهذا الحجم لكان شيئاً بسيطاً.

أخذ الجليد يتساقط على مهل ، أغلقت عينها فجأة ، وبوضعية من الألم الشديد الذى كان يحمل شيئاً من داخلها يعاودها كل دقيقة ، بنصف كل شئ حولها كان يتهاوى . نهضت ، وفكرت لكى تخلص نفسها غرقت من يدها سن الإبرة المتصلة بزجاجة الجلوكوز وأخذت تجرى وكانت تجرى بين حوائط ، وبحوائط تحيط بها من كل مكان حتى استطاعت أن تقبض على حائط فانقبض قلبها ، وتعثرت أنفها ليتها كانت تستطيع الخروج من هذه الغرفة، من هذا الفراغ الغريب الذى كانت تختنق برائحة الدم، والعرق ، ومخلفات الولادة داخله حتى إنها كانت تحسد كل مكان خارج هذا المكان.

أبثت أرضية الحجرة فجأة بحيث كانوا قد قضوا كيس ماء لطفل منذ ساعة وكما رفعت خطوة ترحلت فوقعت ، ونظرت حولها كم كانت وحيدة ، أربعة أسرة عليها أربع ملاحف جافة لم تمس ، أربعة أسرة فارغة من أربعة مواليد ، أين كانوا هم، هل كانوا قد استطاعوا الهرب إلى مكان آمن بعيداً عن الجميع ، بعيداً عن الناس الذين دائماً يتعقبونهم ، يبحثون عن شئ داخلهم مثل مريم العنراء ، تحت سقف النخيل اليابس ، طرقت رأسها بالحائط ، وصرخت ، ولم يكن هناك أى شخص ، فلم يأتئها أحد أحنث ظهرها ، وهى متكئة على الحائط حتى خصرها .

وفجأة رأت الباب ، وأرادت أن تهجم ناحيته ، لكنها توقفت ، تحت ضربات سوط الألم، وأحنث ظهرها مرة أخرى ، على بقع النداء الكثيرة التى كانت فوق الملحفة ، والملفوفة بها بخيطين ، أصبحت أوسع ، وسقط الدم تحت قدميها اسودت عيناها من الخوف ، كان

ينبغي أن تخبر أحداً.

كان ينبغي أن تذهب كان ينبغي أن تخرج من هذا المكان ..
رفعت عدة خطوات متعثرة ، أنا رياح .. أنا أمطار .. أنا شمس طاهرة وصرخت ،
وسقطت على الأرض.

فجأة ، وفي طرفة عين التفقت الممرضات حولها ، ولخبط صوت بكائها بضجة
الممرضات ، كانت أتية .. وظلت تتوسل إليهن قامت الممرضات يحملها من فوق بلاط
وجهها إلا جلد على عظم ، كان يبدو أنها تتألم لسنوات طوال تتألم فقط ، ولا تد .
تأبطها إحدى الممرضات ، وقالت لها سينتهي كل شيء ، فلماذا كل هذه الأفعال أطفلة
أنت ، لم تجب المرأة عليها ، وقبل أن تعود بها الممرضة إلى سريرها ، بدلت لها ملابسها
بوكذلك الملاحف استقلت المرأة يائسة فوق ملاحف جافة ، وأخذت تتفقد السقف ينظرها
ولا تزال تتألم وبالممرضة منشغلة بقياس نبضها ، كان يبدو من صوتها انه متعب : قائلة
«الطبيبة موجودة فى مكتبها اتصلت بنا هاتفيا تسأل عن حالتك .. أمرتنا بأن نقدم لها
تقريراً عن حالتك أولاً .. بلول .. حتما هي تفكر فى الحالة .. لا تقلقى ، الطبيبة ماهرة . غهى
تعرف جيداً ماذا ستفعل ..

جات عاملة النظافة لتنظف الحجرة كان وجهها يوشى بأنها ما زالت نائمة وعبوسة .
ألقت الممرضة نظرة على الحجرة ، وواصلت حديثها: «أنظرى ماذا فعلت هنا .. الوقوف
ليس مناسباً لحالتك ، بما بالك بهذه التصرفات العجيبة والغريبة .» ومالت عليها مرة أخرى
لتواصل الكشف على المرأة كان القلق يعلو وجهها لم تكن تحس إحساساً طيباً . ألقت
نظرة خارج الشرفة ، كان الجليد لا يزال يتساقط .

ياله من جليد .. المرأة ، تمنت المرأة وهى تقبض بشدة على يد الممرضة أن لو استطاعت
أن تنام للحظة واحدة فقط ..» .

كانت قد جلست فوق سرير خشبي فى زاوية من زوايا الساحة ، وأخذت تترنم بشعر
حافظ .. ليل حالك .. وموج مخيف .. وبوامة هائلة .

كانت ساحة كبيرة تملؤها الأشجار كان النسيم الذى يهب وكنهه يحدث حكيكاً فقط
فى تلك الأشجار المعلومه من أشجار التين . نظرت المرأة إلى الساحة ، وخافت فجأة ، فلم
تكن الساحة كما كانت دائماً .

كان هناك شيئاً ما قد تغير . شئ كان قد تغير فى كل الدنيا . شئ كان دائماً ممتزج
بالأسرار «كله من تحت راس هؤلاء الناس ..» .

قد تغير كل شئ من أجلهم .. هؤلاء الناس الذين يمتزجون بالأسرار تملأهم الأسرار ، تملكها الخوف . جمعت ملابسها الوردية اللون الطويلة داخل الجونلة أغلقت ديوان حافظ ، وسارت .. كان ينبغي أن ترحل كان ينبغي أن تلجأ إلى ملابسها الصغيرة .

كان حافظ قد ألقى عبادة طويلة على كتفها وأخذت تترنم بالقرآن كانت قد خلدت إلى النوم لفترة طويلة . أحسّت بحرارة عجيبة كان أبوها قد وقف على رأسها ، وبدأ ينرف الدمع وتبللت وجنتاه قال : «أحملها إلى الطبيب .. حتى لا تضيع منى هذه المعصومة» .

وارتدى بذلته الرمادية اللون وذهب الإثنان ، بينما كان في طريق العودة ، أراد الأب أن ينزل من الأتوبيس قبلها ، ويسرع لعمله فقال لها في آخر الخط عندما ينزل كل الركاب ، تتزilin وتذهبين مباشرة إلى البيت : «من الأتوبيس الذى منه ستترين مدرسة من هناك ستعرفين أنت طريق البيت خذ جانب مدرستك وسيبرى على هذا النح» .

ونزل هو ، وذهب . بقيت هي ، وبنياها المخيفة هي ، وبنياها المربعة .. بينما وضعت قدميها في الشارع نفسه . اكتظ غيظها ، واضطربت . اضطرب ومهما نظرت حولها ، لم تر مدرستها خافت وانخرطت في البكاء .

من أى ناحية كان طريق البيت . أين كانت مدرستها . هما تقدمت إلى الأمام ، كان كلاهما قد ابتعد . ابتلت عليه الدواء التى كانت في يدها من العرق ، وكانت تحرق في زصابعا . وكانت النار قد اندلعت في عينيها الرقيقتين فهي تائهة وسط الشارع تبحث عن البيت تبحث عن المدرسة . انتهى الأمر بها إلى العثور على البيت . وكان الزمان قد قلب أوراقه فأصبحت عجوز وكانت قد ماتت . ويعد أن ماتت وجدت البيت .

تجمعن كلهن في الحجرة وضعت أسيوتها فوق رف وبدأت تمشى في الحجرة بومع كل خطوة كانت ترفعها كانت تعود إلى شبابها ، أكثر شبابا ، وأيضا .. .

حسناً لقد نظرت فوجدت نفسها داخل غرفة الولادة ودفقت ساعة الحائط تمام الثانية بعد منتصف الليل . والآن عادت ترى تساقط الجليد حيث كان يبدو لناظريها كالنور فكانت ترى كل شئ . كانت الطبيبة تقول لها باستمرار «عليك بالدعاء» .

هى لم تكن تستطيع نطق لفظ واحد ، ولم يكن الألم يسمح لها بالكلام . أخضرت العاملة ورقة صغيرة ، وأعطتها إياها كانت الورقة تشبه الذكرى كانت متناهية في الدقة حالت الطبيبة عليها ، وأخذت الورقة منها لتقرأها لها « تحملى يا حبيبة قلبى .. عليك بالدعاء .. أنا بالخارج في انتظارك .. زوجك حميد «حاولت أن تستحضر ملامح زوجها ، وتبتسم له .

أدخلت الطيبية القفاز فى يديها والمرأة تتوسل إليها، وتقول : لا .. ليس الآن .. انتظرت الطيبية حتى يسكن الألم . بعد الكشف أصبحت متأكدة أكثر ، وكان ما تبقى هو كيف تبدأ ، ماذا تقول لها هل كان يمكن أن تتحمل شئ آخر بعد كل هذا الألم كانت تتوقع من أول الأمر أن هذا ما سوف يحدث . ومع كل هذا انتظرت ، وصبرت حتى تتحسن الحالة ، والآن أصبحت لا حيلة لها إلا أن تتوجه إلى المرأة ، فنظرت إلى عينيها من بين خصلات شعرها المضطرب ، وكنتهما كانتا تعرفان كل شئ : «لقد أمرتهم بأن يجهزوا غرفة العمليات لقد أقلقنى صوت قلب الجنين .. وهو طفلك الأول .. لا أستطيع الصبر أكثر من هذا» .

فجأة أصبح قلب المرأة فارغاً .. وقاضت عيناها بالدموع شيئاً فشيئاً ويهدوء تضاعفت قوة بصرها . وأحسنت أن الأرض قد هوت من تحتها .

ساعتتها الطيبية حتى تنكئ فى حالة بين الجلوس ، والنوم ، جاءت الممرضات ليحملنها ، ويعدننها العملية وكان ما تبقى هو ماذا تقول . كانت هناك حادثة غريبة فى انتظارها . ربما كان كل شئ يتحرك فى طريقه للنهاية رويدا رويدا . قالت الآن أذهب « ولم تتمكن من إنهاء جملتها .

التهم الزمن صمتاً مريباً مؤملاً واستمر هذا الصمت طوال الرعدة ، هل كانت خائفة .. هل كانت تتألم ، فهي لم تكن تان ، أو تصرخ وقع بصرها على زوجها بينما كانوا يذهبون بها نحو المصعد . تذكرت الورقة فتبسمت له . كم كان يبدو عليه الاضطراب وأصبح كالوردة الحمراء .. ياله من اضطراب .

كانت تحلق ببصرها على المصابيح الكثيرة المضيئة فوق رأسها كانت تنظر إلى الممرضات بملابسهن البيضاء ، ولم تكن تراهن بكانت يتقاربها إحساس عجيب ومع أنها كانت منهكة إلا أنها كانت تتجلد ، فجأة تغيرت تماماً ، وأصبحت تجزع . الآن هى غير قلقة على نفسها ، ولا على وليدها . الآن أذهب .. ربما لا أعود مرة أخرى . ربما يكون هناك خلف هذا الحائط شخص ينتظرنى ليحملنى معه .. يجلسنى على بساط الريح ، ويرحل بى من هذه الدنيا .. الآن أذهب فائناً لم أعد أتألم .. إننى بخير .. بخير ... لا يعلق على أحد فائناً سأرحل إلى مكان آمن مثلاً قطعت مريم .. سأذهب لألد تحت سقف النخيل اليابسة فى ممرات بستان الله ... سأذهب الآن .

انقبض قلبها فجأة تلاشت الأضواء الهائلة من أمام عينيها ، وتداخلت ألوانها ، وكان مصباحا ذا لون مختلف اقترب بضوء هائل منها غطى على الأضواء الأخرى . انضمت شفقتها . وكانت تتأهب لنطق كلمة . كانت كلمة الله . انفتحت الشفاه المظلمة ،

وإدار في قمها قوله: «الله يخركم من الظلمات إلى النور .. الله نور على نور...».

يا إلهي ماذا يحدث لماذا لم تخلصني من هذا الألم: «وما الذي تعطله .. لماذا لا تنتهي الأمر».. ربطوا يديها في زطراف السرير. وجاءت الطبيبة فقصوها ستارة بينها ، وبين عينيها ستارة بينها وبين ما يجري في العملية ستارة خضراء اللون. غليظة وخائفة قد وجدها.

لم تكن طبيبة التخدير قد وصات بعد. وكشفت الطبيبة عليها للمرة الأخيرة. كان الجنين قد تشبث بأمه بولم يرغب في المجئ. احترق قلبها من أجل المرأة. احترق قلبها من أجل كل النساء. احترق قلبها من أجل نفسها كانت امرأة قد تضاعف ألمها غفياقتها عبه عليها من ألم زوجها عبه بسبب أبنائها، من أجلهم كلهم كانوا في عذاب. البيت كله في عذاب بواكنت المرأة هي وحدها مصباح هذا البيت كما كان عمرها طويلا كانت تحترق لقرون تحترق لقرون.

ذهبوا يبحثون عن طبيب التخدير بينما كان في طريقه إليهم وفي النهاية وصل إليهم بينما كانت الحجرة تعج بالأصوات وقف على رأس المرأة بأخذ يقوم بعمله وهو يتحدث معها كان هو الرجل الوحيد داخل غرفة العمليات كان رجلا شعره بني اللون بولامحه ملتهبة من حرارة الشمس كانت المرأة لا تزال تحرق بالغرفة وبفجأة كان النار قد أضرمت فيها برفعت جسمها من منطقة الخصر وطرقت به السرير . وبوى في الحجرة صوت مربع نظرت الممرضات إليها بحيرة كانت المرأة تتحرك بشدة تحاول فك يديها كانت تحس أنها تنهار ، وتخرج كل ما بداخلها بكل ما يحويه ، لا ، لم تكن تريد أن تلتوث أمام كل هذه النظرات يقولون : «خلصوني ..خلصوني» وعلى صراخها.

كانت أمها قد وضعت لها غلايا مملوءا بزهر نبات الثور (١) وليتها كانت تشرب منه بل ليتها شربته كله . ولكن كان ينبغي أولا أن تجد المدرسة أدبت شفتيها من الماء وتحرك جانبي أنفها الملتهب . الماء لا يفضل بالنسبة لآلتك زهرة لسان الثور هو وحده علاج لآلك . فككت يديها وتناولت قليلا منه. أمها هي الأخرى كانت قد ولدت بزهرة لسان الثور . لم تهبط حراراتها . وبيكت : نس لا أستطيع ..ارتكوني أخرج..

نظرت الطبيبة إليها نظرة سريعة «لماذا تخرجين ..أنت داخل غرفة العمليات»

صرخت المرأة صرخة يائسة وقالت :«أليس يفرقة العمليات حوض غسيل».

وكان هذا دليلا على أن الطبيبة كانت قد عجزت فتهجمت لحظات في مكانها حائرة .لم تكن الرأس قد أطلت بعد. يالها من حادثة عجيبة وبفجأة أخذت تواصل عملها فلم تسمح

لها المرأة بالكشف كانت تصرخ وتضرب يديها، ورجليها.

أوقفها المرضات بصعوبة ، وسيطر الصمت على المكان كله الجميع كانوا ينتظرون وعيناها تحمقا في فم الطبيبة لم تكن تقاسيم الطبيبة توشى بشئ فكان حاجباها معقودين وعيناها بين الخوف والرجاء .. «أوقف يديك».

الطفل أت.. أحدثت المرضات ضجة كان طبيب التخدير ينتظر ماذا يفعل . أسرعت المرضات في فك يدي المرأة تبللت عينا طبيب التخدير بوجع كاد يبكي شوقاً . أشارت إليه الطبيبة بأن يخرج من غرفة العمليات وكان طوال هذه الفترة قد رأى وجه المرأة فقط. وكان جبينه قد تبلل بقطرات العرق التي تحيط بقطعة القماش التي ربط بها رأسه خرج من الغرفة وشددت المرضات الستارة الخضراء أمام عين المرأة ، وواصلت الطبيبة عملها قائلة: «تحرك بشدة .. اضغط على نفسك بكل قوتك ..» ولم يكن لدى المرأة حيلة أخرى . أحست أن شئ يسقط منها بوشى آخر يصعد إليها أحدهما يصعد، والآخر يهبط. قالت الطبيبة «لم يبق شئ».. تعرفين أى ليلة جميلة هذا الليلة إنها ليلة الثاني والعشرين من الشهر الحادي عشر». والمرأة قد أنهكتها الألم. تقلصت في نفسها وصرخت . وصرخت وصرخت صراخا دوى في الغرفة.

أما الطبيبة التي كانت مشتاقة كانت بين القلق، وعدمه .إنها كانت قد تعلمت أنه لا ينبغي أن تكون عجولة كان ينبغي عليها أن تصبر صبر أيوب كان ينبغي أن تسترخي على الأريكة في ركن من الأركان وترتشف رشفة من الشاي. انشغلت بكل حالات الولادة العجيبة التي تتم كذلك كل واحدة حادثة لا بد وأن تقع نعم فسوف تضع كل واحدة وليدأ وعلى كل حال فإن الأم سوف تتخلص مما تشعر به .. الطبيبة نفسها كانت أما كانت قد وضعت وكانت تعرف أن هذا سوف يحدث /كانت ذات يمين خفيفتين ، وهويتين ، وعينين جادتين ، وحكيمتين تذكرت كيف استطعت المرأة التي كانت تتحرك بشدة أن تنام على سرير في هذا المستشفى بمفردها وبدون أن يكون معها أى رجل جفقت جبين المرأة بطرف المصفاة من قطرات العرق الكبيرة كم كانت تتحرك بشدة، وكانت تظهر قوة في لحظة العجز يقول: «حسناً .حسناً جداً».

كان شعر الجنين يظهر شيئاً قشينا :«لا إله إلاه إنه لم يبق شئ»..خافت المرأة من هذا الخبر وقرزت من مكانها فجأة ،وتشبثت بملحفة الدم، وكان لديها وهم من الشخص الذي كان في الطريق كانت تريد اللجوء إلى مكان لا تخاف منه لأنها كانت تسير حتى تصبح أما، وتتحمل عبء شخص أخسر كم كان للأمومة طعم جميل هل كان كل هذا الألم من

أجل موجود آخر فجأة تناقلت المرأة. إنها كانت تتألم منذ عدة أيام، وحراراتها مرتفعة باستمرار ، ودائما كانت تبعد عن نفسها ،تعثّر على نفسها مرة أخرى كانت مقبلة على الوضع .كانت تريد أن تولد من جديد قبل أن تلد شخصا آخر. كانت الرغبة في النوم ،والألم الشديد في صراع شديد أقبل النوم وتوقف كل شيء ورجع الوليد .الخلف رجع للخلف بوتوى من الألم في ماء رحم أمه .صرخت الطبيبة في المرأة خوفا :«أى جمال للنوم الآن يا ابنتى استيقظى قلت استيقظ وضربتها ضربة قوية في وجهها بقفاها الملوث بالدماء ،فتناثر الدم حولها . أفادت المرأة ،فتفتقت الطبيبة الصعداء . الآن كان ينبغي أن تبدئين كل شيء من أوله ..أعرف أنك قد أرهقت ..إنه الأمر ثم نام.

بكت المرأة وضربت بقبضتها المنعقدتين أطراف السرير وبكت : «لا أستطيع ..لم أعد أستطيع .. فأضافوا حقنتين ضغط إلى زجاجة الجلوكوز الموصلة بيدها . صاحت الطبيبة فيها : لا يجدى أى شيء ،ينبغي عليك أن تساعدن نفسك».

صرخت المرأة .كان هناك شيء يزحف من داخلها في طريقه للخروج ،وكأن شخصا يرفع معها حملها ،يواصل سيره . تشبثت بيديها في طرفى السرير وأفرغت كل قوتها لكي تتخلص .ألم ..ألم ..ألم ..تمزقت عيناها من الألم ، وبرز في جبينها عرق أزرق. وكان يداً كانت قد أمسكت بقبضة رثتها . وأخذت تضغط عليها فتورم وجهها ،وانحرف فمها .كان الجنين قد أوشك على الخروج ،وكأن يدا كانت توجهه فادارته قليلا لدرجة قليلا لدرجة أن الجنين استطاع أن يسحب كتفه للخلف ،واستعد للخروج برأسه . وبينما كان يخرج كانت عظام جمجمته الرقيقة تتداخل في بعضها البعض . وحينئذ كانت تقوى ،وكانت الرأس تصبح أكثر صغرا ويمكنها الخروج بسهولة وبعد الخروج تعود العظام بسرعة فائقة في تخليص بعضها من جديد، وكأنها زهرة في لحظة تفتحها، ولا يرى أحد قط كيف تتفتح .وبعدها تعود الرأس كما كانت إلى حجمها المعتاد.

في النهاية خرجت الرأس. زاح إنسان عين المرأة تحت جفونها تماما . كانت كل عقد قد انفرطت، الواحدة تلو الأخرى ، إلا عقدة واحدة، عقدة عمياء ، العقدة التى لو انفرطت لأخذت معها الخيط الذى يربط حياة الإنسان بالدنيا .وهي تتألم لم تكن تعرف بعد .وكانت تعتقد أنها ستموت لا محالة .وكانت تتوسل بأى واحدة تمر من جانب سريرها :«خلصونى ،خلصونى» .كانت الطبيبة منشغلة في عملها ولم تكن ترمش بعينها .بينما كانت تمسك بالطفل .كانت إحدى الممرضات تجفف عرق جبينها ،ويقول :«أخيرا جئت .هل كانت لديك حيلة أخرى».



ضحكت الممرضة وقالت : « ياله من بك فى وزنه .. قتل أمه المسكينة لكى يأتى » .
تخلصت الأم المتعبة وتركت نيل قميصها المغزول الطويل الذى كان لا يزال بين
قبضتها وكان وجهها يتلألأ فى ماء قطرات العرق . أخذت نفساً من أعماق قلبها . كان طعم
زهرة لسان الثور الذى كانت أمها قد أعطتها إياه لا يزال فى فمها كان ينبغى أن تغسل
كل الدماء كما كان ينبغى أن تغتسل وأن تتطهر . ينتظف الأم التى كانت قد وضعت للتو .
قلبت الطبيبة الوليد وأخذت تربط سرتة . ثم اتجهت للممرضات وقالت : « صدقن إنه لم يمر
على طوال حياتى أى مولود يستغرق هذه الفترة ويكون عاقلاً أثناء وضعه ، ويعرف ما
ينبغى أن يفعل غير العاقل .. »

ثم تترك الوليد للممرضات وتعمد هى بيدها على بطن وتضفت عليها . فتحت المرأة
عينها وكانت لا تزال تعيش . وكان الجليد لا يزال يتساقط . كانت عين الطبيبة تبرىق وكانت
الممرضات يتحدثن معا بينما كن يجمعن البساط الذى أجريت فوقه العملية . وكانت
المصابيح الرضائية فوق رأسها مطفأة جميعا . وكان صوت بكاء الوليد يملأ الحجرة . الفتى
نحو الصوت . وعندما رأت الطفل ضحكت .. ضحكت من أعماق قلبها . ولكن لم يكن قد
مر من الوقت كثيرا حتى تنسى ألامها .

علاج الألم

كان صبرى قد نفذ ، ولم أكن أعرف ماذا بوسعى أن أفعل؟ . فمهما كنت أكرر لهم ،
وأقول لهم مالمكم ، وهذا النوع من الكتابة كما لم يكن يجدى ، أو يفيد وكنتى لم أكن
أعلمهن الإنشاء من الأصل ولم أكن أرغب فى أن يكتبوا شيئا عن الحرب ، وكانت لدى
الأسباب! .

ولم يكن يظهر واحد يقول لهم : ما هذا ! ما لكم ، وهذا النوع من موضوعات الإنشاء .
لم تكن نصائحى تجدى معهم . وياله من ألم على كل تلك الجهود التى بذلتها والعجيب
أنتى لم أعثر بين طيات الكتب على علاج لهذا الألم . ألم يكن الأمر متققا مع ما كنت أريده
بسبب تلك الأشياء التى كنت قد تعلمتها بين طيات الكتب؟ .

لم تكن الأمور على هذا النحو عندما بدأت عملى فى السنة الأولى حيث كنت أحدد
الموضوع عن فترة الصيف التى أمضيتموها .

أو لو أرتم تحدثوا عن أمانيك عندما تكبرون . فكانوا يذهبوا يكتبون أولا يكتبون ،
ويعرضون القضية بعدة أساليب . ويحصل كل واحد على الدرجة التى يستحقها . وبالطبع

كنت أقدم لهم ملحوظاتي ، وإلا لما أمكن أن تطلق كلمة إنشاء على ما كانوا يكتبون . فكانوا يكتبون أشياء لو أن حاجة مطبوخة سمعتها لطلبها الضحك . ولكن على كل حال إنني لم أكن أحب أن يخرج التلاميذ عن عالمهم .

ولكن عندما بدأت الحرب . لم يكن يوسعى اختيار موضوع الإنشاء ! وهذا لا يعنى أنني لا أستطيع تكليفهم بالموضوع الذى أفضله ومع ذلك قد توصلت إلى نتيجة مفادها أن يلزمى الإصرار على هذا الأمر مع أنه من الأفضل أن يتمسك التلاميذ برأيهم . وأن يكتبوا ما يحبون كتابته فكانوا يربطون كل موضوع بالحرب ، بالقصف ، وأمور من هذا القبيل كنت أقول لهم اذهبوا والعبوا بظرف الطلقات الفارغة التى جمعوها بالقنذلى تريون . ولا تقدموا لى هذا القدر من الموضوعات تلو الموضوعات عن الحرب فليس هذا الفصل هو مساحة الحرب . ولكن هل كان لهذا الكلام فائدة؟ إن كل ما كنت أذكره لهم لم يأخذوا واحد منهم قط مأخذ التأمل حتى توصلت لقرارى فى يوم من الأيام .

عندما دخلت الفصل فى ذلك اليوم ، ذهبت مباشرة نحو السبورة . وكتبت عنوان موضوع الإنشاء الذى أريده وهو : «صفوا المدرسة والفصل الذى تتعلمون فيه» ولكى أتأكد من أن التلاميذ سوف ينفثون كلامى هذه المرة ، صفيت صدرى ، وقلت : «هذا هو موضوع الإنشاء فى الأسبوع القادم .. ولا يحد لأحدكم أن يكتب شيئاً خلاف هذا الموضوع . وليكن فى معلومكم أن درجة هذا الموضوع سوف توضع فى أعمال الثالث الأول من السنة . على هذا أنصتوا جيداً لما أقول . وليكن فى معلومكم أنه من الضروري أن تكتبوا عن المدرسة والفصل ، وليس عن شئ آخر» .

وعندما أنهيت كلامى انتاب جسدى دفة عجب . تحركت نحو شرفة الفصل ، وتمنيت من قلبى أن لو كانت ملاحظاتي بتوجيهاتى مؤثرة .

وفى النهاية مرت الأيام وجاء اليوم الذى كنت أنتظره ، وبخات الفصل فى وقار ، وتؤده وقبل أى شئ فتحت النوافذ ، وعدت إلى وسط الفصل . ونظرت إلى عين كل واحد منهم بسرعة ثم بدأت : «حسناً يا أبنائى! عن أى شئ كان موضوع الإنشاء؟ وهذا لا يعنى أنى كنت أسأل لأتنبأ كنت قد نسيت كل شئ . ولكن كنت أذكر كل شئ ، وإنما كان ينبغى أن أتصرف معهم بهذا الشكل لكى أجدب انتباههم فمن الذى كان قد قال إننى لا أستطيع السيطرة على عدة تلاميذ؟ علت مهمة التلاميذ فى أرجاء الفصل فرفرف قلبى من السعادة لأن هذه المهمة كانت تدل على أنهم كانوا يفكرون فى الموضوع وعندما كان

ينبغي على أن أختار الشخص الذى كنت أعرف أنه أكثر جرأة لقراءة موضوع الإنشاء لم يكن الأمر يحتاج إلى مزيد من التفكير كنت قد عرفت قاسمى نجاد(٣) جيداً . كان من خرمشهر(٤) وكان يعيش مع أبيه وأمه فى مدينتنا «الأهواز» كان يستطيع التعبير عن مشاعره ، وأحاسيسه أكثر من غيره داخل الفصل وكان يقرأ موضوعه بالإحساس الذى تقر به أى موضوع كان! كأن كان قد عاد من الجبهة مؤخراً .

فكانت لديه القدرة عن الحديث عن الحرب بحرارة . حينئذ كان الدم يتدفق فى وجه الأسود اللون . ليس هذا ، وحسب ولكن يبدو لكل سئ طبيعى فتحت دفتر أسماء الفصل وناديت اسمه بين الأسماء الكثيرة .

-مرتضى قاسمى نجاد! .

-سمعت صوته فى ضوضاء التلاميذ يقول:

-حاضر .

تعجبت قليلا . وقلت بعصبية : «أنا لا أنادى الغياب بالحضور يا ابنى ! قف وتعال لنقرأ موضوعك» .

فخرج بجثته النحيفة من المقعد وجاء ناحيتى يحمل فى يده ورقات وعندما وصل إلى . وسوسمت إلى نفسى بأن أخذ منه الورق الذى فى يده . ألقى نظرة فاحصة عليه كم كنت مشتاقا للإطلاع على ما كتب غائبتابنى إحساس مجهول بالآطمئن إليه فنظرت نظره مفعمة بالياس فى عينيه الجاحظتين ، وقلت:

-ليس لديك دفتر للإنشاء .

-فأخنى رأسه قليلا وكان قد وقف متردداً ، وتحدث بصوت منخفض بوكائه عصفور صغير قد نصيب بنزلة برد:

-سامحنى .. سامحنى لأتنى .. ولكن سيدي..

-حسنا أبدا ..

بدأ فى قراءة موضوعه ، وهو متردد قليلا بعض الشيء قرأ موضوع الإنشاء ، ومكث قليلا . ثم واصل بعد ذلك : تتكون مدرستى التى أعلم فيها من عشرة فصول . أجمع أنا وزملائى فى واحد من هذه الفصول العشرة يوجد بفصلنا نافذتان . أنا وزملائى ٤٧ تلميذاً . عندما يدخل معلمنا الفصل يذهب نحو النافذة قبل كل شئ ..

كنت قد سعدت كثيرا ، وكنت أن أقرض شفتى من الشوق وحينئذ كانت قد وقعت

حادثة مروعة حيث سمع صوت مهيب وكأن السماء قد انطبقت على الأرض ! ولم تكن صرختي وصرخة تلاميذتي قد تجاوزت أنصاف حلاقيمنا حتى وقع السقف على رؤوسنا وجلسنا تحت أكوام من التراب ، والحجاز والخرسانة وفى هذه اللحظات بدا لى كل شئ على حقيقته فكل النظرات الحزينة التى كانت فى عيني قاسمى نجاد الجاحظتين صرخت من الوحشة . ويعد لحظات أحسست أن يدي قد قيدت ، وانعقدت مثل الإسدال النسائي . تحركت بشدة حتى أحرك جسدى . ولكنى عملت هذا العمل بلا جلوى لأول مرة . وكان الاختناق يواصل تأثيره . وشيئا فشيئا قد صبرى وقد كان مكتوباً : «ليتنى كنت أستطيع أن أذهب إلى الحرب مع أخى المقاتل رضا أن أجمع أطرف الطلقات الفارغة من حوارى الشوارع ، وأصنع منها إطاراً لصورة مستتيرة.

ونهيى لمعلمي فى مادة الأنشطة..

وقد أحدث تكرار هذه الجملة مرات ثورة فى ذهني كأن شخصا ما مجهولاً قد أضرم النار بداخلي بمشعل كنت أحس أنه لابد أن زصرخ ، وأخرج نفسي مرة واحدة من تحت الانقاض غزيرع التراب بيدي اليابستين . وأشرح الحرب لأعزائي واحدا واحدا حينئذ تمنيت لو أتى أنادى على قاسمى نجاد بولو لم يغمرنى إحساس بالوجل لقلت له على استحياء ، وخجل : «يا عزيزي : من الآن ، وصاعدا اكتب ما شئت عن الحرب ! ملأ دفترك بالخواطر.. إن العدو يخاف من خواطرك الخالدة فى دفتر ذهك .. اكتب يا قاسمى نجاد اكتبوا يا أطفال الفصل.

لقد ذهب رضا بالأمس إلى الجبهة .. واحترق دفتر مجيد اليوم تحت القذف .. وسيصل ظهر اليوم قطار مزبح بالمقاتلين . «لا أنه من المؤسف أنني أحسست بانتهاء حياتي فقد بدأ صراخ ، ونواح الأطفال يضعف ، وأصبح مبهماً ، ومختق بركان ذهني تقرضه قطعان من النمل السمج . إنهم كانوا أبنائي أبناء فصلى العزيز! تمنيت من الله أن لو أموت أنا ، وهم يعيشون . لا أعلن كم مر من تلك اللحظات المتأزمة حتى أفقت!

كان أهالى المدينة قد أخرجوني من تحت الانقاض وكانت نظراتهم تحكى وقائع حادثة مروعة قد وقعت . ألقيت بنظرة يائسة ، ومتعبة ، ومتلهفة حولى وكان أول شئ وقع عليه بصري . هو جثة قاسمى نجاد الفارقة فى التراب والدماء وكان قد أغلق عيني الجاحظتين فى هدوء وكان الدم يحيط بشفتي السفلى المملقة . وكان يحمله مدير المدرسة ، وأنا أتألم فجاء إلى ، وهو يبيكي ، وجعلنى أرى قاسمى نجاد حيث كانوا قد غطوه بقطعة القماش ..



نظرت أولاً إلى عينييه الحزبتين ثم أدخلت يدي من تحت الفطاء حتى أوصلتها إلى يديه، وكنت أتوقع أن تكون الورقة التي كان يصف فيها الفصل لا تزال في يده كي أخرجها بين يديه ، وألق نظرة باستحياء على موضوعه ثم أمزقها قريبا قريبا ، وأنا أتجرع الالام . ولكن كل ما علمته هو أن يديه لم تكن في كتفيه النحيلتين حتى إن قلبي كان يتحطم من الالام والحزن.

(١) الروضة هي أسلوب من أساليب الرثاء الخاص بالشيعة ، ولأن الشيعة يقرأون في مراسم العزاء كتابا يسمى بالروضة فإن العزاء قد أطلق عليه (قراءة الروضة).

(٢) تشير إلى السيدة مريم ابنة عمران التي قال القرآن عنها (فحملته فانتبذته مكانا قصيا فجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا أيئتنا مت قيل فذا وكنت نسبا متسياً).

(٣) عشب طيب الرائحة ومفيد تبه أوراقه لسان الثور في الشكل وهو يستخدم في علاج السعال.

(٤) اسم علم ويكتب بالفارسية «نزد» حيث تنظيف الزاي المثلثة كما يتنظف صوت الجيم المعشقة في العربية الفصحى.

(٥) اسم مدينة في إيران.

خمس قصائد لمى

وليد الخشاب

* * * * *

أحبك
وأنا بالمقي
منتظراً
أن ينشق الطريق السريع
من صحراء شعرية
وهودج يحملك
في سمائك وأثوابك الأذرية
بينما أنا أبتسم لك
في الصحراء المظلمة
بين صبارات المتفرجين
المتوحدين

* * * * *

الذي لما رآه
استدارت زوايا حجرته
كمحيط أجسام خرجت لتوها
من الشعر القديم
اختصر الحب
وأوج اللحم في اللحم
ليتبدل الومج تقزاً
ولتنتقم من كل الأحاسيس الجميلة

شعر بالبطاريات
يحملك البنات.

لو كانت قصائدك تجلب ابتسامتك
لكتب على النحاس والمكانس الكهربائية
والصابون ونتيجة الحائط وفواتير
النور.

* * * * *

ساركنز على أوراق النتيجة
وانزعها برفق
ورقة لكل يوم
تتوالى بسرعة
تصاحبها موسيقى متوترة
وتستدير الصورة حتى تنفلق
كسرة إله من الخزف.

* * * * *

لوجهك الجدارية المديترانية المتوسطة.
اعقصى شعرك بلك التوكة البلاستيكية
التي تشبه فكاً من تاوان
ليبدن جانبك الإفريقي
مثل قصائد الغرام الكلية
وحداثة البولي سانتيك
والخلايا الإلكترونية.

التي تشغل حيناً غير مستقل
في هذا العالم المكتوم.

الذي لما تذكره

تحدث كل زواياه

وتصلب أوسط لعمه

لأن كل شيء يذوي

حتى الجنس

أما صور الذاكرة

فخالدة مثل الطاقة

التي يمينها

كست الكلمات لعماً

بين خفة رمش وانسابة

مثل رية يابلية

بيسواها البرج

ويبينها لمن عشتار

إننا

أبحث

بالكلمات

ما حدثني به جلدني

لما مر طورك قائماً من ماض تصنعه

أحاسيس لم تسمها بعد.

شعب كامل من البلاستيك

هب وابتس.

حضارة بأسرها من الغول

تسبح بتحاميد مجذك

لو كان الشعر رجلاً لكان

أما الحب فهيهات

كيف تشطب تاريخ السينما المصرية

يرصاصة؟

لذلك وغيره

بشعوى البلاستيكية

وحضاراتي

وتواريخي الوهمية

بجوانحي وملابس وأعواد القباب في

لحياتي

ومصاصات الأولاد والبلاستر وماريا

كلاس

أحلف

بعمريتي

أنني أحبك.

أنت الوطن الوحيد الممكن لخلق على

أكتب لك الولاء والتاريخ

وأقرأ كتبك التي تصقل أخلاقي بالشمع

اللون

كلنا أحاديث الآلهة

أخون بلادي وجيشي

ولا أتلخر عن مومنا

في حفل السادسة

لاقتحي الشباك

بين الزايفة والسابعة

لأن طلبة الكلية العربية

قد نصبوا خيامهم البرتقالية



يا اسكندرية بحوك عجائب

- معنى هذه المدينة : مجدى توفيق
- المكتبة الأمس وغداً : فتحى سيد فرج
- أسطورة الأخوين وانلى : عصمت داوستاشى
- سيف وانلى يرسم حياة فان جوخ : ع . د
- اسكندرية نجيب محفوظ : عبد الله هاشم
- اسكندرية : أحمد فؤاد نجم
- فى وضع النهار : قصة لقسطنطين كفافى
- الاسكندراني الثالث : محمد الباز



معنى هذه المدينة

سجدي احمد توفيق

ياه .. سنوات بعيدة مضت في يسر غريب منذ ذهبت مع والدي وابنة أختي ، في السبعينيات ، في رحلة صيفية إلى الإسكندرية . يومها كانت الإسكندرية عندي مصيفاً أسمع عنه ولم أره بعد . كانت في ذهني عالماً غامضاً من السحر . كنت قد اعتدت أن اصطاف مع أبي سنوات متتاليات في الإسماعيلية حيث كان أخي الأكبر يعمل في مطار عسكري . ولكن الإسكندرية كانت تبدو لي عالماً مختلفاً ، لأنها المكان الذي أجمع الناس على وصفه بالمصيف . ما أروع الشاطئ العريض حين يكون قليل الازدحام ، لم يسرق النحر شيئاً من بساطته ، والفته ، ورقيه . وما أروع الأمواج اللامية حين تخلو من لسعات قنابيل البحر !

لا أعرف كيف استجبنا لصديق والدي حين جرتنا جرأاً إلى أن ندخل كازينو مفتوحاً . أدهشني أن أجد نفسي في كباريه لايكاد يختلف في شيء عن الكباريهات التي كنت أراها في الأفلام العربية يسكر فيها البطل الحزين حين تعرض عنه حبيبته ، ويدبر فيه استيفان روستي ، أو توفيق الدقن ، أو محمود المليجي ، المكائد لأنور وجدي ، أو فريد شوقي ، أو رشدي أباطة . ولكن الكازينو كان مفتوحاً للسابلة لأن ليلة كانت مخصصة لفرح سكندري جميل ، فيه من يرقص بثياب الصيادين واضعاً الكرسي على أنفه ، وفيه راقصة سمينة ، ومطرب مجهول . كائن دخلت فيلماً.

هؤلاء العمال البسطاء الذين ضمتهم الرحلة من المصنع الذي كان أبي يعمل به كانوا يبديون سعداء كالمليونيرات الذين ينفقون عن سعة . كان المصيف بسيطاً يتسع للناس جميعاً قبل أن يصبح عبئاً على أي

أسرة محدودة الدخل تنوء بحمل مصاريف المدارس ، قبل أن تقع فى أيدي فرق ممن يطعون جيوب المصطفين ، يثجرون لهم شماسى ومقاعد ، أو يعنون شايأ أو قهوة أو شيشة أو بيعون ثياباً سيّفة خفيفة - تهلك عادة قبل نهاية الصيف - فى مباريات من المسومات الضيقة لاتخلو أحياناً من معة ، يسمعون فيها إلى إيهام الضحية بأنه بطل متمرد لايشق له غير.

لم يكن بينى وبين الإسكندرية وسيط حتى قرأت إسكندرية نجيب محفوظ فى " ميرامار " و " الشحاذ " هى مدينة أخرى . ليست المصيف الذى أراده إحصان عبد القنوس فى " البنات والصيف " . وسرعان ماتكاثر على الوسطاء . وسرعان ماتلشى المصيف . تلشى لأنه تغير ولم يعد كما كان . وتلشى لأنه لم يعد يهمنى . وتلشى لأن الإسكندرية الأخرى قد بدأت تبرز لى من ثانيا قمص محمد حافظ رجب . إسكندرية من شوارع مزخمة بالباعة الجائلين ، والحوية الرائحة ، والآلام المكثومة . وسرعان مامنحى إيدوار الخراط إسكندرية عبر توصيه . وقرات طويلاً عن ربيعة داريل ، وشعر كفافى ، قبل أن تحيط بى سلسلة طويلة من الوسطاء الذين يتحفظون حول الاسكندرية : عبد الفتاح رزق ، محمد جبريل ، سعيد سالم ، مصطفى نصر ، أحمد حميدة ، عبد الفتاح مرسى ، إبراهيم عبد الجيد ، شريف حتاتة ، خالد السروجى ، وآخرين لا أحصيهم . ولم يكن الوسطاء أدياء فحسب فلقد أصمر أسامة أنور عكاشة أن يكون من الوسطاء . وأصر يهسف شاهين على أن يمدنى بإسكندرية ، وتدخلت صور من الدراما التلفزيونية والسينمائية بصور من شارع غريال ، والتبى دانيال ، والمكس ، والمنشئة ، من صعايدة وموظفين وصيادين ، من حياة متنوعة مثيرة لأحد فيها ينام كما يقول إبراهيم عبد الجيد . وانزوى فى ركن بعيد من الوعى صورة الإسكندرية التى رسمها أستاذ للتاريخ يتحدث بحماسة رائحة ، عن مدينة كالقلمة يكيد لها مالمى ، ويكها الأسطول الإنجليزى بعنف ، ويوقف خلف أسوارها أحمد عرابى ومحمد كريم مناضلين.

سنوات طويلة تربو على عقد من الزمان استسلمت فيها الوسطاء . لم يقطعوا إلا شاب سكندري شاركتا خيمة واحدة ، فى معسكر ، فى مكان قريب من القنطرة غرب ، لأيام قليلة ، قبل أن تنزله منا " واسطة جامدة " . كان خفيف اللم فيه فلوله ، وثأكة حلوة . لا أنساه فى لحظة شجن يعرفها الجنود جيداً ، ظل يصف لنا بطريق الكورنيش ، وهو يمشى مع فتاة حلوة كالقمر ، ويصص سماعة تسع الدنيا كلها ، ملائكتا شجناً ، حتى قطع سرده بنكته فجرت ضحكائنا للأسف ، لا أستطيع روايتها الآن .

سنوات من الوسطاء جعلت الاسكندرية عندي حبيبة مشوقة أحبها عن بعد ولا أراها أبداً .
أخيراً قرر الأديب الروائى - والفنان التشكلى - الأستاذ أمين ريان أن تسافر معاً إلى الاسكندرية - كنا نريد أن نقرأ شيئاً - لعله كتاب لهدجر فيما أنكر - وكنا أيامها معانين على أن نقرأ معاً كتباً مختارة ، ونخرط فى مناقشات طويلة لها ، فقرة فقرة . ومعلمنا بدأت بينسين ميرامار ، نزلنا فى بيسيون قرب محطة مصر ، وكان الكورنيش ومقاهيه مجالسنا للقراءة . لم نسمع طبعاً للتجول فى أحياء الإمكانية . ولم تلق أحداً .

من أنبيائها ، وظللنا مستقرين في عملنا الجاد ، ولكن سحر المدينة كان يملأنا . كانت الإسكندرية تجديداً للروح ، وتحوراً من القاهرة .

مع النصف الثاني من التسعينيات بدأت أزهر الإسكندرية من خلال المؤتمرات والندوات . بدأت أزورها مباشرة بغير وسطاء . ولكن أزورها لأجلهم . أعني أني أزورها لمناقشة قصاصي الإسكندرية . وعرفت قصر التتوق في ميدى جابر ، والكتايبة بشبابه الرائعين ، يشرف عليهم الدكتور رفيق باخلاص وأبوة وشجاعة . وعرفت أخيراً قصر الإبداع بيناته الفخم ، وبتلك القاعة الصغيرة المدمشة التي تعرض رسوماً لأعمال معمارية – أو لأحلام معمارية – لشباب يطعمون بأن تكون الإسكندرية ، في كل ركن من أركانها ، جنة للإبداع والفننة . وعرفت في الأمانة المختلفة لحيالاً متنوعة من الكتاب المجيدين يستخدمون أشكالاً متنوعة من الكتابة المقعمة بالحوية والصدق .

وأصبح لى في الإسكندرية صحبة كبيرة من الأصفياء الأعزاء ، منهم القاص السيد نجم الذى شاركنى بداياتي ، والذى يقيم بالإسكندرية منذ سنوات لدواعى العمل بها – وها أنا ذا في آخر زيارة لى لمدينة أمشى مع الناقد العزيز شوقي بدر ، ويشير لى لأحمد أبو العلا – الصديق العزيز الذى رافقتى الرحلة – إلى البيت الذى جرت فيه أحداث ميرامار لنجيب محفوظ ، فتلتقى في لحظة خاطفة البدايات البعيدة مع الحاضر الحى . ومضيت في جولتي إلى كرم الكهنة تتشمس عطر التاريخ الذى عاشه سيد درويش ليلتقى صور التاريخ مع الحاضر ، كما التقت معه صور الألب .

من نافذة في الدور السابع لفتت من فناديق الكورنيش ، رأيت البحر العريض المهول بغير شاطئ واحد . يمكن أن أحقق في رماله . وتذكرت الشواطئ الواسعة البديعة لمرسى مطروح ، حيث اعتدت أن أقيم كل صيف . وأدركت أن الإسكندرية المصيف لم يعد لها وجود في معنى ، أو في عيني . وتدمرت اليوم الذى قضيته منذ ستة مع السيد نجم في زيارتي لناشر كتبي الذى اخترته سكندرياً كذلك .

في هذا اليوم من أيام الصيف لم أفكر لحظة واحدة في أن أرى شاطئاً ، أو مصطافين . ولم أشعر للحظة واحدة أنني في المصيف الشهير الذى يشكو أهله من ازحامه صيفاً ومن غريبتهم فيه أثناء الشهور الحارة – وفي اليوم التالى ركبت الأتوبيس متجهاً إلى مرسى مطروح – لقد أصبح المصيف آخر شئ يمكن أن يخطر على بالي حين تذكر كلمة الإسكندرية ، مع أني قد عرفت المدينة بداية بوصفها مصيفاً .

لقد أصبح اسم الإسكندرية هدى – وقيل أن تكتمل مكتبة الإسكندرية الحديثة – قرين كلمة لإبداع ، لا لآنى فحسب أزورها لأقرأ نصوص أدبياتها ، وإنما لآنى قد رأيت المدينة في العهد الطويل الذى تولى فيها منصب المحافظ الجوسقى ، ورأيتها ، بانتظام ، في العهد الحالى الذى يترأس فيه المحافظة اللواء عبد السلام محجوب . ورأيت خلال هذا كله المدينة تتحول في جد ومثابرة إلى مدينة للإبداع الجميل ، يمكن أن تصير في سنوات قليلة متحفاً مقترحاً ضمناً لآياتى أحد على آخره .



شمس المدينة ، هواؤها ، بحرهما ، إبداعات الطبيعة فيها ، قبل أن يبدع أنبياؤها نصوبهم ، وقبل أن يبدع أهلها وإداريوها الظواهر المستحدثة في شوارعها وميادينها.

كانت رسالتي للكتوراه تدرس جماعة الديوان : عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، وعبد الرحمن شكري . وكان شكري بعد أزمته مع المازني قد اعتزل الحياة الأدبية ، ولكن الإسكندرية ردت إليه حيوية الألب والإبداع ، ففيها وجد مجتمعاً أنبيأ مختلفاً ، وصارت له ندوة أنبية مثمرة في حديقة الشلالات . ولاتزال حديقة الشلالات لانتاسب هذا المعنى الجديد الذي أثق أن شكراً . قد أحس به إحماساً قوياً ، أعنى إمكان أن تبده الحياة من جديد ، وهو معنى الإسكندرية عندي . وأرجو أن توفق الإسكندرية إلى أن تبده حديقة الشلالات إبداعاً يناسب هذا المعنى العميق الذي أراه في صفحة مهمة من صفحات تاريخنا الأدبي ، ومن حياة شاعر كبير عصف به الخلاف الجارح ، فلصاحب نفسه المزهفة الرقيقة ، حتى احتضنته مدينة الجمال والإبداع . ويبدو أنني قد أدركت أن أؤكد لنفسى هذا المعنى لمدينة الإسكندرية عندي حين قررت أن يضم كتابي الأخير : " الألب والحياة " - الذى صدر بالإسكندرية منذ شهرين - فصلين عن قصاصتين سكندريتين . أدركت أن أؤكد أن الإسكندرية تعنى عندي أننا نستطيع أن تبده حياتنا من جديد على نحو أفضل.



المكتبة الأمس وغداً

فتحى سيد فرج

الاسكندرية ، تلك المدينة العريقة التى تنبض بالتاريخ ، مدينة الأحلام والأساطير ، إنها حقا كما يقول
 فورستر المدينة غير المدفونة لأنه لاسبيل إلى نسيان الماضى ونحن فيها وكما يسميها داريل عاصمة
 الذكريات، ظلت عاصمة للنولة البطلمية المستقلة فى مصر على مدى ثلاثمائة سنة كانت خلالها قاعدة
 للحضارة الهلينية والمركز الثقافى لعالم البحر المتوسط المزدهر حضاريا حيث حفظت التراث المعرفى
 السابق على وجودها ووسعت من نطاق هذه المعرفة إلى درجة لم يعرفها العالم القديم، وبلغت أوج عظمتها
 فى المائة سنة الأولى من تاريخها ، أمر بتشييدها الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م وعمل على تنفيذها
 ملوك البطالمة الثلاثة الأوائل: بطليموس الأول(الذى حكم من ٣٠٤ إلى ٢٨٢ ق.م) وبطليموس الثانى
 فلادفوس (الذى حكم من ٢٨٢ إلى ٢٤٦ ق.م) وبطليموس الثالث يورجيتيس (الذى حكم من ٢٤٦ إلى
 ٢٢١ ق.م) كانت أكبر مدينة عرفها العالم بعد قرن من تأسيسها ،تحفة معمارية بشوارعها المبلطة
 وميادينها المخططة ومبانيها الحجرية الجميلة التى مثلت القصور نحو ثلثها ،كان بها استاد ضخم
 ومسرح مدرج وحدائق عامة ومسلمان وبوابات فخمة ومعابد مهيبه ومتحف عظيم وحلبة للسباق ، تزدان
 بمعانها العظيمة ، المنارة ، ودار الحكمة ، والقصور الملكية ، والتى يشع الضوء الناصع منها حيث
 يكسوها المرمر الأبيض.

المنارة أعظم إنجاز علمى للعقل السكندرى والتى كانت انتاجاً واحداً للدراسات الرياضية التى كانت

تجرى فى الموسيكون ، والتي اعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع ، ومصدر إشعاع ينشر الثور والضياء فى ظلمات البمار يهتدى به الملاحون على متن السفن ويرشدنهم إلى بر الأمان . ودار الحكمة التى كانت المركز العلمى والثقافى الذى ترك أثرا لا يمحى على الفكر الإنسانى ، كانت أيضا مصدر إشعاع لنور العلم الذى ساهم فى تقدم الإنسانية.

فى هذه المدينة ازدهرت الحياة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، فيها تم أول ترجمة للمعهد القديم إلى اليونانية ، وفيها تم تجميع أدق نسخ الأدب الكلاسيكى كما تم جمع المعلومات التى كانت أساسا لواحدة من أقدم الخرائط فى العالم ، فيها تم وضع الهندسة على شكل نظريات ومنها خرج أول افتراض بأن الأرض تدور حول الشمس كما توصل باحثوها إلى معرفة بقيقة بتشريع الدماغ والقلب والعين وكما يقول د. عادل أبو زهرة كان من أهم أسباب هذا الازدهار تنوع تركيبها السكانية ، وترجع أصول هذه التركيبية إلى ما يزيد على عشر قوميات مختلفة، عملوا بجهد وتتافسروا وتعاونوا من أجل حياة أفضل وأسعد ومن خلال إدارة جادة وحازمة وبقيقة لموارد المدينة وشئونها ، إدارة كان لديها خيال وإيمان بدون تمييز أو تعصب لأى قومية من هذه القوميات.

خلال هذه الفترة التى يعتبرها الكثيرون من أعظم فترات الحضارة ، اكتشف علماء الإسكندرية طبيعة الكون وتوصلوا إلى فهم الكثير من أسرار القوى الطبيعية ، وتقدمت المعرفة فى مجالات الجغرافيا والفلك والطب والرياضيات والهندسة ، ولأنه لمن القريب أن تتزلق الإنسانية مرة ثانية إلى عالم الأساطير والخرافات يعد أن يكون العلم قد حاز هذه الانتصارات.

المكتبة القديمة

هناك آراء متعددة حول مكتبة الاسكندرية القديمة- من الذى أنشأها وأين موقعها وإلى أى حضارة تنتمى؟ فبينما يعتبر أساتذة الدراسات الكلاسيكية وعلى رأسهم د. مصطفى العبانى أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة الاسكندرية ود. أحمد عثمان أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة القاهرة وأن القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد عندما حكمت مصر أسرة الملوك البطلمة وآخرهم كليوباترا ، تمثل عصرا يونانيا كما يذهبون إلى أن بطليموس الأول هو الذى أنشأ المكتبة بالتحف (الموسيكون) داخل قصره بالحق الملكى ، وأنه أوكل إلى ديمتريوس الفاليري الإشراف على إنشاء المكتبة التى أقامها على أساس من المراجع اليونانية عندما أحضر مكتبة أرسطو أثينا ، وهو الذى تولى مشروع ترجمة كتب التوراة من العبرية إلى اليونانية . ولكن هناك من يخالف هؤلاء الرأى فليحسد عثمان الباحث فى التاريخ المصرى القديم يؤكد أن الذى أنشأ المكتبة بطليموس الثانى داخل معبد (السيرابيوم) بحى راقودة المصرى عند عمود السورى والذى عهد إلى الكاهن المصرى مانيتون مهمة إعداد المكتبة ، والذى قام اعتمادا على المصادر التى وجدها فى مكتبات معابد عين شمس ومنف بعمل نسخة من الكتب المصرية مترجمة إلى اليونانية كما قدم مانيتون ثلاثة مراجع رئيسية للمكتبة :الأول يتضمن ملخصا للتاريخ المصرى القديم

حتى بداية حكم البطلمة ، والثاني يتضمن الكتابات المقدسة والشروحات الفلسفية والفقهية لها ، أما المرجع الثالث فيختص بقوانين العلوم الفيزيائية ، وأشرف ذلك على جمع وترجمة كتب التوراة إلى جانب جمع أشعار اليونان وتراثهم العلمي والمعارف الخاصة بالحضارات الشرقية من بابل وفارس وسورية ، ويرى أحمد عثمان أن الملوك البطلمة لم يكونوا حكاما أجنبيا يحكمون مصر لصالح بلادهم ، بل كانوا حكاما مصريين من أصل مقبوضي ، تماما كما كانت أسرة محمد علي في مصر من أصل ألباني يوهو يؤكد كل ذلك بعيد من الأدلة التاريخية والوثائق الأثرية ويعتبر أن هذا الخلاف ليس مجرد خلاف أكاديمي بل له دلالات مهمة في التعرف على أصل الحضارة الفريرية الحديثة فلو صح أن مكتبة الاسكندرية كانت جزءا من المتحف فإن هذا يعني أنها كانت تمثل الحضارة الهيلينية اليونانية، بينما لو ثبت قيامها في السيرايوم فهذا يعني أنها تمثل حضارة مصر القديمة والحضارة الشرقية بشكل عام.

أما د. لطفي عبد الوهاب أستاذ الحضارة بجامعة الإسكندرية فله رأى خاص حيث يرى أن مكتبة الاسكندرية القديمة قد استمدت اسمها وعظمتها من كونها كانت تجسيدا لحضارتين عظيمتين هما الحضارة المصرية الفرعونية والحضارة اليونانية الاغريقية ، وأنه حين تم تأسيسها حوالي ٢٨٠ ق.م في عهد بطليموس الثاني كانت تجسد ثلاثة ملامح رئيسية ، أول هذه الملامح أنها كانت مكتبة عامة سواء من حيث إن الدولة هي التي كانت تتولى أمورها فيما يختص النفقات والإدارة والرعاية، أو من حيث إنها كانت تزود خدمة عامة يتتبع بها أعداد من القراء والباحثين بصفتهم العلمية فحسب ، وليس بصفتهم الشخصية كقراء بولمخ العمومية لم يكن معروفا في التراث اليوناني ولكن المكتبة اكتسبته من التراث الحضاري المصري، فقد كانت المكتبات أو دور الكتب «برومدجات» حسب التعبير المصري القديم أما تابعة لمراكز البحوث أو دور الحياة وهي مراكز تابعة للدولة أو كانت ملحقة بالمعابد ، وهي مؤسسات عامة تتبع الدولة بذلك أو كانت قائمة بذاتها في بعض الأحيان ، ولكن تتبع الدولة وهو أمر يظهر بوضوح من إدارة هذه المكتبات التي كانت تضم مفتشين ومفتشى أختام ومديرى إدارة . ومن أشهر المكتبات المصرية ، مكتبة ادفو وفيله ومنف ونثرة أما للملح الثاني فهو أن مكتبة الاسكندرية القديمة حاولت بقدر المستطاع أن تغطي أفرع التخصص العلمي والفكرى المعروفة آنذاك وفي هذا الصدد نجد أنها قد استقالت من التراثين المصري واليوناني على السواء والملح الثالث كان يتمثل في الدور الحضارى الذى قامت به المكتبة وتهيئة الجو المناسب الذى يتجاوز مجرد النشر العلمى أو حتى اللقاء الثقافى إلى أفق أوسع وهو ما يمكن أن نسميه بالحوار الثقافى أو الحوار الحضارى . وبذلك فإنها كانت تمثل مركزا ثقافيا عالميا استوعبت النتائج العلمية والفكرية لمختلف حضارات العالم القديم وبالأخص حضارات حوض البحر المتوسط ، لم تكن مجرد خزانة لحفظ الكتب بل كانت تمثل أكاديمية علمية واعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع.

ورغم اختلاف الآراء حول نشأتها ومكانها وانتمائها الحضارى فإن هناك شبه إجماع على أنها كانت

تتكون من ٤ منشآت تحتل ربع مساحة الاسكندرية وهذه المنشآت هي:

* سما : مقبرة كانت تعد لدفن الاسكندر الأكبر.

* السرايوم: وهو معبد فرعونى للآلهة أوزيريس المصرية والإله هابى اليونانى والذين اشتق من اسميهما اسم الإله أوزيريس الذى حور إلى السرايس . وكانت تكتب لوحات تجميعية باللغتين المصرية واليونانية كما وضعت أمامه مسلتان وتمثالان لأيو الهول كان يوجد بالى المصرى ، ويؤكد البعض أن المكتبة كانت بداخله وهناك من الآلهة الأثرية على ذلك.

* المكتبة : والتي ضمت نقائس الكتب ويكنوز المعرفة وخازن التراث للحضارات القديمة وكان يصل عدد المترددين عليها يوميا حوالى ٤٠٠ متردد ، وقد دعم ملوك البطلة لاسيما بطليموس الثانى هذه المكتبة بكل طاقاتهم حتى وصل عدد المجلدات بها إلى أكثر من ٤٠٠ ألف مجلد وحوالى مليون لغة بردى، وكان يطلق على جانب هذه الخزائن كتب السفن لأنها نسخت عن الكتب الموجودة على السفن التى كانت تصل إلى الإسكندرية.

هذا وقد أحدث ظهور مكتبة الإسكندرية ثورة علمية فى تاريخ البشرية ، وطفرة نوعية فى المعرفة الإنسانية بصفة عامة بحيث إنها المرة الأولى التى تجمعت فيها مصادر تراث الحضارات القديمة كلها فى مكان واحد وبلغت واحدة فبينما كان نظام التعليم فى السابق متوقفا على عدد قليل من القادرين على قضاء سنين طويلة فى التعرف على الغاز المعارف بعلامات مختلفة والمختفية داخل رموز لا يعرفها الا المؤهلون، جاءت الأبجدية اليونانية لتسهل للإنسان العادى تعلم القراءة والكتابة ، وهكذا صار فى وسع الطالب الاطلاع على معارف المصريين والبابليين والفرس واليونان، وجاء الدارسون من جميع أنحاء العالم القديم، من الهند وفارس وبابل وسورية وفينيقييا وبلاد الانباط وايبييا واليونان وآسيا الصغرى ، فتعاون العقل البشرى فى تكوين رؤية حضارية جديدة ، وبدلا من الاكتفاء بتلقى المعلومات عن الأساتذة ، أصبح فى وسع الدارس اللجوء إلى المراجع المختلفة فى كل مجالات العلوم، مما نتج عنه بداية البحث الذى يتطلب رجوع الباحث إلى النظريات المختلفة فى الموضوع الذى يبحث فيه ، ويصبح عليه التوصل إلى استنتاجه الخاص. وكان هذا بداية لظهور نظام التعليم الجامعى فى العالم كله ، فكان الباحثون يلتقون حول الأساتذة يناقشونهم ثم ينقضون عنهم للبحث، كل منهم يحاول إثبات نظرية عن طريق تجميع المعلومات من الخطوط الموجودة بالمكتبة والاستدلال بها لإثبات قضيته . وهكذا مراكز الفكر والمعرفة تجذب العلم والعلماء.

* الموسييون : والذى يعتبره البعض أهم أجزاء المكتبة، وهناك من يرى أن المكتبة كانت جزءا ملحقا به حيث إنه كان يتكون من معبد لتسع من الآلهات الأغريق ، تنسب إليهن كل أنواع الفنون والاداب والعلوم والفنون. فى هذا الجو ازدهرت عبقریات مئات من العلماء الذين وضعوا أسس علوم الرياضيات والفلك والطب والهندسة منهم:

أقليدس: (٣٣٠-٢٧٥ ق.م) عالم الرياضيات الذي يعتبره البعض الأب الحقيقي لعلم الهندسة والذي توصل بالمنطق اعتمادا على بديهيات ومسلّمات رياضية إلى وضع ٤٦٧ نظرية في هندسة المسطوح المستوية والهندسة الفراغية ، وضع كتاب العناصر الذي كان له أكبر تأثير على تقدم العلوم وهناك إجماع على أن التأثير الذي أحدثه في الفكر العلمي أعظم من تأثير أي كتاب آخر، وقد ظل يدرس في أنحاء العالم باعتباره أساسا للنظريات الهندسية إلى وقت قريب.

ارشميدس: (٢٨٧-٢١٢ ق.م) تلميذ اقليدس الذي وضع أسس التكامل الرياضي ، اكتشف قوانين علمية وتوصل إلى ابتكارات واختراعات كثيرة ، مثل قانون الروافع وعلى أثر ذلك اخترع الطنبور الذي ما زال يستخدم حتى اليوم ، وقانون السوائل الساكنة وهو الذي يفسر عملية طفو الأجسام كما أضاف للعلوم الرياضية علامات أساسية ، والذي يعتبر أحد أعظم ثلاثة علماء للرياضيات إلى جانب نيوتن وجاوس.

هيراكليس: (٣١٠-٢٣٠ ق.م) الذي أثبت أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس كما كان معروفا وقتذاك.

أريستاركوس: (٣١٠-٢٣٠ ق.م) الذي أثبت أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس كما كان معروفا وقتذاك.

أيراتوستثيس: (٢٧٥-١٩٥ ق.م) الذي أعلن منذ ٢٢٠ سنة كروية الأرض وهو الذي تولى إدارة مكتبة الإسكندرية واكتسب خبره عظيمة في هذا المجال ساعدته على وضع أسس علم المكتبات كما كتب أو كتب في التاريخ يخلو من الخرافات ، وذلك عن تاريخ اليونان منذ حروب طروادة وحتى الاسكندر الأكبر ، وهو صاحب أكثر إنجازات الاسكندرية العلمية اثارة إن لم تكن أهمها وهو تقديره لمحيط الكرة الأرضية. وقد استطاع أن يتوصل في العملية الحسابية التي قام بها في مرصد دار الحكمة إلى رقم لا يختلف عن الرقم الذي توصل إليه العلم الحديث بأكثر من خمسين ميلا ، إنها معجزة علمية خارقة لعقل رياضي جبار.

نيونسيوس: (٦٨-٧ ق.م) أبو اللغويات الذي حلل الكلام إلى مكوناته.

هيبارخوس: كان واحدا من أعظم علماء الفلك والرياضيات ، وضع أسس علم حساب المقننات كان يعمل في روس بجبر أيجه حيث بني مرصدا وأجرى أبحاثا شاقة مستخدما أفضل ما أنتج العصر من أدوات وقيل إنه أول من حدد موقعا على سطح الأرض معنّخما لفظ خطوط الطول والعرض ، وأول من لاحظ ظاهرة تسابق فصول الامتدال ، ثم وضع كتيبا جديدا للنجوم يضم ما يقرب من ١٠٨٠ نجم موزعة على أبراج ، وصنف هذه النجوم إلى مجموعات حسب درجة لمعان كل منها وهو نظام لا يزال متبعاً حتى الآن مع بعض التعديل . بعد هيبارخوس بعدد من القرون جاء كلوديوس بطليموس في القرن الثاني الميلادي ليترك هيبارخوس كالتوجهات ونظريات ، ويستعين بها في عمل كتاب سماه التكوين

العظيم» كان بطليموس يعلم تلاميذه بأن الأرض كرة مثبتة في مركز السماء بطريقة تحفظ توازنها وحولها تدور الشمس والقمر والنجوم في دوائر ، وقد ظلت نظريات بطليموس مسيطرة على تفكير الناس حتى جاء كوبرنيكوس في القرن السادس عشر ، ولا يقوتنا أن نشير إلى أشهر عالم في الطب وهو جالينوس الذي كتب خمسة عشر كتاباً في التشريح تشكل أهم ما تبقى من الطب القديم ، خصوصاً في تشريح الأوردة والشرايين والأعصاب . وكان كتابه المسمى «فن الطب هو اللبيل العلاجي لعصره» والقائمة طويلة من العلماء والمفكرين والأدباء والفنانيين الذين أنجبتهم هذه المكتبة.

وباختفاء مكتبة الاسكندرية القديمة تعرضت الحضارة الإنسانية لنوع من الانقطاع المعرفي ، لقد فقد التاريخ ذاكرته ، وكان لابد من جهد كبير لإعادة ذاكرة التاريخ.

المكتبة الجديدة

المكتبة الجديدة صرح حضارى صمعه مهندسون نرويجيون بعد أن فاز تصميمهم في مسابقة دولية ليعيد أحياء مكتبتها القديمة «فعلى شاطئ البحر المتوسط وبعد غروب دام قرابة ٢١ قرناً من الزمان ، عادت مكتبة الإسكندرية لتسطع بنورها من جديد ، وهكذا يمكن لمدينة الإسكندرية أن تستعيد نورها الحضارى والتنويرى في العالم ، ولول من فكر أحياء مكتبة الإسكندرية د. مصطفى العبادى أستاذ الدراسات اليونانية والرومانية بجامعة الإسكندرية وأبرز من كتب عن المكتبة القديمة ، تولدت الفكرة في أروقة جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٤ أى بعد انتصارات أكتوبر عام ٧٣ ، وقامت الحكومة المصرية بالتعاون مع منظمة اليونسكو بوضع مشروع إحياء المكتبة أمام العالم ومن ثم تم تشكيل لجنة تحضيرية من كبار رجال الفكر لدراسة المشروع. وفي عام ١٩٨٨ تم وضع حجر الأساس ، وفي فبراير ١٩٩٠ عقد اجتماع اسوان تحت رعاية السيدة سوزان مبارك والذي يعتبر إعلاناً رسمياً عن بدء التنفيذ . وتضم المكتبة الجديدة ٣ مباني رئيسية هي:

المبنى الأول: قاعة المؤتمرات الذي أهلتها جامعة الاسكندرية للمكتبة ويتكون من قاعة رئيسية تسع ١٧٠٠ شخص وقاعة متوسطة تسع ٤٠٠ شخص بالإضافة إلى قاعتين صغيرتين تسع الواحدة ٢٠٠ شخص ومركز صحفى ، وهذه القاعة معدة للمؤتمرات وبها جميع التجهيزات الصوتية والضيوية والترجمة الفورية ، وقد تم تحديث وتطوير أجهزتها لتلائم التصميم المتكامل لمكتبة الإسكندرية الجديدة.

المبنى الثانى: القبة السماوية ، مبنى على شكل كرة قطرها ١٨ م، مخصصة لعرض أفلام عن الأجرام السماوية والتطورات الحديثة في العلوم، بها شاشة مزودة بأجهزة سمعية وبصرية تعطى المشاهد انطباعاً وإحساساً بأنه يسبح في الفضاء ، وبها مدرج يسع ١٠٠ مشاهد.

المبنى الثالث: وهو للمبنى الرئيسى والذي بنى على شكل دائرة غير مكتملة ومائلة في مواجهة البحر على هيئة قرص الشمس الناقص دليلاً على أن المعرفة الإنسانية مفتوحة ولا تكتمل أبداً ، يحيط به جدار من الجرانيت الرمادى محفور عليه حروف الإيجدية بلغات العالم ، يسمح هذا التصميم بدخول ضوء

الشمس إلى قاعات المكتبة. وهذا المبنى بارتفاع ٢٣م ويتكون من ١١ دور، ٤ أنوار تحت الأرض ثم ٧ مستويات متدرجة عبارة عن قاعات للاطلاع والدراسة كما توجد بهذا المبنى مجموعة من المتاحف للآثار والعلوم والمخطوطات ، ومعارض لكتون الأرض وخيال الكتاب وذاكرة الكتابة ، وأرشيف للانترنت ، ومكتبة باسم طه حسين للكفوفين ، والمكتبة السمعية البصرية متعددة الوسائط ، ومكتبة الموسيقى والفيلم ، كما توجد مراكز علمية وثقافية مثل المعهد النولى للدراسات المطوماتية ومعهد الخطوط ومركز التوثيق والبحوث ومركز الحفاظ على الكتب والمخطوطات والوثائق وقد حصلت المكتبة بتصميمها الحديث على أربع جوائز عالمية نجائزة الجودة في التنفيذ لعام ٢٠٠١ من مجلة الإنشاء البريطانية ، ودرجة الكمال في التصميم من مجلة العمارة العالمية، والمشروع الأجل على مستوى الشرق الأوسط وأفريقيا من المعهد الملكى للمعماريين البريطانى بالاشتراك مع مجلة العمارة العالمية وجائزة الامتياز والجدارة الدولية لعام ٢٠٠٢ فى الهندسة المدنية من جمعية المهندسين المدنيين الأمريكية.

وصاحب هذه الجوائز هو الدكتور مدوح حمزة أستاذ ميكانيكا التربة والأساسات بكلية الهندسة ببور سعيد والمستشار الهندسى لجامعة قناة السويس . وإذا كانت المكتبة القديمة قد نشأت فى إطار مشروع حضارى يستهدف نشر المعرفة والثقافة والتبادل الفكرى والتواصل الحضارى بين الشرق والغرب من أجل توحيد العالم. فإن المكتبة الجديدة ويعد أن تم افتتاحها عليها أن تكون تحقيقاً لنفس القيم والمبادئ لذا فإن الأهداف المعلنة للمكتبة الجديدة تدور حول الحوار الثقافى من أجل تبادل المعرفة لتحقيق صالح التقدم الإنسانى ، وفقاً لما أعلنه د. إسماعيل سراج الدين مدير المكتبة وفإنه قد تم رسم تصورات لتوجهات المستقبل عن نور المكتبة بصورة عامة وضعنا أمامنا تحديات أربعة هي:

١- أن تكون نافذة العالم على مصر: وكيف تتمكن المكتبة من أن تنقل إلى العالم الخارجى كل ما يريد أن يعرفه عن مصر ، ثقافتها وتاريخها كذلك مصر المعاصرة ومشاكلها وتحدياتها مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى ظل العولمة ، أيضاً ماذا نقبل منها؟ وماذا نقول عنها؟.

٢- أن تكون المكتبة فى نفس الوقت نافذة مصر على هذا العالم الفسيح : وكيفية تحقيق التوازن بين العديد من الاختلافات الجوهرية فى بعض الموضوعات ذات الاهتمام الخاص ، ولاسيما بين جيل الشباب الذين نهف أن تستطيع المكتبة أن توفر لهم المادة العلمية المطلوبة سواء أكانت مكتوبة على صفحات كتاب أو عن طريق الصفحات الالكترونية من خلال القاعدة الرقمية الجديدة.

٣- محاولة تضيق الفجوة فى الهوة الرقمية الدائرة الآن بين النول الصناعية للتقدمة ، والنول النامية:

٤- محاولة تطوير التقنيات العلمية الحديثة بحيث توفر لأبنائنا كل ما هو جديد فى هذا العالم الالكترونى الحديث.

من الواضح أن هذه الأهداف تعكس توجهاً عالمياً متعالياً فالمكتبة ليست سوى مرآة يرى العالم منها

مصر، وترى مصر العالم من خلالها ، وأن كل ما تحتاجه مصر ليس سوى تضيق الفجوة الرقمية ومحاولة تطويع التقنيات الحديثة هذا مجرد تصور محايد لا يرى أى اختلاف أو تباين بين مصر وبقية العالم . وبالرغم من أننى حاولت أن أعرض بصورة واضحة النور الذى قامت به مصر فى المكتبة القديمة وكيف أن حجم مساهمتها كان يدل على مستوى حيوية المجتمع وتقدم العلم فيها . ولكن الأمر غير ذلك الآن، فمصر تعاني من أزمة مستحكمة على جميع الأصعدة ، فالاقتصاد أصبح يعاني من اضمحلال شامل لقاعدته الانتاجية وأن هناك تنبأ فى مستوى الانتاج الصناعى والزراعى وارتفاع فى تكلفة السلع والخدمات مما يؤدى إلى عدم قدرتها على المنافسة حتى فى السوق المحلية وانخفاض حجم الصادرات ، واستمرار حالة الكساد التجارى ، وارتفاع معدلات البطالة خاصة بين الشباب المتعلم ، وإتساع التلوث البيئى ، وانخفاض الأداء فى الجهاز الإدارى، وتدننى مستوى الخدمات فى التعليم والصحة والنقل والمواصلات والإسكان وارتفاع نسبة الأمية . هذا اباإضافة إلى أن المجتمع المصرى فى مجال الثقافة أصبح يعيش حالة حيرة شاملة وفقدان للقدرة على الإبداع والحريات الفكرية ، وفى مجال السياسة فقدت الدولة القدرة على إدارة المجتمع وتحتل عن الكثير من أدوارها دون أن يستطيع القطاع الخاص القيام بما كان مقدرا له ، كل هذا والدولة غير راغبة فى إدارة شؤون المجتمع من خلال صيغة ديمقراطية أو تسمح بالقدر الكافى من التعددية وتداول السلطة أو تأمين حقوق الإنسان وكرامة الفرد ، وبالتالى فإن الدولة والمجتمع فى حالة افتقار للعمل الجاد وحسن المبادرة والقدرة على تجميع الأية وراء هدف محدد ، وليس هناك تصور واحد لإطار استراتيجى للخروج من هذه الأزمات ، وليس أدل على ذلك من الموقع الذى تحتله مصر فى تقارير التنمية البشرية التى تصدر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى حيث تأتى فى ذيل الدول متوسطة النمو.

كنت أتمنى أن يكون الاهتمام الأول للمكتبة هو دراسة الواقع المصرى ومحاولة وضع تصور استراتيجى للوصول إلى حل بعض مما تعانيه مصر والمنطقة العربية حتى تكون قادرة على المساهمة فى التقدم العلمى كما كانت عند إنشاء المكتبة القديمة ، وأن يكون هناك مركز علمى عن نهر النيل ومشكلات الزراعة المصرية وكيف نستطيع مواجهة ندرة المياه التى تعاني منها المنطقة العربية، ومركز علمى لدراسة الصحراء المصرية وكيفية الخروج من الودى لإعادة توزيع السكان ، ومعهد علمى لدراسة إدارة شؤون المجتمع وتقييم الأداء الفكرى والثقافى من أجل وضع تصور لمشروع نهضوى ، ومراكز علمية فى الفنون والآداب من أجل تطويرها ، فعلى سبيل المثال كيف نستفيد من سماع الموسيقى العالمية فى تطوير موسيقانا وجمع تراثنا من الفن الشعبى لإعادة صياغته علميا . وهذا لايعنى أن تكون هذه الأهداف بديلا عن الأهداف التى وضعتها المكتبة لنفسها بل استكمالا لها لتكتمل امكانية الاستفادة من هذا الصرح العلمى الفريد . وحتى تكون المكتبة الجديدة رمزا لإحياء الأثرى يتعين أن تكون تعبيرا عن انجاز حضارى جليل يتناسب مع ظروف العصر.

ذلك أننى اتفق مع الكاتب الكبير محمد سيد أحمد فى تصويره لمساق التطور وبور المكتبة الجديدة والذى يرى «أن مكتبة الاسكندرية القديمة كانت معنى حضاريا كبيرا ، ولكن ينبغي لنا تحديدا ماذا نعنى باطلاق صفة حضارية على بروز المكتبة مرة أخرى ، فإذا كانت الأولى تتويجا لانجازات حضارية ، فيجب أن تكون الجديدة تعبيراً عن انجاز حضارى خارق فى الأخرى ، ومع أن المكتبة الأولى كانت أقرب إلى المتحف منها إلى المكتبة ذلك لأن كل مخطوط كان محفوظ العدد والقيمة على القراءة هى الأخرى كانت مقصورة على نخب معينة ، واقتصرت وظيفة هذه المكتبة على حفظ عصابة ما انجزته العصور القديمة وضمان تواصلها عبر التاريخ ، غير أن المحافظة على هذا التراث ظلت فشة وعرضة لما حدث لمكتبة الاسكندرية ، ما دام الكتاب مخطوطا محدود العدد ، غير أنه حدثت طفرة فى القدرة على نشر المعرفة بعد اختراع آلة الطباعة عام ١٤٢٤ فى جوتنبرج بالمانيا ، بعد ذلك لم تعد القراءة صفة تقتصر على نسبة ضئيلة ومن ثم لم تعد المعرفة ملك نخبة قليلة العدد ، وكان اكتشاف الطباعة المدخل الضرورى لعصر النهضة ثم لعصر التنوير. والمكتبة الجديدة ان تكون تجديدا لو تعاملت مع الكتاب كما جرى معه ما قبل جوتنبرج ، ولا بعد جوتنبرج بل أننا بصدد عصر لم يعد الكتاب فيه هو فقط الكتاب المنسوخ أو المطبوع وإنما أصبح الكتاب وسيلة لتداول المعلومة جنبا إلى جنب مع أدوات سمعية وبصرية أخرى، أننا بصدد كتاب عصر المعلوماتية مكتاب نعرفه بالكتاب «المتفاعل» والقابل للتطوير حيث لا يتلقاه الإنسان سلبيا وإنما يشارك فى صنعه وهو يقرأه يضيف اليه تجربته .. وهكذا.. يطوره ، الكتاب الذى هو فى الوقت ذاته فاكس وتليفون وريد الكترونى وتلفزيون .. الأمر الذى يجعل من المادة المقروءة حالة تفاعل ديناميكية متواصلة بين البشر . مؤلفا يجرى اثرؤه باستمرار . مؤلفا لا يعبر عن مؤلف بعينه وحسب وإنما عن نوع من التألف الجماعى . وبهذا لا يكون الكتاب عرضة لأن يمتحى أبدا .. هذا هو الجديد الذى من المتصور أن ترمز له فكرة المكتبة الجديدة كى تكون تواصلا فى الحاضر وإلى المستقبل.

إن تحقيق ذلك انما يتطلب ثورة ثقافية كاملة، تعنى فى المقام الأول تجاوز الأمية ليس حيال القراءة والكتابة ، وإنما الأمية الالكترونية، والأمة ذات الحضارة العربية تحمل فى طياتها امكانية التجديد والنهضة إذا ما توافرت لها الظروف الملائمة ، وإذا نشئت مكتبة الاسكندرية الجديدة الكتاب المتفاعل الذى هو إنتاج جهد جماعى فاتها سوف تكون بذلك قد عبرت عن بلوغ مصر مرحلة متميزة من الوعى الحضارى.



أسطورة الأخوين وانلى

صحت داوستاشى

إن الكتابة عن الأخوين " وانلى " بمثابة رحلة توازى رحلة إبداعهما .. بانوراما تشمل التاريخ الحديث لمدينتهما الحبيبة الاسكندرية ، والتي إن لم يبنها الإسكندر الأكبر لبنيت بشكل أو بآخر .. وماكان لمدينة أخرى غيرها أن تنجب الأخوين " وانلى " .

من صفحات " العين العاشقة " للدكتور نعيم عطيه نقراً " عندما تسير فى شوارع الاسكندرية فتصادف رجلاً طويل القامة ممتلئ الجسم قليلاً ، أشعث الشعر ، تتدلى نصف سيجارة من شفثيه ، ويقال لك إنه سيف وانلى ، تفمرك سعادة عارمة تماماً ، مثلما تلمح فى شوارع القاهرة توفيق الحكيم بعصاه فى يده والبيديه على رأسه وتلك النظرات اللامعة الشاردة فى عينيه .

لعل د . نعيم عطيه لم ير مثلى الأخوين وانلى معا ، كان أدهم على النقيض من سيف . ضئيل الجسم مقتول العضلات فقد كان ملاكماً مرحاً ساخراً كثير الحركة ورغم أنه الأصغر فقد ولد فى ٢٥ فبراير ١٩٠٨ .. وسيف ولد فى ٣١ مارس ١٩٠٦ إلا أنه كان القائد والعقل المفكر والروح القلقة التى انطفأت مبكراً .

ماكان للإسكندرية أن تتوهج فنا وإبداعاً فى الأربعينيات وحتى نهاية الخمسينيات إلا بوجود الأخوين وانلى ومجموعتهما ومرسهما .

والحق يقال ، إنه مع رحيل أدهم وانلى فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٩ عن ٥١ عاماً ثم وفاة أحمد فهمى بعده بعامين وكان ثالثهم ... ورحيل محمود بيومى مبكراً ، ثم انطواء سيف على نفسه لتستحوذ عليه تلميذته إحسان مختار وحتى وفاته فى استكهولم بالسويد فى ١٤ فبراير ١٩٧٩ عن ٧٣ عاماً ، اختفت وتلاشت فترة من أهم وأكثر الفترات ثراء فى تاريخ الاسكندرية الفنى الحديث . لقد بدأت مرحلة جديدة وأجيال جديدة مع اختتاح كلية

الفنون الجميلة التي أنشأها أحمد عثمان عام ١٩٥٧ بمنطقة الرمل .. ومع خريجيهما الشباب بدأت حقبة من التردى والهبوط ... ومع نهاية الستينيات واستمرت حتى وقتنا الراهن . ففقدت الاسكندرية بريقها الابداعي .. وبعثا نحاول استرجاعه بلا جدوى .. فكل الاصلاء قد رحلوا منذ زمن بعيد . والباقي معتزل بعيدا عن المهاترات اللافتة السائدة الآن.

الحديث عن سيف وأدهم وأبلى هو الحديث عن الاسكندرية التي كانت ومآزالت الباب الجنوبي لأوريا .. جامعة توجعات المتوسط والمنفتحة على حضارات العالم . مركز الشرقين الأقصى والأدنى ، مروراً بحضارة الاغريق وحضارة أفريقيا مع الجذور الخالدة للحضارة المصرية القديمة.

• البدايات

يصف رشدي اسكندر ، وكان صديقاً للأخوين وأبلى ، قصر جدهم عرفان بأبلى في منطقة محرم بك والذي كان يطل على ترعة المحمودية المنطقة السكنية الطبقة الراقية في بداية هذا القرن " القصر يوحى بالثراء والفن والجمال .. حديقة غناء بها أنواع مختلفة من الزهور وأشجار الفاكهة . ثم مكتبة كبيرة تضم مراجع الفن الإيراني .. وعلى الجدران لوحات بالخط العربي الفارسي .. ثم لوحات ورسوم الملحح سهراب ورستم وغزوات تيمور لك والسلطان سليم وغير تلك من المخطوطات .

ولكن رشدي اسكندر ولا أحد غيره ممن كتبوا عن الأخوين وأبلى قد وضع للتقنيات والظروف التي شاعت أن تتحول الأيام بهما من الثراء الذي أحاط ببداية نشأتهم في قصر الأسرة بالاسكندرية إلى الفقر الذي لزمهما فيما بعد . فلم يكمل تعليمهما وأمكن بالوساطة الحاق سيف كاتباً بمصلحة المناظر بعيناء الاسكندرية وأنهم كاتباً بمخازن وزارة المعارف ، واستمر في عملهما هذا حتى حصلوا على التفرغ من الدولة إبان إنشاء وزارة الثقافة المصرية وإرسالهما في بعثة عام ١٩٥٩ لتسجيل معالم النوبة .. تلك الرحلة التاريخية التي توفي بعدها أدهم ليواصل سيف وحيداً طريق الإبداع فيحصد المجد والظهرة والثراء في أواخر أيامه .

الموهبة والاستعداد كامنان بالفطرة عند الأخوين وأبلى ، وقد ظهر استعدادهما للرسم مبكراً وعندما التحق أدهم ببناد رياضي ليتعلم فنون الملاكمة اكتشف المدير الانجليزى النادى اهتمام الشابين سيف وأدهم برسم وجوه زملائهما ، فشجعهما وطلب منهما لوحات لأبطال الرياضة العالميين وقدم ساعة يد هدية لكل منهما . مع ماكانا يشاهدانه على ترعة المحمودية لفنانين أظلمهم أجاناب أمام حوامل الرسم يسجلون مناظر تلك المنطقة الساحرة وقتها .. ثم زيارتهما لمعرض جماعة الخيال التي أسسها محمود مختار مثال مصر العظيم بالقاهرة . اشتعل حماسهما لتعلم هذا الفن الجميل " الرسم والتصوير الزيتي " .

كانت مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة التي أنشأها الأمير يوسف كمال عام ١٩٠٨ تستقبل الموهوبين للدراسة الأكاديمية .. في الاسكندرية كانت المراسم الخاصة للفنانين الأجانب هي التي تستقبل الموهوبين لقاء أجر شهري ، لم يكن في مقدور الأخوين وأبلى الوفاء به بعد تدهور ظروفهما المالية وهما حفيذان لأسرة من حكام وأمراء دولة الداعستان ، جدهما الوالد السنجق محمد وأبلى وجدهما الوالدة محمد عرفان بأبلى الذي سعى حتى عرفان بمنطقة محرم بك بإسمه لم يكن معها أجر درس الرسم في أحد المراسم المنتشرة بالمدينة . وحين افتتح حسن كامل جمعية هواة الفنون الجميلة بلجر رمزي سريعان ما انضم إليها سيف وأدهم مع من انضم

إليها .. كانت الروس تتم تحت رعاية وإشراف رواد الفن المصري الحديث محمود سعيد - محمود مختار - محمد ناجي.

كانت تلك الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٤ بمثابة فترة التعلم والتدريب والتثقيف للفنانين .. اذ تعرفوا خلالها على الفنان الإيطالي " أنتونيونيكي " .

وفي ٩ أكتوبر من عام ١٩٣٠ كان الاخوان وابلى أول تلميذين ينتقلان في مرسم بيكي وكانت علاقتهما بالفنان أقرب للصداقة منها للتلمذة .. لموهبتهما وثقافتهما الرفيعة .. وانضم معهما صديقهما الفنان أحمد فهمي .. ترك بيكي مرسمه ورحل إلى إيطاليا عام ١٩٣٤ . فكر الفرسان الثلاثة أن الألوان قد أن لإنشاء مرسم خاص بهم .. لتبدأ من هذا أسطورة سيف وأبلى كأبرز فناني الاسكندرية وأحد معلميها وأكثر فناني مصر في هذه الحقبة حرية في التعبير وقطرة على التجديد شاركهما في تلجير المرسم وتثقيته محمد بيومي رائد صناعة وفن السينما في مصر وساعدهما كثيرا ابن عصفها سليمان نجيب مدير دار الأوبرا بالقاهرة والممثل المعروف بالنداره المرحه ، لقد فتح أمامهما أبواب مصرح محمد علي بالاسكندرية ودار الأوبرا وعرفهما على فناني الباليه والمسرح والأوبرا العالميين .

ووقف إلى جانبهما بالتشجيع حسين صبحي مدير بلدية الاسكندرية ورأى الفن بالمدينة وعرض أعمالهما بمتحف الفنون الجميلة وبينالي الاسكندرية .. وجعل مذهبهما كمال الملاح الصفي والثرى والفنان المعروف خيرا يوعيا في صفحته بجريدة الأهرام .

كانت فترة ما بين الحربين هي سنين الفصح التي انطلقا منها مع بداية معارضهما الخاصة التي تركت أثرا قويا على مسار ومناخ الحركة الفنية المصرية بداية من منتصف الأربعينيات لقد تحول مرسمهما إلى صالون ثقافي ومدرسة ومركز حيوي للفن والفنانين ومزار لكل ضيوف الاسكندرية.

أصبح الاخوان وابلى ثم سيف فيما بعد .. رمزا للفنان العصامي الذي شق طريق الابداع بموهبته الأصلية وكفاحه في الحياة وثقافته وإطلاعه الدائم على المختبرات العالمية وحضته وتحسينه من أجل الفن . هذه الصفحات كانت تميز طلائع فناني النصف الأول من هذا القرن بصفة عامة .

لقد اتسع لهما المعرض لأول مرة في صالون أتيليه الاسكندرية عام ١٩٣٢ حين رحب محمد ناجي بأعمالهما وأشاد بأعمال أدهم بصفة خاصة ووصفها بأنها تشبه أعمال الفنان المجري " بالنت " الذي تتلمذ عليه ناجي بعض الوقت .

لقد نفعهما نجاح معرضهما الأول بالاسكندرية لشهد الرجال إلى القاهرة ثم إلى باقي أنحاء العالم وكان معرضهما بمتحف الفن الحديث بالقاهرة عام ١٩٥٠ نقطة تحول رئيسية في حياتهما فقد ترك هذا المعرض انطباعا قويا على تميز وتقدير وموهبة هذين الفنانين الذين رسما كل شيء بالاسكندرية .. الناس والبحر .. والأماكن الحميمة المختلفة .. سجلا بريشتهما المتمكنة الحياة اليومية بالمدينة التي كان لها أثره على ألوانهما من حيث الصفاء والشفافية والصراحة وعلى موضوعاتهما من حيث الانفتاح والشمول .

وجاءت مجموعة لوحات السيرك وراقصات الباليه وعروض الأوبرا المللية قوية التعبير رسمت بلهنتانية ومقدرة تقنية عالية وتلخيص راق لعناصرها يتفق والإيقاع الفني العالمي في ذلك الوقت .. حتى أن الناقد

الفرنسي لجريدة " لوموند " الباريسية كتب لم تكن تتوقع إطلاقاً منذ وفاة " إيجار ديجا " مصور رقصات البالية الشهير أن يفتح ميدان رسم البالية .. وقد صد الاخوان واتلى هذا الفراغ في اقتدار وتشهد أعمالهما فيما يتعلق بالمشاعر وترجمتها وتحليلهما للحركة والضوء المسرحي المعبر بموهبة فريدة عالية .

لقد ضحى سيف واتلى بكل شيء من أجل الفن بالصبر والزواج والأسرة والعمل من أجل التفرغ للإنتاج الفني بغير معوقات في زمن كانت الظروف الحياتية قاسية .. ساعدهما مجتمع فني راق يقدر الإبداع الأصيل ويضعه في مكانته الراقية بعكس مجتمعاتنا الراهن الذي سادته الاتساع الفني وعزلة المهويين.

لقد توجت رحلة البداية للأخوين واتلى بمنحهما التفرغ مدى الحياة عند إنشاء وزارة الثقافة عام ١٩٥٩ وقد سافرا ضمن المجموعة الأولى من الفنانين المصريين إلى بلاد النوبة لتسجيل معالمها وأثارها ضمن مشروع المساهمة في إنقاذ النوبة قبل أن تغمرها مياه بحيرة السد العالي ، ذلك المشروع الذي تآدى به عالميا الرائد محمد ناجي .. وأنجزا في هذه الرحلة أهم إبداعاتهما الفنية ، وكان على وزارة الثقافة وقتها أن تقيم متحفا لإبداع كل الذين سجلوا النوبة وبناء السد العالي ..

لوت هذا المشروع أصبح نقلة مهمة في مسيرة هؤلاء الفنانين والوطن في آن.

ابراهيم أدهم واتلى الفنان الصاخر

كل ما أنكره عن أدهم واتلى باستثناء لوحاته الرائعة .. فترة مرضه بمستشفى الموساة بالحجرة ٢٠٥ والتي كنا نتابعها يوما بيوم حتى أن وزير الثقافة ومدير بلدية الاسكندرية قاما بزيارة الفنان في سرير مرضه قبل ذهابهما لافتتاح الدورة الثالثة من بينالي الاسكندرية وصورت هذه الزيارة في شريط سينمائي ، نسأل أين هو الآن ؟...

وقد توفي أدهم بعد هذه الزيارة بثلاثة أيام فشيبت جنازته رسميا وشعبيا وتقدمها فنانون مصر وفنانو وقومسيترات دول حوض البحر المتوسط المشاركون في البينالي الثالث.

ومنذ المعرض الشامل الذي افتتح في ٢٠ مارس ١٩٦١ بمتحف الفنون الجميلة بعد وفاته بعام تقريبا وضم نماذج معظم ماتبقى من إنتاجه الفني فيما بين عامي ١٩٣٠ - ١٩٥٩ ويتكون من ١٨٦ لوحة زيتية لموضوعات مختلفة ١٢٣ لوحة البالية والمسرح وعالم السيرك ومائة رسم لمصارعة الثيران والراقصات مع رسوم رحلته إلى إيطاليا ورسومه الكاريكاتيرية وقد عرض سيف ثلاث لوحات تحية إلى أخيه تمثل وجه الفنان في مرسومه وخطابا لأدهم.

منذ هذا المعرض الشامل والوحيد لأدهم واتلى .. أسدل الستار بشكل أو بآخر على هذا الفنان الكبير .. صحيح أن احسان مختار تلميذته قد حوت مرسومه إلى معهد باسم أدهم واتلى وعلقت لوحاته واستكشفتها وكانت أيضاً نعمة في بيع كل شيء .. وهكذا اختفى معظم رصيد أدهم مع الأيام .. إن حصر ماتبقى منها في متاحفنا يثير الحزن والحيرة .. فمتحف سيف واتلى الملاحق بقوة بمتحف محمود سعيد بمنطقة جيناكليس بالاسكندرية والذي لم يفتتح بعد يضم سبع لوحات لأدهم واتلى فقط ومتحف الفنون الجميلة بالاسكندرية والذي أطلق عليه اسم حسين صبحي يضم ١٢ عملا لأدهم مابين اسكشش و لوحة ولعل متحف الفن الحديث بالقاهرة يضم مثل

هذا العدد مع لوحات هنا وهناك في مجموعات خاصة معروضة .. إلا أنه في النهاية فإن تراث هذا الفنان قد جرى تبيده.

الذي لاجدال فيه أن أدهم وائل يعد من أبرز مصورينا المصريين .. بل تفوق على أخيه بالوانه الدافئة الفاخرة في لوحات تمثل الواقع بسخرية تعبيرية قوية . وأهل سيف وائل كان على حق حين نصح أدهم بالتوقف عن رسم الكاريكاتير وإن ترك ذلك أثره على لوحاته الزيتية ورسومه.

أدهم وائل هو بطلته مصور كلاسيكي .. ميزته مجموعة أعمال السيرك والباليه وحياة الإرقصات ومجموعة النوبة ولوحاته واستكشافاته الايطالية في رحلته عام ١٩٥٢ وفي أعماله الأخيرة نرى محاولات التحيرية وتجاريه في تقسيم اللوحة إلى مساحات في نزعة تجريبية تكسيبية مقلدة بالواقع الذي لم يتخل عنه أبدا ولكنه لم يستطع أن يبارح " سيف " في التجريب والتنقل بين الأساليب المختلفة.

وكان تأثر أدهم وأخيه سيف بالمدرسة الباريسية وخاصة أعمال ديكا ولوتريك وغيرهما هو تأثر المبدع الذي يضيف وإيس تأثر الناقل الذي يقد.

وتألق أدهم في مرحلة لوحات النوبة - آخر ما أبدعه - وقد حول مناظر هذه المنطقة التي تلاشت الآن إلى مسرح حي نابض بالحركة اللونية والابتعاات الزخرفية وغنائية الضبوط الألقية والراسية ولعل لوحته (قراءة الصحف في النوبة) تعد من إحدى رواثه مع ما أبدعه من رسوم مصارعة الثيران وحياة لاعبي السيرك.. ومن منكراته لمس بعض ملامحه وأفكاره.

" ٢٨ مارس ١٩٤٩ القاهرة "

ذهبنا لمعرض الفن الإيطالي فوجدناه غاليا بالنسبة لنا وأعمالنا تقف معهم ووجدنا محمود بك سعيد قسلا طينا وتجاذبنا أطراف الحديث .. ذهبنا إلى متحف الفن الحديث وتعرفنا بعديره الأستاذ يوسف كمال وكان الرجل ظريفا .. ثم ذهبنا إلى جروبي لمقابلة حلمي بك الذي أخذنا إلى منزله بالمعادي للقاء وبعد الظهر ذهبنا إلى المعرض الإيطالي مرة أخرى فوجدنا " فاني " صديقة أدهم الروسية وكانت دهشة وفرحة .

٣١ مارس ١٩٤٩

عيد ميلاد سيف .. عدنا إلى الاسكندرية ومعنا " فاني " بلندا أجمل بلد في القطر - نور وشمس وبحر.

٢٧ أبريل ١٩٤٩

انتهيت من عمل لوحتين هما - سد برمبال - وملاحة رشيد - إني أغيط نفسي .

٣٠ أبريل ١٩٤٩

حضرنا افتتاح معرض محمود بك سعيد .. معرض فخم لفنان عظيم .. كان حفل الافتتاح رائعا جدا .. وكان فيه شرب كؤوس وقن وشعر وتغناء جميلات (رسم صيف لوحة للمعرض الذي أقيم في متحف الفنون الجميلة بالاسكندرية وكتب عليها إهداء إلى محمود سعيد وقد رأيت هذه اللوحة ضمن متعلقات محمود سعيد في متحفه ولاأرى أين هي الآن) .

أول مايو ١٩٤٩

ذهبت لاستلام مرتبتي من المحافظة .. مبلغ زهيد يكفى لسد الرق .. هذه هي الحياة .. دائما كفاح وأمل .. إلى أن ينتهي العمر .

وكتب أدهم وأتلى وصره على وشك أن ينتهي .. قبل وفاته مباشرة .

ديسمبر ١٩٥٩

منذ شهر كنت في الرسم أضعب اللمساح الأخيرة في تابلهو الرقص في النوبة وكنت أتعجل كل شيء لكي أنتهي من ١٥٠ لوحة و ٤٠٠ سمكتش وأنا وأخي سيف بتكليف من وزير الثقافة ثروت عكاشة عن بلاد النوبة لعرضها في معرض لإنقاذ آثار النوبة .

كنت أنا وأخي نعمل ١٥ ساعة كل يوم وأحسست فجأة بمغص شديد ، انفتحت فمى وانفخ منه قى حاد .. وعند الطبيب قال لي مرارتك ملتهبة وتعبانة .. لم أهتم وعدت إلى الرسم لأرسم .

والآن لا أرى أين هذه المذكرات ولماذا لم تجمع في كتاب حتى الآن .. لقد كان أدهم وأتلى فنانا أصيلا مرفف الحس والشعور .. لا يرسم إلا عن إيمان واقتناع .. ولا يتجه أبدا إلى التشخيصية وكانت لوحاته تفيض بسحر التعبير الدافئ وقوة الأداء الصادق .

أرى أنه من الضروري جمع أعماله المتناثرة لتتضمن إلى أصال أخيه سيف وأتلى في متحف واحد باسم " متحف الأخوين وأتلى " .

محمد سيف الدين . وأتلى

التقيت بسيف وأتلى في أوائل الستينيات بعد وفاة أخيه أدهم في تلك الفترة الرمادية السوداء من حياته وأتلى أكمبته صمعا على صممت وأنطواء على طبيعته الهادئة المنطوية أصلا .. ذهبت إليه في مرسمه ولم أكن قد التحقت بعد بكلية الفنون الجميلة بالإسكندرية وكان لي على الأقل خمس سنوات غارقا في رسم لوحات بتأثير فن سيف وأدهم .. ذهبت إليه لأطلع من أسرار هذا الفن .. وأخذت معي مجموعة من لوحاتي ومنها لوحة مريثة إلى أدهم

وقد صورت فيها وجه سيف على خلفية بيضاء ووجه أدهم على خلفية سوداء واستعرت بعض رموز سيف التي نعى بها أخاه مثل القمر البالكى وراء ستائر رمادية .. اثني سيف على أعالي وتصحنى بمزيد من الدراسة وجلست وسط مجموعة من تلامذته ولكني لم أكمل رسم ثلاث أو أربع لوحات بالفحم لرأس أفرويت مصنوع من الجبس وشمع وسط الحجر كمويل .

كان ذلك في مرسم سيف بالجامعة الشعبية التي في الآن قصر ثقافة الحرية بتأدي محمد على سابقا . كان سيف يحول خطوطى ويلمسه واحدة من أصابعه إلى إحدى لوحاته بلساويه المعروف تنتظر توقيعه عليها .

ساحر الألوان

لعل سيف الوحيد الذي لم يكن مهيا لأن يكون مدرسا .. صاحب مدرسة فنية ، نعم .. لكن ترك وراءه تلامذة يقلونهم تماما ولكن لم يشف واحد منهم شيئا جيدا للحركة التشكيلية المعاصرة .

وقد تركت مرسمه فورا رغم حبي وتقديرى ورغم أنه أعطاني أول جائزة أحصل عليها في معرض جماعى عام ١٩٦٢ .. وعلى كل الأحوال لقد تلاشت المراسم الحرة بافتتاح كلية الفنون الجميلة ورحيل آخر الفنانين

الأجانب .. نعم كنت مهورا مثل غيري من شباب فنانى فترة الستينيات بساحر الألوان سيف وانلى .. الفنان الذى أصبح أسطورة الاسكندرية .. ومازال الذى اقترن اسمه فى القصة مع روايتنا .. وقد رسم كمال الملاخ بقلمه صورة رائحة سيف فى تقييمه لمعرضه الشامل الثانى بمتحف الفنون الجميلة عام ١٩٧٤ الذى أقيم تكريما لحصول الفنان الكبير على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون .. كتب الملاخ الذى لعب دورا كبيرا فى خلق أسطورة الأخوين " وانلى " عندما تقضى الألوان فى انسجام .. على شاطئ لوحة .. فالتت تنطلق إلى أحد أعمال فنان مصر الأكبر المعاصر م. سيف وانلى . الذى أهدته مصر الدولة جائزتها التقديرية الكبرى .. تكريما وتقديرا لإنسان وهب نفسه وذاته لحراب الفن الذى استكان إليه فتى صغيرا .. ونسى كيانه وكنته واهب متصوفا أصم على أن يبقى متبلا فى عالم من الألوان والخطوط والمساحات .. انغرد بها يلحق ويسرى بها إلى عوالم لايراهما رؤية العين وإنما يحس بها إحساس الفنان الأصليون نون أن يلقد أحدا .. أو يتبع طريقا سار فيه وضلا عليه من قبل غيره من أهل الفن .. حتى أخوه الراحل أدهم وانلى: الذى تقرد بشخصيته عنه.

إن دراسة دور كمال الملاخ بالنسبة للأخوين وانلى ولبنية الاسكندرية والبيئات التى يقام بها منذ عام ١٩٥٥ يوضح أهمية وإيجابية دور الصحافة والإعلام فى نشر وتقديم الفنان وقته وجعله جزءا من نسيج المجتمع.

لقد رسم سيف كل شئ يحيط به .. أينما كان .. وفى أى لحظة نهارا أو ليلا وفى ظلام قاعات المعارض .. أساسا كان ينفذ أعماله بالألوان الزيتية والجواش والأقلام السوداء والملونة ولكنه كان يرحب بالى وسيت آخر يجده أمامه ، بقايا فنجان قهوة .. رماد سيجارته التى لم تفارق شفتيه أبدا مثل ابتسامته الطيبة الصالحة. ومن المدهش أن نجد له رسوما على حلب السجائر وكروت الدعوة والمفارش البيضاء .. كل البطاقات البريدية التى أرسلها سيف فى رحلاته الأوروبية وانلى كان يبعث بها لأصدقائه من رسمة .. كان سخيا ثريا فى عطائه الإبداعي .. لم يكن يعنيه كم مايرسم وهل سيؤثر ذلك على أسعار أعماله فيما بعد .. وهذا ماحدث فعلا فأعماله منتشرة وخاصة استكشاته وتباع بلخس الأثمان .. كذلك لم يحته تنقله الدائم من أسلوب إلى أسلوب ومن مدرسة إلى مدرسة كان يشعر داخل ذاته يلقه فى النهاية لايقدم إلا نفسه .. فنه الخاص به .. أحاسيسه الداخلية وترجمته للواقع برؤية جمالية سكندرية بحتة .. وبين استعارته لاتجاه فنى أو تقنية غربية فانه كان يصيغها بروحه المستقلة .. لذلك جاءت أعماله واضحة بسيطة محبوبة وخشبية وأيضا بعيدة عن التنسج والارتجالية .. وعن انتقالاته الفنية هذه قال من الذين نجحوا فى كتابه " فجر التصوير المصرى المعاصر " لعل موهبة سيف وانلى كانت من نوع موهبة محمد ناجى ككاشف آفاق مفتون باباءات الفن الغربى .. وكان فى نضاه وروحه اللطيفة .. كحظة لاتكف عن التنقل من بستان إلى بستان لتلاحق منجزات الفن الحديث .. وتمتص رحيقه لتفرز مسلا ذا مذاق جنىد إلا أنه كان أكثر اتصافا مع نفسه فى ذلك .. فلم يحاول أن يزوج هذه التيارات الغربية للمنجزات الحضارية فى فنوننا الأوروبية .. لهذا فقد كان وهو ينتقل من التقليدية إلى الحشوية التمييزية إلى التكيبية والتجريدية سلسا وبسيطا ومتسقا مع اللذائع التى نهل منها . وهذه السلسلة والبساطة كان مصدرها الصدق .. وهو ملجئ كثيرا من أعماله يرغب ثيابها الغربية - مصرية الروح خاصة فى مجموعة أعماله عن النوبة.

سيف وانلى يمثل روح الاسكندرية الحديثة بحق.. المدينة التى ليست أثوابا من الحضارات واستوعبت ضروباً من المذاهب .. وظلت دائماً مدينة البحر المتوسط .. وقد كثر الحديث فى فترة من الفترات حول سؤال مهم : هل للأسكندرية مدرسة فنية تميزها وتميز فنانيه عن فنانى القاهرة على سبيل المثال ؟ .. وكانت الإجابة حتى بعد رحيل سيف عن دنيانا .. بنعم فقد كانت إبداعاته وأخيه أنهم من أهم علامات هذه المدرسة الاسكندرية التشكيلية والتى اختلقت الآن وتلاشت ملامحها مع رحيل أهم رموزها .. إلا أنها كامنة أصلاً فى تاريخ وجود وعطاء هذه المدينة.

لقد آمن سيف بأن الفن لا يعرف الكلمة الأخيرة منذ بدأ مع الانسان وأن حقيقته كامنة فى إضافته المستمرة مع مسيرة الحياة .. سألنى فى إحدى المرات : ماذا تفعل الآن ؟ وحين أخبرته بأننى تركت وظيفتى لأتفرغ للفن ابتسم ساخراً وقال : " هو لست فاكرو نفسك فان جوخ " كان سيف عاشقاً للحمة فان جوخ وصديقه جوجان وأخيه شير ولم أكن أدري وقتها أنه بعد حيشى هذا معه بعشرين عاماً ساعثر على قصة حياة فان جوخ من مطبوعات سلسلة الآلاف كتاب ، النسخة الخاصة بسيف وقد رسمها كلها بريشته بين السطور نسخة وحيدة فريدة.

ولعل أجمل لوحات سيف على الإطلاق هى لوحة قصة حياته وشقيقه .. وسوف يتجه الفكر دائماً إلى الأخوين وانلى كلما تأقت الروح إلى الإنتشاء بالفن والإرتواء من ينبوع الإبداع وأسطورة المبدعين.

عندما سأل مشير عامر فى روايته التسجيلية عن حياة الفنان سيف وانلى والتى نشرها عام ١٩٧٨ " مناق الأزرق والأخضر " جاء الرد وبقلمه : " إجابة سيف هى إجابة أنهم .. كل شئ فى الحياة يصعد من غير مرئى .. قيل أنها رحلة الخروج من الجنة والعودة إليها .. يدق باب العصر عبقري يكشف روح المستقبل يأتى بعد العبقري رجل مذهول بال اكتشاف تسع عيناه ليؤكد الاكتشاف القديم .. لتتلك الحركة الفنية .. أخيراً يأتى الناقد ليصدر حكماً ما "

والحكم أن أسطورة الاسكندرية .. الأخوين وانلى .. ستظل متوجهة دائماً وإلى الأبد.

هوامش :

أنهم وانلى ١٩٠٨ - ١٩٥٩

سيف وانلى ١٩٠٦ - ١٩٧٩



سيف وانلى

- * يوقع لوحاته باسم سيف.
- * اسمه الكامل : محمد سيف الدين.
- * اسم والده : اسماعيل محمد وانلى .
- * ولد بالاسكندرية في ٢١ مارس ١٩٠٦.
- * توفي فجر يوم ١٥ فبراير ١٩٧٩ فى استكهولم.
- * دفن بالاسكندرية يوم ٢٠ فبراير ١٩٧٩.
- * درس الفن فى مرسى المصور الايطالى « أتورنيو بيكي » عام ١٩٢٥.
- * قام بعدة رحلات فى البلاد الأوروبية المختلفة . كما اشترك فى سبعة عشر معرضا خاصا مع أخيه الفنان أدهم وانلى (٢٥ فبراير ١٩٠٨ - ٣٠ ديسمبر ١٩٥٩) واشترك بعد ذلك فى بينالى مدينة البندقية وسان باولو بالبرازيل وبينالى الاسكندرية وكثير من المعارض الدولية.
- * حصل فى سنة ١٩٣٦ على جائزة مختار التصوير وفى سنة ١٩٤٩- على جائزة « ريتشارد » وفى سنة ١٩٥٣ على ميدالية معرض الفنون الآسيوية الأفريقية وفى سنة ١٩٥٩ حصل على الجائزة الدولية فى بينالى الاسكندرية.
- * كلف السيد وزير الثقافة والارشاد القومى د. ثروت عكاشة القيام برحلة فى عام ١٩٥٧ الى بلاد النوبة ليسجل مناظر وملابس وأوضاع سكان هذه البلاد قبل تهجيرهم منها حيث غمرتها فيما بعد مياه السد العالى .. وقد صدر كتاب لهذه الرسوم وزع عالميا.
- * عين أستاذا بكلية الفنون الجميلة منذ انشائها بالاسكندرية عام ١٩٥٧.
- * حصل على منحة التقرب من النوبة مدى الحياة عام ١٩٥٩.
- * يقدر مارسه سيف وانلى من اللوحات الزيتية بثلاثة آلاف لوحة وأكثر من ثمانين ألف رسم سريع مدى تاريخه الفنى.
- * تنتشر أعماله الفنية فى جميع متاحف مصر للفن المعاصر وفى مجموعات خاصة بمصر وفرنسا وانجلترا وأمريكا وإيطاليا وأستراليا والأرجنتين وألمانيا ويوغسلافيا وروسيا واليابان ولبنان وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وغيرها من البلاد.



* فى عام ١٩٦١ أقام متحف الفنون الجميلة بالاسكندرية معرضا شاملا لأعمال الفنان
ضم نماذج من انتاجه فيما بين ١٩٥١ - ١٩٦١.

* صدر عن حياته رواية تسجيلية بقلم الأديب منير عامر بعنوان « عناق الأزرق والأخضر »
عام ١٩٧١ طبعها الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، كما أصدرت أقلام الصحوة كتاباً
عام ١٩٧٨ عن الفنان سيف بعنوان فى صحن مصر للأديب محمود عوض عبد العال.

* أخرج الفنان نهاد بهجت فيلماً سينمائياً (٢٠ دقيقة) عن سيف وأطلق بعنوان « الجائزة
» وذلك بعد فوزه بجائزة الدولة التقديرية فى الفنون عام ١٩٧٣ والميدالية الذهبية ووسام
العلوم والفنون.

* فى عام ١٩٧٦ منح درجة الدكتوراه الفخرية فى الفنون من السيد رئيس الجمهورية.
* كانت أعماله ستعرض باستكهولم فى السويد ثم أوسلو عاصمة النرويج ثم كوينهاجن
عاصمة الدانمرك ... ولكنه توفى قبل افتتاح أول معرض فى بداية جولته بأوروبا بصحبة
زوجته احسان مختار عام ١٩٧٩ عن ٧٣ عاماً قدم خلالها نموذجاً للفنان المصرى الذى ثبتت
أقدامه ونال مكانته المرموقة فى مصر ثم فى العالم.

* افتتحت قاعة عرض باسم سيف وأطلق بقصر ثقافة الحرية بالاسكندرية يوم السبت ١٢
ابريل ١٩٨٠ فى تكريم وفاته الأولى بعرض لأعماله.

* فى سنة ١٩٨٢ اقتنت وزارة الثقافة من الورثة كل ماتبقى من لوحاته واسكتشات وكتبه
وأوراقه الخاصة ومكتبته الموسيقية ومقتنياته ومتعلقاته الشخصية تمهيداً لإقامة متحف خاص
للفنان سيف وأطلق أخيه آدم وأطلق بجوار متحف الفنان « محمود سعيد ».



سيف وانلى يرسم حياة فان جوخ

ع . د

فى ربيع ١٩٦٨ قمت بزيارة الفنان الكبير سيف وانلى ، وكان يدرس وقتها لطلبة قسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالإسكندرية ، يرسمون موضوعاً جدارياً فوق سطح مبنى الكلية ، وسيف والسيجارة فى يده جالساً فى لفة شمس الربيع ، كانت علاقتى به تعود إلى عام ١٩٦١ قبل إلتحاقى بكلية الفنون وكنت وقتها تلميذاً بمرسمه لمدة ثلاثة دروس فقط ، ولم استمر خوفاً من أن أكون نسخة مكررة وباهتة من فنان أقدره وأحبه .

سألنى الفنان الكبير : ماذا تفعل الآن ؟

أخبرته بانى قدمت استقالتى من التلفزيون وكنت أعمل به كمخرج مساعد منذ ستة شهور فقط عقب تخرجى .. وأخبرته أن العمل بالقاهرة وبالتليفزيون بالذات يتطلب منى تنازلات لست قادراً عليها .. كما انى أعشق راحة البحر ومدينتى الجميلة الإسكندرية .. وسأنتفرغ للفن ، ورزقى على الله .

ابتسم سيف وانلى ، وهز رأسه رافضاً فكرتى هذه ، ونظر لأفق البحر التركوازى الممتد أمامنا فى بانوراما واسعة لكورنيش إسكندرية وقال :

— ماين تبقى يعنى فان جرخ .



كنا جميعاً نعرف قصة عذاب وطموح فان جوخ ، وحياته الدرامية ، وسعيه الدائم للخلاص الذى وجدده أخيراً فى الفن تحديداً فى السنوات العشر الأخيرة من عمره القصير ويعد هذه السنوات أطلق على رأسه

الرصاص ومات لعل سيف يقصد بكلمته هذه تلك التفرغ الزهم إلى دراسة الإبداع بين التفكير في أي شيء آخر ، وكان فان جورج يعتمد على مساعدات أخيه ثيو لكي يواصل الرسم والحياة ، بعد أن ترك كل وظائفه التي كان يرتزق منها .. ولكن سيف كان يشفق على من طريق الفن الذي لايسد الجوع ، ولايفتح بيتاً لأشباب مازال في مستقبل الحياة .. يهجر وظيفته من أجل التفرغ للمجهول.



في ربيع ١٩٨٨ وبعد عشرين عاماً من هذا اللقاء ، تمكنت من شراء نسخة نادرة وقيمة من كتاب " سلسلة الألف كتاب - التي تشرف على إصدارها الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية ، بوزارة التعليم العالي " .. وكان عبارة عن مجلدين بعنوان " حياة فان جورج " تأليف أرفنج ستون وترجمة محمد محمود صفوت ، ومراجعة الدكتور عز الدين فريد.

أما ندرة وقيمة هذا الكتاب فلاه أولاً : يخص سيف وأثلى ومن مكتبته الشخصية التي تسريت هي وأشياء أخرى من متعلقاته وأسكنته واسطواناته إلى أرصفة الاسكندرية مع باعة الكتب القديمة وتجار الطلارين المتخصصين في الانتيكات والمنهويات.. ثانياً : لأن هذا الكتاب يضم في صفحاته رسوماً بريشة سيف وأثلى .. رسوم أصلية .. وليست رسوماً مطبوعة ، تمثل حياة فان جورج وقد رسمها بين الفصول وفي الفراغات ، وقد استفاد سيف في رسم حياة فان جورج من رسوم لوحات الفنان التي تملأ كتب الفن ، رسمها سيف بحساسية وحُب وتحية منه لهذا الفنان العالمي ، الذي لم يبع في حياته إلا لوحة واحدة بخمسة فرنكات فرنسية قديمة ، والذي وصلت أسعار لوحاته اليوم إلى أرقام فلكية كان آخرها مايزيد على ثمانية ملايين دولار في لوحة واحدة وإن كانت رسوم سيف وأثلى لحياة فان جورج قد إشتهت بالفهم لعالم هذا الفنان ، فانه تقمص ضربات فرشاته العصبية السريعة المستقلة ، وخطوطه الملتهبة للثقل ، ولكن يعبق روح وبساطة بريشة سيف وأثلى وأسلوبه المعروف عنه .

امتلات صفحات الكتاب بالرسوم التي استعمل فيها سيف وأثلى أقلام الحبر الأسود ، ليرسم كل شيء يتعلق بقصة فان جورج فرسم والديه وأصدقائه وخلصه جوجان ، وأصامه ، كما رسم الأماكن الخالوية والطبيعية التي كان يستلهم فان جورج منها لوحاته والتي كان يلجأ إليها على الدوام ، وكانت آخر رسوم سيف وأثلى في هذا الكتاب ، تمثل حجرة فان جورج وقد رسمها باللون الأزرق وكنته لون الموت وكتب تحتها " الفرقة التي مات بها فينست "

وجانِبَ مارسمه سيف في هذا الكتاب ، إنه وضع بعض الخطوط والأقواس على بعض الكلمات التي كان لها صدق في نفسه ومنها هذا السطر.

" أنا في دنيا تداركها الله ، غريب . فهد لي من لبتك رحمة "

فهل كان سيف وأثلى يعنى نفسه هنا ، وهل تقمص حياة فان جورج كما تقمصها العديد من الرومانسيين ..

الذى لا خلاف عليه هو اقتتان فنان الإسكتندية بحياة الفنان الهولندى الذى كتب عنه عشرات المؤلفات والعديد من المسرحيات والأفلام السينمائية المقتبسة من قصة حياته وأهل أشهرها ذلك الفيلم الأمريكى الذى قام ببطولته كيرك دوجلاس فى دور فان جوخ وأنتونى كوين فى دور زميله الفنان جوجان.

وقد لخص جورج فلاجان فى كتابه الشهير " حول الفن الحديث " الذى ترجمه كمال الملاخ ونشرته دار المعارف عام ١٩٦٢ ، لخص حياة فان جوخ قائلاً : لقد عاش فان جوخ حياة درامية تراجمية بطولية ، وكانت تشبه كثيراً ملحمة من أمسى شكسبير ، فى وقائعها وتسلسل حواراتها ، اللابدية إلى الخاتمة الصاخبة .. إن حياته قصة كاملة ، لتبدو وكأنها تتساقط بسط بسيط يصلح للمسرح أو لرواية .. كانت حياته عاصفة مستمرة هائجة ، مفاجئة ، كانت هى والفن شيئاً واحداً .. كانا الشئ نفسه .. كان يرسم بسرعة خارقة ، بدون تفاصيل ، ولا أى رؤية.

كانت ألوانه نحاسية فطرية حادة .. كانت حياة فان جوخ قصة قصيرة واختتمت فى سنة ١٨٩٠ عندما كان فى السابعة والثلاثين وأو أنه عاش فشلاً بعد فشل ، فقد قبح للعالم فى مجال الفن هدية عظمى ، هذا عن فان جوخ .. أما فنائنا الكبير سيف وإثلى والذى عاش حياة فيها أيضاً الكثير من المعاناة هو وحقيقته أدم وإثلى ، لكن سيف نال الشهرة والمجد فى حياته التى استمرت هائلة ثرية بالإبداع حتى وفاته فى ١٥ فبراير ١٩٧٩ باستكهولم ، قريباً من دنيا فان جوخ وقد دفن سيف وإثلى بمقابر الأسرة فى ٢٠ فبراير ١٩٧٩ من ثلاثة وسبعين عاماً حافلة بالإبداع الفنى .

هذا الكشف أقدمه تحية لذكرى سيف وإثلى الذى كتب عنه أستاذنا الكبير وصاحب القلب الرحب حسين بيكار الذى إحتقلنا ببلوغه التسمين فى يناير الماضى ورحل عنا أخيراً .. كتب عن سيف وإثلى يقول : " سيف وإثلى ، جيل كفاح ، لوحة من نور ، نموذج رائع من العصامية والإصرار وبناء الذات ، مفرسته الحياة ، وجامعته التجربة الشخصية ، ومعلمه العطاء الإنسانى كله ، موقعه ساحل الإسكتندية ، تربيع فوق القمة صعوداً من القاع "

نعم إنها تحية إلى أحب فنانين عشقت إبداعهما وتطلعت من قصة حياتهما الكثير .. فان جوخ وسيف وإثلى .. وفى الصفحات التالية يسمحنى أن أقدم قصة حياة الفنان الكبير سيف وإثلى وأخيه أدم وإثلى وهى فى نفس الوقت قصة الفن بمعجزة الإسكتندية فى القرن العشرين وهى التى ساعدت بها مجلدى الضخم الثانى التوثيقى عن الشقيقين سيف وأدم وإثلى بعد المجلد الأول الذى قمعت فيه حياة وفن الراحل الكبير محمود سعيد والذى صدر عام ١٩٩٨ بمناسبة ذكرى مائة عام على ميلاده ومجلد سيف سيصدر أيضاً فى ذكرى مائة عام على ميلاده.



إسكندرية نجيب محفوظ!!

عبد الله هاشم

القاهرة عند نجيب محفوظ هي عالم الأثير.. والقاهرة الشعبية التي صورها في رواياته جزء مهم من مصر.. بل هي مصر في فترات تاريخها الممتد.. لقد خلد القاهرة في رواياته وحافظ على تاريخها الشعبي الجميل والصعب وإذا انتزعنا أحياء القاهرة من أعماله الروائية ستفقد الكثير والكثير.

رواياته: هل نستطيع أن نتصور رواية «ميرامار» بنون الاسكندرية؟ هل نستطيع أن نتصور «عيسى الدباغ» بعد أن فقد مجده وهيلمانه؟ أين كان سيذهب بنون الاسكندرية التي كانت لها دور خطير في حياته؟ هل كانت الاسكندرية كون غيرها هي التي خرج منها «صابر صابر الرحيمي» في رواية «الطريق»؟ كيف قدم نجيب محفوظ الاسكندرية في رواياته الثلاث.. هذا ما سنحاول رصد جزء منه في هذه العجالة لأن الاسكندرية في أعماله تستحق كتابا كاملا.

الاسكندرية أخيرا..

الاسكندرية قطر الندى ، نفثة السحابة البيضاء ، مهبط الشعاع المفسول بماء السماء ، وقلب الذكريات الجيلة بالشهد والدموع.

هذه هي الاسكندرية كما قدمها نجيب محفوظ على لسان «عامر وجدي» يظل روايته «ميرامار» ، هذا الصحفي المخضرم الذي يرصد ويحلل.. «أما حسن علام» التي أمتت الثورة أرضه فهو يرى الاسكندرية: «وجه البحر أسود محتقن برزقة . يتميز غيظاً . يكظم غيظه . تتلاطم أمواجه في اختناق . يغلى

بغضب أبدي لا متنفس له . الكورنيش لا يرى من شرفة «سينما» . إن لم أنحن فوق السور فلا سبيل لرؤيته . البحر يمتد تحتى مباشرة كأنما أراه من سفينة وهو يترامى حتى قلعة قايتباي محصوراً بين سياج الكورنيش ونزار حجري يضرب فى الماء كالغول .. بينما يشتتق البحر . يتلاطم فى تناقل وهو كظيم . بوجه أسود ضارب الزرق . منذر بالفضب .. يضطرم بباطن محشو بسرار الموت ونفائاته» ص ٨٧ ، ٨٨ .

أما المنيح «منصور باهى» صاحب القضية السياسية التى قضى فى السجن أنواعاً من عمره بسببها ، فالاسكندرية عنده بعد خروجه من السجن:

«وقفت فى الشرفة وحيداً . ترامى البحر تحتى إلى غير نهاية . ينبسط فى زرقه صافية بديعة . وتلعب أمواجه الهادئة بلكى الشمس . غمرتتى ربح فى ملاطفة متفرقة . كاد يقبلنى الحزن ولكن سمعت حركة خفيفة فى الحجرة فالتفت مبتطلاً فرأيت زهرة وهى تفرش السرير بالملاط والملاط والافطية . عملت بهمة دون أن تنظر نحوى غمليتها على مهل . وسرعان ما أكبرت ملاحظتها الريفية الباهرة» ص ١٤٢ .

أما «سرحان البحيرى» الانتهازى الذى ركب الثورة فكيف كانت الاسكندرية بالنسبة له:

«هاى لايف» . معرض أشكال وألوان مثير للشغب ، شغب البطون والقلوب . موجة هادئة من الأنوار الباهرة تسبح فيها قدور فواتح الشهية ، الألبان الحريفة والمسكره ، اللحوم المقددة والمدخنة والطازجة ، الألبان ومستخرجاتها ، القوارير المضلعة والمتبسة والمبططة والمريضة والمنعجة المترعة بشتى الضمور من مختلف الجسيات . لذلك تتوقف قدمائى بطريقة أنوماتيكية أمام كل بقالة يرنانية ، وهواء الخريف يلحننى بسماته الجنسية . وصينائى يرنان إلى الفلاحة بين الزبائن أمام الطاولة ص ٢٠٢-٢٠٤ .

إن نجيب محفوظ لا يستخدم الاسكندرية ويحرمها وملاحظتها ككيكور ، بل كعامل أساسى فى تكوين نفسه الشخصية والتداخل فى أحداثها ، فالبحر هنا يعبر عن داخل الشخصيات التى قدمها فى روايته «ميرamar» كل يعبر عن ما يهيم ، كما استشهدنا بمقاطع عن هذا .

السمان والخريف هى التى تلعب الاسكندرية دوراً حيوياً وأساسياً فى أحداثها فحينما فقد ميسى الدباغ عمله وطموحه السياسى بقيام الثورة ، لم يجد بداً من الذهاب إلى الاسكندرية وصارع التردد أشهراً ، ويوماً قال لأمه: «لنى أفكار حقا فى السفر إلى الاسكندرية وكانت الأم تزاد اعتياداً لغرابه أطواره ونحوه فقالت يهود»

ولكن الصيف انتهى .

—أريد الإقامة لا التصفيف .

فاخرج جفناً قافلاً فاستطرد قائلاً:

—أعنى لفترة من الزمن

—ولكن لماذا؟

—لأود أن أقيم فى مكان لا يعرفنى فيه أحد ولا أعرف فيه أحداً» ص ٧٩ .

ولكن الأحداث تتطور ويتعرف على ربرى» بل إنه يحب بتناً منها ، لتلعب الاسكندرية دوراً خطيراً

فى حياته والاستشهاد الذى يقمه نجيب محفوظ ليس وصفا لشوارع الاسكندرية ، ولكنه يقدم عيسى الدباغ فى حياته وورثى عيسى إلى ضحايا التاريخ من قلب متوه . وأفرغ الثمالة ثم غادر المحل وسار على مهل فى شارع سعد زغلول . أحب شوارع الاسكندرية إلى نفسه وبخاصة بعد الثورة . إنه شارع الخاض على وجه ما ، ويحب كثيراً أن يقطع ولو مرة كل يوم جيئة ونهاياً ، لينجى فيض الذكريات . واقترب الوقت من نصف الليل ، وشاعت فى الجو برودة رقيقة منعشة . وبدا المجال كله ملقعا بالهجران . وألقى نظرة إلى ظهر التمثال المحدث فى البحر . وطوح برأسه على طريقة الباشا الذى حلا له قديما محاكاته . واستقل الترام إلى الإبراهيمية ، ثم ذهب إلى الكورنيش ليملى أعصابه بالمشى الوثيد . وفاقته ملاحه الجو خيال رأسه الدائر بالشراب .. وومضت النجوم فى الثقرات الواسعة بين السحاب ، واستكان البحر كالتائم تحت الظلام ، وعلى البعد امتد سياج من الأضواء الثابتة فوق مراكب الصيد . وخلا الطريق من الأحياء . فعادت تلج صورة الهجران . وجلس على أريكة حجرية يندم بالصمت والعنان» من ٩٥-٩٦ .

**

أما رولية «الطريق» فإن الاسكندرية هى البداية التى خرج منها «صابر الرحيمى» الإنسان الفارق فى القرب أو الفارق فى المادة . المادة أقوى منه والروح ضعيفة . اختار الاسكندرية وحضارتها التى تثلثت بالمحضارة الرومانية التى تعتمد على الحس والجسد الإنسانى النسوى وعبانته ، ثم القاهرة بمكانها وروحانياتها التى تجمع بين إلهام «الروح» وكريمة «الجسد» . وتعلق بصره بالاسكندرية والقطار يجر الأرض مبتعداً . وأما مدينة من الأطياف مغروسة فى حلم الخريف تحت مظلة مائلة من السحب ، وهواء بارد محبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الأنيقة شب الخالية . وودعها وأمه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة . وكيف يكون المال لو أن من تبحت عنه قد خلفته وأنت لا تدرى فى ركن من الاسكندرية لم يلفه مسعاك . ومن ضمن لك أن يكون حظك فى القاهرة خيراً منه فى الاسكندرية وكم فى البحر من أمواج . وكم فى السماء من نجوم» من ٢٥ .

«بسيمة عمران» هى الأرض التى نبت وخرج منها صابر الرحيمى وكريمة هى الحياة بكل حميتها وشهواتها . أما إلهام فهى الروح أو الوسط بين الروح والمادة . الإنسان الحائر بين المادة والروح «أين الله حقاً» هو عرف اسم الله ولكنه لم يشغل باله قط . ولم تشده إلى الدين علاقة تذكر . ولا شهد التنبى دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش فى عصر ما قبل الدين ص ٤٧ .

ويتتهى هذا الإنسان الخاطى إلى السجن والموت فى السجن وحده . لا يزار من ليس له أهل . وإلهام تخطر كالحلم غزواتك فى الاسكندرية . الحب الأعمى الذى رفعه إلى المشتقة ص ١٦٩ .

**

هكذا كانت الاسكندرية فى روايات نجيب محفوظ ، لم تستخدم كديكور أو وصف سائح يزور الاسكندرية فى الصيف ولكن اسكندرية نجيب محفوظ هى العمق والتاريخ القديم والحديث . هى عمق الروايات وأحداثها وسر عبقريتها هذا الكاتب العالى .

اسكندرية

احمد فؤاد نجم

يا ريت ينوبنى من الحب نايب
والبحر فوجه والصيد مطايب
على شمسة طالعة وأنا فيها دايب
مات ع الطوابى وراح فى بحرك
م البحر جايه تفرق فى سحرك
كأنى غنوة من قلب سيد
هتف بإسمك ومات معيد
بيصحنى ناسك يشدوا حيلك
كأنى دمة فى عيون سهارى
تهدى الحيارى والبحر غايب
على سن باسم على ضحكة هالة
وأنت الأميرة ع الدنيا طاله
أرتاح فى حضنك والود ودى
وبالمحبة ناخذ وندى
ع الرزق يسعوا ولايناموش
وزا شقاوم وما ارتاحوش
وشاع تعبهوم ومالتاقوش
وطلع شبكم على فاشوش
وفيكى فوق البشر وحوش
لوخان زمتهم مايخونوش
ما اقدرش أشوفه وماغنيلوش

يا اسكندرية بحرك عجايب
تحنفنى موجة على صدر موجة
أغسل هدومى وأنشر فمومى
كأنى فلاح من جيش عرابى
كأنى نسمة فوق الروابى
كأنى كلمة من عقل بيرم
كأنى جوه المظاهرة طالب
كأنى صوت النديم فى ليك
كأنى طوبة من بيت ف حارة
كأنى نجمة فوق الفنارة
يا اسكندرية يا مصراوية
البحر شباك ومشربية
يا اسكندرية عاشق ويدوى
يكون كلامى عريون فرامى
يا اسكندرية فيكى الغلابة
صبح صباحهم رجع مساهم
يا عينى ع اللى الزمن تعبهم
نزل شبكهم فى بحر طامى
وفيكى بين البشر دبابه
وفيكى ناس مغرمين صبابه
وفيكى خمري سلمت أمرى



فى وضع النهار

تأليف قسطنطين كفافى

نص مجهود اكتشافه: س. ستافيرس
ترجمها عن الفرنسية: أبو بكر العيادى

من هو قسطنطين كفافى؟

قسطنطين بىرو كفافيس ، هو الشاعر اليونانى السكندرى المعروف فى العالم كله «قسطنطين كفافى» . ولد هذا الشاعر فى ١٧ أبريل ١٨٦٢ بعاش عمره فى مدينة الاسكندرية ، وتوفى بها فى ٢٩ أبريل ١٩٩٣ . واستطاع -من مدينة الاسكندرية- أن يصل بشعره إلى قراء العالم كله ، إذ ترجمت قصائده إلى مختلف لغات العالم ، قبل ، وبعد وفاته .

كان ثقافى يعشق الأدب الانجليزى والأدب الفرنسى ، بمثل ما عشق اقامته الدائمة على شاطئ البحر الأبيض فى مدينة الاسكندرية . وكان يتحدث الانجليزية بطلاقة حتى أن لفته اليونانية -وهى اللغة الأم- تأثرت على لسانه باللكنة الانجليزية.

إن قصائد «كفافى» المهمة ، التى قدمته إلى قراء العالم ، كتبها بعد أن تجاوز عامه الأربعين . وجميعها تميزت بعمق وشفافية الرؤية إلى الإنسان والحياة ، والموت . ولذا كان يطلق على نفسه «شاعر العمر المتقدم» . أما ما نشر من قصائد «كفافى» بالرغم من عديد القصائد التى كتبها خلال إقامته فى الحياة ، فلا يتجاوز مائتى قصيدة ، وهى تلك القصائد التى طارت بأجنحة لغات

العالم إلى ملايين القراء.

ومن الجدير بالذكر ، أن «كفافي» لم يعرف عنه أنه كتب نثراً ، باستثناء رسائله ويومياته ، التي ترجمت هي الأخرى إلى عديد من اللغات ، ليس من بينها اللغة العربية.

غير أن القارئ اليوناني فوجئ في مطلع الثمانينيات بنشر هذه القصة القصيرة بقلم قسطنطين كفافي ، على صفحات الجريدة اليومية اليونانية «توفيميا» وقد عرف فيما بعد ، أن الشاعر اليوناني المعروف س. ستافيريس ، هو الذي لكتشف هذه القصة ، التي يرجع تاريخ كتابتها إلى شتاء عام ١٨٩٥ ، أي أن «كفافي» كتبها وعمره اثنان وثلاثون عاماً. عندئذ ، قام ستافيريس بنشرها في الصحيفة اليونانية «توفيميا» ، ثم ترجمها إلى اللغة الفرنسية ، ونشرت منذ عامين في باريس بمجلة «نوتاييني» التي يرأس تحريرها الناقد والشاعر الفرنسي آلان بوسكيه وهي الترجمة التي نقل عنها الكاتب والأديب التونسي -المقيم في فرنسا- أبو بكر العيادي ، النص العربي المنشور على هذه الصفحات.

بقي أن نعرف أن القارئ الانجليزي يعرف عن قسطنطين كفافي ، أكثر مما يعرف قراء العالم أجمع ، نظراً لأن الشاعر والكاتب والروائي الانجليزي المعروف لورنس داريل ، قد تناوله في عمله الروائي الكبير «رباعية الاسكندرية» كواحد من شخصيات المجتمع السكندري ، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، إذ عاشا معا تلك الفترة وعاصرا أحداث المجتمع القديم في مدينة الاسكندرية.

في وضع النهار

كنت جالسا ذات ليلة بعد العشاء في كازينو «سان ستيفانو» بالرميل ، فقد دعاني صديقي الاسكندراني الذي يسكن الكازينو وصديقي شاب وود إلى تناول العشاء معه . لم تكن هناك سهرة موسيقية والحاضرون قلة فجلسنا بكامل حريتنا .

تحدثنا في أمور كثيرة ، وبما أننا لم نكن أغنياء تطرقنا للحديث عن المال وعن الاستقلال الذي يوفره والمتع التي يولدها .

قال أحد صديقي إنه يريد أن يكسب ثلاثة ملايين من الفريكات وأخذ يصف كل ما ينوي أن يفعل بها وخاصة ما سوف يقطع عن فعله إذا قدر له أن يمتلك ذلك المبلغ.

قلت بطوري إن إيرادا سنويا قدره عشرين ألف فرنك يكفي.

أما الاسكندراني فقال:

-لو شئت لصرت الآن مليونيرا ولكني لم أجزؤ.

بدأت لنا هذه الكلمات غريبة ، فنحن نعرف جيدا حياة صديقنا الاسكندراني ولا ننكر إطلاقا أن فرصة ما اتاحت له لكي يصبح مليونيرا ، لذلك ظننا أنه لم يكن جادا فيما يقول وأن مرحلة ما سوف تعقب ذلك ، ولكن وجه صديقنا ظل رصينا حينئذ طلبنا منه أن يبين لنا ما تخفيه جملته الغامضة تردد قليلا ثم قال :

- لو كنت برفقة جماعة أخرى ، كنتك التي تضم أناسا متقدمين كما يقال ، لما فسررت قولي لأنهم لأشك سوف يسخرون مني . لكننا اليوم اليوم في مستوى غير ذاك الذي يدعيه أولئك «التقدميون» ، فقد أتممنا تطورنا الفكري بحيث صرنا من جديد بسطاء ، بسطاء دونما جهل لقد أكملنا الدورة كلها وعدنا إلى نقطة البداية . أما الآخرون فظلوا في منتصف الطريق ، لا يعلمون أين ينتهي ولا يدركون موضعهم .

هذه الكلمات لم تفاجئنا ، فكل واحد منا فكرة شاملة عن نفسه وعن صديقيه .

أردف الاسكندراني :

- أجل . لو جرؤت لكنت مليونيرا ولكني خفت حدث ذلك منذ عشر سنين . لم يكن لي في ذلك الوقت مال كثير - مثل اليوم - وبالأحرى لم يكن لي مال إطلاقا ، ولكني كنت بطريقة أو بأخرى أتقدم ، ولم أكن أشعر بالضيق بكوني أقطن منزلا بطارح شريف باشا تملكه أرملة إيطالية كان لي ثلاث غرف مؤثثة اثاثا مقبولا ، وخادم خاص بالإضافة إلى خدمات صاحبة المنزل ذات مساء ذهبت إلي روسيني وبعد أن تلت نصيبي من الحماقات قررت العودة قبل موعد النوم لأنه كان يجب علي أن أنهض من الغد باكرا للقيام برحلة إلى أبو قير كنت مدعوا إليها .

ولما وصلت أخذت أذرع الغرفة طولا وعرضا كالعادة وأنا أفكر في أحداث اليوم . وبما أنها كانت خالية من أية أهمية فقد غلبني النعاس فنمت .

نمت ساعة ونصفا أو ساعتين دون أن أحلم لأتني إذا كنت أذكر أنني استيقظت في حدود الساعة الواحدة صباحا على ضجيج في الشارع فأنني لا أذكر أنني طمت . عدت إلى النوم في حدود الواحدة والنصف حينئذ بدأ لي أن رجلا دخل غرفتي . رجل متوسط القامة لا يتجاوز عمره أربعين عاما . كان يرتدي ملابس سوداء قديمة وقبعة من القش ، وفي يده اليسرى خاتم مرصع بزمردة كبيرة ، آثار استغرابي لأنه يناقض لباسه كانت له لحية سوداء غزتها شعيرات بيض كثيرة ، وشي غريب في عينيه ، نظرات ساخرة وحزينة في الآن نفسه . ولكنه كان بصفة عامة شخصا عاديا جدا . من أولئك الناس الذين نصادفهم كل يوم . سألته عن حاجته ، فلم يجبني في الحين وظل دقائق ينظر إلى نظرة متشككة أو متفحصة كأنما يريد أن يتأكد أنه لم يخطئ . ثم قال بصوت فيه نوع من التواضع وحتى الذلة :

-أنت فقير ، أعلم ذلك، جئت أمنحك وسيلة لكي تصبح غنيا أعرف مكانا قريب مسلة يومبائى»
يحتوى على كنز عظيم مخفى .أنا لا أريد من هذا الكنز سوى علبة حديدية صغيرة توجد فى
الأعماق بكل ما تبقى سوف يكون لك.

سألت:

-روم يتكون هذا الكنز؟.

فقال لى:

-من قطع ذهبية و من حجارة كريمة على وجه الخصوص هناك عشر علب أو اثنتا عشرة
علبة من الذهب الخالص مملوكة جواهر ولالى ، وهناك أيضا فيما أظن بدا كانه يتذكر -ياقوت
أزرق-

قلت فى نفسى لماذا لا يذهب بنفسه إذن فينال ما يريد ، وما حاجته إلى. ولكنه سبق سؤالى:
-أترك ما تفكر فيه . أنت تتسائل لماذا لا أذهب بنفسى فلأخذ ما أريد؟ هناك ما يمنعنى ولكنى
لا أستطيع أن أقول لك ما هو . هناك أشياء لا يمكن أن أتيتها بنفسى.

حين قال «بنفسى» لاح بريق فى عينيه ، وفى لمح البصر عبرت وجهه عظمة رهيبة ، ولكنه
سرعان ما استأنف كلامه بنبرته المتواضعة:

-وبذلك تسدى لى معروفا . أنا فى حاجة ماسة إلى شخص ما وقد اخترتك أنت لاننى أريد لك
الخير . تعال غدا ستنتظرك من الزوال حتى الساعة الرابعة فى الميدان الصغير» فى المقهى
المحاذى لسوق الحدادين.

على هذه الكلمات اختفى

من الغد، حينما أفقت لم أنكر فى البداية شيئا من الحلم . وبعد أن غسلت وجهى وجلست
لتناول فطور الصباح خطر ببالى وبدا لى غريبا ودعوت فى سرى أن يكون حقيقة ، ثم نسيت.
قمت بالرحلة وتسليت كثيرا.

كان عنينا مرتفعا كنا ثلاثين تقريبا ، رجالا ونساء . فى بهجة نادرة. لن أخيف أكثر من هذا
لأنه خارج عن موضوعنا.

هنا لاحظ صديقى د:

-لأجوبى من ذلك، فانا ، على الأقل ، على علم بما جرى . إن لم تخنى الذاكرة .أنا أيضا
شاركت فى تلك الرحلة.

-كنت معنا ؟ لا أنتذكر.

-أليست الرحلة التى نظمها ماركوس ج. قبل أن ينتقل نهائيا إلى انجلترا؟.

-بالضبط . تذكر إذن تلك الأوقات الممتعة التي قضيناها معا . الزمن الجميل . الزمن الضائع .
سيان لنعد إلى موضوع حديثنا . قلت إذن اننى عدت من الحفل مرفقا في وقت متأخر . لم يكن
أمامى إلا قليل من الوقت لأغير ثيابى وأتناول شيئا من الطعام . ثم أقصد عائلة صديقه حيث
تقام سهرة للعب الورق . بقيت ألعب حتى الساعة الثانية والنصف صباحا ، وريحت مائة وخمسين
فرنكا وعدت فرحا . تمددت فى فراشى جذلان وسرعان ما غلبنى النعاس والارهاق.

لم يكن النوم يكحل جفونى حتى حدث شئ غريب . رأيت نورا فى الغرفة فتعجبت كيف لم
أطفئه حينما هممت بالنوم ولكنى لمحت رجلا قادما من آخر الغرفة- كانت غرفتى كبيرة- حيث
الباب. عرفته فى الحين . كان يرتدى الملابس السوداء نفسها وقبعة القش العتيقة ذاتها . بدا غير
راض حين قال لى:-انتظرتك من الزوال حتى الرابعة فى المقهى لماذا لم تأت ؟ أعرض عليك ثروة
ولا تقبل؟ سأتربك من جديد هذا اليوم فى المقهى بين الزوال والرابعة لا تتأخر.

ثم اختفى مثل المرة السابقة.

أما أنا فقد استيقظت مذعورا . كانت الغرفة مظلمة . أنرتها . كان الحلم حقيقيا وحييا بشكل
جعلنى أبقى مبهورا ومرهقا . لم أستطع أن أمنع نفسى من التكدس إن كان الباب لا يزال مغلقا
بافتتاح كان الباب موهدا كالعادة كانت الساعة الحائطية تشير إلى الثالثة والنصف . لقد نمت
عند الساعة الثالثة.

لا أخفى عليكما . لا أشعر بالخجل حين أعترف اننى كنت فى غاية الارتباك لم أعد أجرب على
أعضاء عينى مخافة أن يأخذنى النوم فأرى من جديد زائرى العجيب جلست على كرسي وقد
استبد بى التوتر فى حدود الساعة الخامسة بدأ النهار يطلع . فتحت النافذة ونظرت إلى الشارع
وهو يفيق شيئا فشيئا . بعض الأبواب انفتحت ، باعة اللبن الميكرون مروا ، وكذلك أوائل عربات
الخبازين هدأنى ضوء النهار قليلا فعدت إلى فراشى ونمت حتى الساعة التاسعة.

حين أفتت بدأ الاحساس الذى تركته ذكرى اضطرابى الليلي يفقد كثيرا من توجهه ، بل اننى
تعجبت كيف انفلتت ذلك الانفعال فكل إنسان يرى كوابيس كثيرة . أنا نفسى رأيت كثيرا من
الكوابيس فى حياتى . وما رأيته لم يكن كابوسا باتم معنى الكلمة . صحيح اننى رأيت الحلم
نفسه مرتين ، ولكن ماذا يعنى ذلك، ثم هل هناك ما يؤكد اننى رأيته مرتين ، ألا أكون قد حلمت
اننى رأيت الرجل نفسه من قبل؟ بحثت كثيرا فى ذاكرتى ثم تخلت عن هذه الفكرة . المؤكد اننى
رأيت هذا الحلم أول الباردة . وما وجه الغرابة حتى فى هذه الحالة؟ يبدو أن الحلم الأول كان حيا
وأثر فى كثيرا بشكل جعلنى أراه مرة ثانية . هنا صار منطقي الاستدلالى يفقد تماسكه . ذاك
اننى استغريت عدم احتفاظى بذكرى حلمى الأول ، فهو لم يجل بخلدى فى أية لحظة طوال اليوم

الموالى . إذا كنت أثناء الرحلة أو خلال السهرة أفكر فى شئ مغاير تماما للحلم ، فماذا يعنى ذلك؟ ألا يحدث غالبا أن نطم بأشخاص لم نرهم منذ سنوات عديدة ولم نعد نفكر فيهم إطلاقا منذ مدة طويلة؟ يبدو أن ذكراهم تظل محفورة فى ناحية ما من الذهن فتظهر فجأة فى الحلم. لذلك ما الغرابة ان حلمت بالشئ نفسه فى ظرف أربع وعشرين ساعة وحتى وإن لم يخطر ببالي أثناء النهار . علاوة على ذلك قلت فى نفسى أننى ربما قرأت فى مكان ما حكاية كئز مخفى فعلق قطعا فى ذاكرتى دون وعى منى، ولكن عينا فتشتت عن هذه القراءة.

فى النهاية سمعت التفكير فارتيت ثيابى . كنت مدعوا لحضور حفل زفاف ، وسرعان ما طرد اختيار البدة والعجلة ذلك الحلم من بالى . جلست لتناول فطور الصباح وبحث أقرأ نورية منشورة فى المانيا -المساء- فبعيا أظن- حتى أقضى ساعة.

ذهبت إلى حفل الزفاف حيث تجمع أعيان البلاد كانت لى فى ذلك الوقت علاقات كثيرة ، ولذلك كان على أن أكرر مرارا عديدة أن العروس جميلة جدا وإن كانت شاحبة قليلا وأن العريس شاب ذو قيمة كبيرة وأن له مالا ، وأشياء أخرى من هذا القبيل. فى حدود الساعة الحادية عشرة والنصف أسدل الستار على حفل الزفاف فقصدت محطة ترام «بولكى» لأعين منزلا نصحونى به قصد اكترائه لعائلة المانية من القاهرة كانت ترغب فى قضاء الصيف بالاسكندرية . كان المنزل فى الواقع مشبعا بالهواء ، مرتب الاثاث ، إلا أنه لم يكن كبيرا مثلما قيل لى . وبالرغم من ذلك وعدت صاحبته بأننى سأقول أنه منزل مقبول . شكرتلى المرأة شكرا مغرطا وأخذت تحدثنى عن كل المصائب التى ألمت بها لاستعطافى : كيف ومتى توفي زوجها المسكين وكيف زارت أوروبا ، وأنها لم تعود تأجير منزلها ، وأن والدها كان طيبا . لست أدري لأى باشا .. إلخ.. أنهيت هذا الواجب عدت إلى المدينة . وصلت إلى بيتى الساعة الواحدة فاقطرت بشهية بعد الغداء والقهوة خرجت لزيارة صديق يقيم بفندق قريب من «مقهى الفريوس» لتتفق على شئ نقوم به بعد الظهر كنا وقتئذ فى شهر أغسطس وكانت الشمس محرقة . نزات شارع شريف باشا بخطوات بطيئة حتى لا أعرق كان الشارع فى مثل هذا الوقت خاليا . لم يصافنى سوى محام كانت لى به صلة من أجل بيع قطعة أرض صغيرة كنت أملكها فى محرم بيه . كان آخر جزء من قطعة كبيرة بعثا شيئا فشيئا لتغطية جانب من مصاريقى كان المحامى رجلا شريفا ولذلك تعاقدت معه ، ولكنه كان ثرثارا ، وكما كنت أفضل لو سرقنى قليلا عوض أن يزعجنى بهترة . تدرع بشئ لا معنى له لينطلق فى خطبة لا تنتهى وأخذ يتحدث عن القانون التجارى والقانون الرومانى مستشهدا بجوستينيوس ومذكرا بقضايا سابقة تولى الدفاع عنها فى «سميرنا» مادحا نفسه بنفسه . وكان يشرح لى ألف مسألة ومسألة ، ماسكا بثيابى وهو ما يفرغنى غاية القرف . كان على أن تحمل هذر ذلك

الشخص البليد وأن أغتتم فرصة خفوت حماسه لأسأل عن عملية البيع فهي بالنسبة إلى مسألة حيوية، مما جعلني أحيد عن طريقي وأتبعه . سرنا على رصيف البورصة في ميدان القناصلة، ثم دخلنا ممرا صغيرا يربط «الميدان الكبير» بـ «الميدان الصغير» ولما وصلنا أخيرا إلى وسط «الميدان الصغير» كانت كل الملوهمات التي أرغب فيها بحوزتي . ودعني المحامي بعد أن تذكر أنه سيزور أحد عملائه الذين يسكنون في هذه المنطقة . تابعته بنظري لحظات ولعنت ثرثرته التي أبعدتني في هذا الحر، وتحت هذه الشمس عن طريقي.

كنت على وشك الرجوع لأتجه إلى الشارع الذي يوجد به «مقهى الفردوس» حين انتبهت فجأة أنني موجود في «الميدان الصغير» تساطت في البداية عن وجه الغرابية في ذلك ثم تذكرت الحلم «هنا موعد ذلك الرجل صاحب الكنز» قلت ذلك في نفسي وأنا ابتسم والتفت بصورة آلية إلى المكان الذي يوجد به بعض الحدادين.

ياللهول ! كان شمة فعلا مقهى صغير وكان يجلس فيه ذلك الرجل نفسه . أحسست بدوار وخلت أنني ساقع على الأرض . استندت إلى تحشيبية ونظرت إليه مرة أخرى . الملابس السود نفسها ، وقبعة القش عيناها ، بالسحنة ذاتها والنظرة هي هي . كان هو أيضا يراقبني بشكل متعال . أحسست بنوع من التوتر العصبي حتى أنني ظلت أن حديدا انصهر داخلي لقد أقعديني أن أرى الناس في وضوح النهار يرمون نون أن يبال بئى شئ موأنى أنا ، أنا وحدي الذي يعلم بالأمز الرهيب الذي يحدث ، وأن هناك يجلس شبح لست أدرى أى قدرات له ومن أى كوكب مجهول ، من أى جحيم ، أتى . وصرت أرعد . لم يكف الشبح عن النظر إلى خشيت أن ينهض ويقترب مني ، وأية قوة أنمية يمكن حينئذ أن تساعدني؟.

قفزت في عربة خيل وأعطيت الحوذي عنوانا بعيدا لم أعد أذكره.

حينما ثبت إلى رشدي لاحظت أنني كنت أصل إلى «سيدي بشر» . سلكت أعصابي وأعدت النظر في أمرى . أمرت الحوذي بالرجوع إلى المدينة وقلت في نفسي «لقد جفنت» . لا شك أنني أخطأت قد يكون شخصا يشبه رجل الحلم . يجب أن أعود لكي أتأكد . ربما انصرف وهذا دليل على كونه شخصا آخر . لأن الرجل قال أنه سوف ينتظرني حتى الساعة الرابعة .

غصت في أفكارى حتى «أشرفت على مسرح «زيزينيا» هناك استجمعت كل شجاعتي وأمرت الحوذي بأن يقودني إلى «الميدان الصغير» كان قلبي يبق بعنف كلما اقتربت من المقهى . أوقفت الحوذي على مسافة غير بعيدة جنبته من يده بقوة حتى كنت أوقعه من مقعده لأتني رأيت يزداد اقترابا من المقهى مثلما رأيت الشبح لا يزال جالسا هنا .

عندئذ أخذت أنقصه مليا عسى أن أجد شيئا بينه وبين رجل الحلم وكان ذلك غير كاف

لاقتاعى بفلى إنسان غريب لا يحتمل أن يجلس شخص مليا، ولابد أن يستجلى الأمر . أما هو فقد ثبت عينيه فى عيني بقوة وكانت سحته تثنى بالقلق الناجم عن القرار الذى سوف أتخذه . بدا أنه سبر أفكارى مثلما سبرها خلال الحلم ، ولكن يزيل عنى كل نوع من الشك فى هويته أدار نحوى يده اليسرى وأوراني خاتم الزمرد الذى أثار انتباهى أثناء حلمى الأول، بشكل واضح حتى أننى خشيت أن يلحمه الحوى.

أطلقت صيحة فزع وقلت للحوى الذى بدأ يشك فى مداركى أن يقوننى إلى «شارع الرمل» لم يكن لدى سوى فكرة واحدة، أن ابتعد فى شارع «الرمل» أردت أن أواصل طريقى إلى سان ستيفانو ولكنى رأيت الحوى يتردد ويتم فنفعت له أجره ونزلت . أوقفت عربة أخرى قانمتى إلى «سان ستيفانو».

وصلت هنا فى حالة يرثى لها دخلت قاعة الكازينو واستولى على الرعب حين شاهدت وجهى فى المرأة كتكت شاحبا مثل جثة. من حسن حظى أن القاعة كانت خالية. تهالكت على كنية لأفكر فيما ينبغي القيام به كان أمرا مستحيلا أن أعود إلى بيتى ، أن أعود إلى تلك الغرفة التى دخلها ليلا مثل طيف وهمى ذلك الذى رأيته منذ قليل جالسا بمقهى ، فى هيئة رجل عادى ، فهذا ليس وراداً لإطلاقا . لم يكن الأمر منطقيا إذ هو قادر أن يلقانى فى أى مكان . لقد صرّت أفكر بطريقة مشوشة وفى النهاية قررت أن ألتجئ إلى صديقى. ب الذى كان يسكن فى محرم بيه

سألته:

«أى ج. ب ؟ أتعنى ذلك الشخص غريب الأطوار الذى يتعاطى دراسة السحر؟»
«هو نفسه . وقد اعتبرت ذلك عند اختيارى . لا أنكر كيف ركبت القطار وكيف وصلت إلى محرم بيه ، وأنا أقلب النظر يمينا وشمالا كالمجنون مخافة أن يظهر الشبح من جديد إلى جانبنى ولا كيف أنهرت أخيرا فى بيت ج. ب لم احتفظ من ذلك الا بذكرى مبهمه ومشوشة . أنكر فقط أننى جعلت أبكى بهيستريا وأختص بكامل جسدى وأروى له مفامرتى المرعبة. هدا ج. ب روعى وقال لى بمنزج من الجذ والهزل لا داعى للخوف بالشبح لن يتجاسر على اقتحام بيتى . وإذا جاء فإنه سوف يطرده فى الحال.

قال إنه يعرف هذا النوع من التجليات الخارقة ويعرف أيضا طرق التخلص منها . والى على أن أقتنع بأنه لم يعد هناك داع للخوف لأن الشبح جاعى لغاية معينة وهى أن آتبه بعلبة الحديد التى لم يكن باستطاعته فيما يبدو استرجاعها دون مساعدة رجل ما . هذه الغاية لم يحققها ، ولا شك أن فرعى قد جعله يترك أنه لم يعد ثمة أمل فى تحقيقها . ربما يذهب لاقتناع شخص آخر. ب

تأسف فقط لأننى لم أطمه فى الوقت المناسب حتى يذهب لرؤية الشبح والتحدث إليه، ففى مسألة



الاشباح-كما قال-من النادر جدا أن تظهر الأرواح أو الجن في وضع النهار . ورغم ذلك لم أطمئن وقضيت ليلة مضطربة وأفقت من الغد وأنا اتقد من الحمى وقد أحدث جهل الطبيب من جهة وتفاقم حالة جهازى العصبى احتقاناً فى المخ كاد يودى بحياتى . ولما تماثلت للشفاء أردت أن أسأل عن تاريخ اليوم الذى أنا فيه . لقد مرضت يوم الثالث من أغسطس وكنت أعتقد أن اليوم هو السابع أو الثامن من الشهر نفسه ولكن اتضح أننا فى الثانى من سبتمبر.

رحلة قصيرة إلى جزيرة بيجر ايجه عجلت بشفائى خلال المدة التى استغرقها مرضى بقيت عند صديقى ب. الذى تولى علاجى والعناية بى. كان يتذمر فى سره من شئ واحد: لم تكن لديه الجرأة لطرد الطبيب ومعالجتي بالسحر الذى يعتقد أنه يشفينى - وهو ما أعتقدته أنا أيضاً- أسرع من الطبيب . هى ذى الفرصة التى سنحت لى لكى أصبح مليونيراً ولكنى لم أجرو . لم أجرو ولم أندم على ذلك.

هنا سكنت الاسكندرانى لقد كانت حكايته على درجة من اليقين والبساطة بحيث لم يعد ثمة موجب للتعليق . ثم أن الساعة جاوزت منتصف الليل بسبع وعشرين دقيقة يوماً أن آخر قطار ينطلق فى منتصف الليل والنصف فقد ودعناه وانصرفنا مسرعين.



الاسكندراني التائه

محمد الباز

إذا كنت معتزاً بنفسك فلا تصادق إسكندرانى ولا تمعل سره، فهو لا يرى فى مرآة الحياة إلا نفسه ، يفهم كل شئ ، يجيد كل شئ، يعتقد أنه قادر على تحقيق المعجزات ، ويتصور أنه لا يمنعه شئ عن تحقيق ما يريد ،حتى الموت يسخر منه ، يتوعدة فى سره وينتظره بلا خوف ظاناً أنه سيتعامل معه بطريقة عندما يأتيه.

إنسان يحمل هذه السمات لن تتجح علاقتك به إذا كنت متفوقاً ، فهو يكره الآخر المتفوق عليه حتى لو كان اسكندرانى مثله ، ولذلك ستجده مبالفاً فى إثبات أنه الأكثر أهمية فى أى مكان يكون فيه ، هذا على اعتبار أنه الأعلم والأفقه والأذكى ، الذى يعرف كل شئ عن أى شئ ، يجرب نفسه مع الاسكندرانى على اختلاف ثقافتهم ، لن تذكر أهامهم شيئاً مررت به إلا حدثوك عنه بحكايات طويلة وروايات متقنة ومواقف محكمة ، لا تستطيع أن تفرق فيما بين الأكاذيب والحقائق ، فالاسكندرانى حتى لو كان آمياً فهو حكاة عظيم.

لا يفعل الاسكندرانى ذلك لخلل نفسى يعانى منه ، أو الاحباط يلم به، فليس سهلاً أن تعثر على اسكندرانى محيط ، يحدث ذلك لسببين ،الأول علاقته بالبحر التى تمنحه قوة هائلة وتملحه طاقة أسطورية تجعله يرى نفسه إنها أو على الأقل نصف إله ، والثانى ما يحمله على كتفيه من تراث حضارى هائل ،

جمله يتأكد أنه الأحق بالريادة والصدارة وإمامة الصقوف حتى لو كان لا يملك من مقومات ذلك ما يعنيه ويقويه ويدعمه.

لم يسعنى زمانى بالإقامة فى الاسكندرية لا مصيفا ولا عابراً .. لكنى عايشت أطرافا من بعض أهلها .. أساتذة جامعة وصعايك .. صحفيون وياعة جاثون .. مثقفون وصنابعي قابلتهم خارج حدود سيطرتهم .. بعيدا عن أسوار مدينتهم .. أول ما تراه فى الاسكندرية خارج أرضه أنه متوتر للغاية .. حائر -غير مستقر- لكن ولأنه يحب الحياة فإنه يبحث عن الاستقرار والصياغة المناسبة لواقع جديد نزل عليه.

حدث هذا تحديداً فى القاهرة ، المدينة التى لاتهدئ فى وجوه الفرياء حين ينفقون بابها ، ولا تحنو عليهم عندما يحاولون أن يأخذوها قراراً ، يستسلم الفلاح لشروط القاهرة يقبل الإمانة يتحمل الذل كى يعيش ، الصعيدي يبحث عن عزوته ، ينهب إليهم ويولى وجهه شطرمهم حتى يعينوه على المرأة اللعوب ، الاسكندراني مختلف تماما ، يأتى القاهرة وهو يعرف ضرورها ، يقرر من البداية أن يعاركها- . ويطنئ نفسه أنه فى النهاية سيصرعها- ليس لأن القاهرة سهلة .. ولكن لأنه هو القوى.

يدخل الاسكندراني القاهرة فى جلبة تليق به .. يتحدث أن يعرف ومن لا يعرف بحكايات عن أمجاده ويطولاته وفتوحاته ، مع أنه فى اللحظة ذاتها قد يكون على فيض الكريم ، لا يعرف أين سينام ليلته .. ولا ماذا سيكون عشائه ، قد لا يكون الاسكندراني كنويا بطبعه لكن مؤكداً أنه يبالغ فى كل شئ يقطعه ويقول ويقدم عليه ، يفعل ذلك طلبا للحماية المفقودة ، فطالما هو يعرف .. يحكى .. يقضى .. يفصل فى الأمور .. فلا بد أن يحتاج الآخرون إليه .. وقد فطر الناس على أن قيمتهم فى الحياة تحددها حاجة الآخرين لهم.

واحد من أبناء الاسكندرية حاول أن يبرر لى مبالغة أبناء مدينته فى الحكى ولظهار أنفسهم كبطال خارجين لتوهم من روايات أسطورية ، يأنهم يفعلون ذلك حيا فى الحياة فهم يعشقونها يهيمون بها .. وما حكاياتهم وأحاديثهم المتواصلة حتى فيما لا يملون إلا تكليدا لحيويتهم وقدرتهم على بعث الروح فى أى مكان يجلسون فيه وارنقات .. لهم لا يحيون الهوى .. لأن الحياة ليست هائلة .. ولا يركنون إلى الدمة .. لأن الحياة صاخبة ومجنونة ، ولكن تثبت أنك تحبها فلا بد أن تكون لجن منها وأصعب.

التبرير لا يقف على قدمين فكلنا نحب الحياة .. لكننا لا نفعل مثل الاسكندرانية الذين لا يكونون عن الكلام بالصدق والكذب .. بالحقيقى والمزيف .. بالواقعى والخيالى سا يقطعه الاسكندراني فى نهايته حيلة دفاعية عن النفس - فهو يحاول أن يبدو أكبر من حجمه .. وانك يكتب- يريد أن يعتقد فيه الآخرون فيحكى لهم عن أحداث ووقائع عاشها بنفسه وكان فيها هو مركز الدائرة التى يدور الجميع على محيطها ، يرغب أن يجمع الناس حوله فيجذب إنتباههم بكلمات يستخمنها كمفاتيح تجده يقول لك .. أنا فى الموضوع ده أقدر أفيدك .. إنت مش واحد بالك .. صدقتى أن عارف بقول إيه .. الموضوع ده بالتحديد عملت فيه بحث مهم جدا .. أنا الوحيد فى مصر اللى يفهم فى الموضوع ده .. وقيل أن تمير عن إندهاشك تجده يهاجمك

بحكايات لا أول لها ولا آخر ، لأنه يعلم أنه إذا توقف لحظة واحدة فسوف تنصرف عنه وتتركه لحكاياته التي إذا فكرت فيها تجدها هزلية للغاية. للغاية.

يظل الاسكندراني أمنا في أرضه . ولكنه يتوه خارجها -لأنه لكي يتأصلج- أنضج البحر الذي بلا حدود برائحة يوده وحيوية فسفوره . فإنه يحدد طريقه بسرعة . يتعامل مع إحساسه بالخوف من الآخرين . في تقتصمهم قبل أن يقتحمهم .. ولا مانع لديه من أن يدخل في شجار عنيف حتى يلتقت الآخرين له .. لا يعمل لذلك حساباً ولا يقدر له عواقب . وكان سهلاً على بيرم القوقسى الشاعر المعجون بطين الاسكندرية أن يلتقط هذا المعنى الكامن في شخصية أهله ..

الاسكندراني إذا تمس

يفقد صوابه ويتطمس

لحد ما يروح متكيس

في نقرة إبليس يقشاه

فهم يلقون أنفسهم في النار فارين في الهواء قلوبهم ، وعندما يخرجون محترقين يقولون لك ببساطة . لقد أكلناهها .

ما يحبك في الاسكندراني رغم ضوضائه أنه في داخله طيب للغاية ، تظف شخصيته مسحة حنان تجدها في نبرة صوته ونظرة عينيه ، ولعل هذه المسحة رد فعل عكسي على قسوة البحر الطاغية ، التي تقذفه إلى جوار الخير والرزق بلخبار الموت والدمار والفرق ، هذا النمان تعثر إلى جواره على ماطفة جياشة تسيطر وتحكم علاقة الاسكندراني بمدينة التي يعتيرها ظهره ويمكن إبداعه ، فالفلاح الذي يستقر في القاهرة يمكن أن ينسى قريته والصعيدى يظل عامياً أو عامين حتى يزور أرضه وأهله ، لكن الاسكندراني لا يصبر على الفراغ -يشفق سريراً إلى رائحة البحر وصوت أمواجه ، فتجده لا يفيد عنها .. يل يظل الاسكندراني متوتراً حتى يزور شارع حاربه فيستعيد توازنه النفسى .

تودع الاسكندرية أبنائها سرها وتلقها فيبيصون ، شعب كله يبدع شعراء وكتاب وصحفيين ، مخرجين وممثلين وراقصات ، كل هؤلاء لا يحتاجون شهادة تؤكد تفوقهم والتاريخ طويل وممتد من عيد الله التميم إلى يوسف شاهين ، وكثرة الأسماء تقينا هن نكرها ، لأن حصرها يرهقنا ويعجزنا ويظهرنا مقصرين ، لكن ما يخلص ضمائرنا أن نقول أن الاسكندرانية فطروا على الإبداع ، لا فرق في ذلك بين العالم الذي قضى حياته في معمل ، والبائع الجوال الذى يبيع التسالى في محطة الرمل .

إن المدينة الرائعة لا تفر أبنائها بعيقريتها فقط ، بل تتجاوزهم إلى غيرهم من أبناء المحافظات الأخرى ، حتى تكاد تحسبهم أنهم من أهلها ، يتحدثون عنها كأنهم ولوا فيها وتربوا على نصيحها ، أسامة أنور عكاشة الكاتب الغد وقع في غرامها ، توافق مزاجه مع مزاجها فلما صبح بعضاً من كيانتها ،



ورغم أنه من كفر الشيخ لكته لا يكتب إلا في حب الاسكندرية الجميلة.. راجع رائعته «الراية البيضاء» ..علاقة أسامة بالاسكندرية تؤكد أن المدينة الساحرة مثل النذاهة التي لا يستطيع أحد أن يرد لها طلبا ، يرحل إليها الجميع حتى ولو لم يعرفوها بحثا عن معنى مفقود، لا يجلونه بسهولة ، لكنهم لا يترددون في العودة والإقامة والتغنى بالسحر الغامض الذي يبثه بحر الاسكندرية الكبير.

النذاهة تشعر صفارها بالفقر، فلا يوجد من لا يحب الاسكندرية ، حتى الذين يكرهونها لا يستطيعون أن يجاهروا بذلك، ولذلك لا يتردد الاسكندرانى أن يعلن هويته ، الآن اسم مدينته له فعل السحر، الذين يستمعون له ستفرق أحاسيسهم ..منهم من سيحبه إكراما لمدينته ، ومنهم من سيحسب له حسابا لأنه فهلوى ، ومنهم من سيتماشاه حتى لا يتورط معه فى معركة فى النهاية ليست جادة فالاسكندرانى يرفع شعار «خافه ولا سب دين» ، ومنهم من سيركبه بويرحل لأنه لا يملك شيئا يتفاخر به. هي مدينته استثنائية.

وهو مواطن استثنائى ..

ورغم أنك قد ترفض ضخبه .تفضب من ضجيجه -تندش من قدرته على الحكى الحقيقى والمزيف .. تتعجب من خياله -تفرح من طول لسانه -لكك أن تمنع نفسك من الإشفاق عليه .فهو يبحث عن التحقق حتى ولو بالكذب .وشخص مثل هذا لا تملك أن تكرهه .كل ما ستفعله تبتسم فى وجهه وتندش له وتواصل استماعك لحكاياته التى تعرف إنها ليست حقيقية!.



الشخصية المسيحية

فى رحلتها على الشاشة الفضية

انتصار بهر

بين مايقرب من ثلاثة آلاف فيلم أنتجتها السينما المصرية على مدار تاريخها ، ظلت الشخصية المسيحية تظهر على استحياء على الشاشة الفضية وأحياناً كضيف شرف، بينما لم تصل إلى البطولة المطلقة سوى ٢٣ مرة فقط !!

تلك الندرة المفرطة فى الاقتراب من الشخصية المسيحية جعلتها من المسائل الشائكة لدى صناع السينما وأجهزة الرقابة والهيئات الدينية المختلفة وحتى الجمهور وأيا ماكانت الأسباب فإن الضحية هو الإنسان المصرى المسيحى الذى تخلت السينما عن همومه وتفاصيله الحميمة وعندما حاولت الاقتراب منه فى أحسن الأحوال لم تقدمه كإنسان من لحم ودم.

هذا ما يؤكد أنه أرشيف السينما المصرية الذى تجولنا فى أوراقه لعنا نعرف الأسباب.

الغريب فى الأمر أن البدايات الأولى لصناعة السينما فى مصر تشير لعدم وجود تلك الحساسية المفرطة على الإطلاق ، فبعد تجاوز السينما لمرحلة الإسهامات العشوائية للمخرجين الأجانب سواء العابرين أو المقيمين وانتقالها إلى مرحلة الصناعة الحقيقية على أيدي سينمائيين مصريين ، تحديداً فى

عام ١٩٢٣ الذى شهد عرض أول فيلم مصرى روائى قصير تحت عنوان « يرسم بيحث عن وظيفة » للمخرج المصرى محمد بيومى هذا التاريخ يؤكد أن أول بطولة مطلقة فى السينما المصرية كانت لشخصية مسيحية ، وقيل وقتها إن الفيلم بداية لسلسلة أفلام تحمل اسم البطل ورغم عدم اكتمال تصوير الفيلم لا لأسباب تتعلق بالرقابة أو دواعى الأمن وإنما لوفاة الطفل محمد يوسف ابن المخرج أثناء التصوير ، مع ذلك أمكن عرض الفيلم لمدة ١٢ دقيقة بأحدى دور العرض السينمائى بالإسكندرية ، تلك البداية غير المتحيزة عقائدياً كانت السمة المميزة للمجتمع المصرى حتى أواخر الأربعينيات.

المثير للدهشة أنه بعد هذا التاريخ المبكر بدأ احتكار الشخصية المسلمة لأنوار البطولة بينما انحصرت البطولة المسيحية لتظهر فى الأنوار النسائية فقط.

فمع بداية عام ١٩٢٨ قدمت السينما فى مصر مجموعة من الأفلام تكرر أحداثها حول علاقة الزواج بين شاب مصرى (مسلم) وفاتة أجنبية (مسيحية) وكانت أحداثها تكرر حول مشاكل هذه العلاقة لا من منظور دينى ولكن من منظور اجتماعى يبرز التناقض الحاد بين العادات والتقاليد الشرقية والغربية وينحاز فى ذات الوقت لتقاليد المجتمع الشرقى ، وهى أفلام « قبلة فى الصحراء » عام ١٩٢٨ إخراج وسيناريو وتمثيل إبراهيم لاما وايفون جوين وفيلم « وخز الضمير » عام ١٩٣١ ، وفيلم « أولاد اللوات » عام ١٩٣٢ وفيلم « الخطيب رقم ١٢ » عام ١٩٣٣ ثم فيلم « ياقوت » عام () .

ولانبرى هل كان اختيار الإسلام الهوية الدينية للبطل - الذى يمثل المجتمع المصرى الشرقى - فى تلك الأفلام مقصوداً أم جاء مصادفة ، على أية حال فإن تنوع البناء الاجتماعى فى ذلك الوقت واختلاف انتماءاته العقائدية والجنسية حتى أواخر الأربعينيات يجعلنا نستبعد فكرة القسدية ، خاصة وأن السينما قدمت فى عام ١٩٣٧ أى بعد أكثر من عشر سنوات من عرض فيلم « يرسم بيحث عن وظيفة » سلسلة أخرى من الأفلام تحمل اسم البطل ولكنه فى هذه المرة يهودى النشأة ، هذه الأفلام هى « شالوم الترجمان » و « شالوم الرياضى » و « العز بهله » من إنتاج وإخراج توجو مزراحى وتصوير عبد الحليم نصر وتكرر أحداثها فى شكل كوردي محبوب جماهيرياً وقد حرصت الأفلام الثلاثة على إظهار الأسرة اليهودية مجاورة للأسرة المسلمة ووطئت بين أفرادها بعلاقات صداقة وطيدة فى إطار من تفاصيل الحياة اليومية المتشابكة .

اللائق للنظر هو غياب الشخصية المسيحية أكثر من عشرين عاماً واختفاؤها عن الكادر السينمائى تماماً قبل أن تعود الظهور على شاشة السينما فى فيلم « حسن ومرقس وكوهين » إخراج فؤاد الجزايرلى فى بطولة جماعية إلى جوار البطل المسلم والبطل اليهودى والفيلم مأخوذ من مسرحية لنجيب الريحانى وألعب البطولة فيه عبد الفتاح القصرى (حسن) ومحمد كمال المصرى (شرفناطح) فى دور (مرقس) واستيفان روستى فى دور (كوهين) ورغم تأكيد الفيلم على مفهوم الوحدة الوطنية بين

الأبطال الثلاثة إذ قنمهم الفيلم باعتبارهم شركاء في المال والمصلحة وأصحاء في الحياة وجعلهم يرددون في آخر الفيلم جملة (كلنا إيد واحدة) إلا أنه وضع صفات محددة لكل شخصية تمثل الديانة التي تنتمي لها مستعينا بالموثوث الشعبي السليبي تجاه تلك الشريحة وهي للأسف الصورة التي ترسخت في أذهان المصريين حتى وقتنا هذا ، فقد وصف كل شريك من الشركاء الثلاثة في كثالوج الدعاية كما يلي (حسن) المسلم الذي يتميز بالسماحة والإندفاع وسرعة الغضب والرضا وسهولة الانقياد لشريكه ثم وصف (مرقص) المسيحي بالكر والدهاء والتظاهر بالطيبة وحدد البلدة التي ينتمي إليها في صعيد مصر (أسبوط) ومن العجائب أنها ذات البلدة التي كانت بؤرة للجماعات الدينية وشهدت أعنف حوادث العنف ضد الأقباط في الربع الأخير من القرن الماضي ، أما اليهودي فقد وصفه بالخث والنكاء واصق به أخط الصفات مثل قوى على الضعيف وضعيف أمام القوى، ويؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة وهي صفات أيضا تلك لمسيحية باليهودي في الوجدان المصري حتى الآن.

كما جاء وصفهم بكتالوج الدعاية من حيث الترتيب على النحو التالي المسلم أولاً ثم المسيحي ثم اليهودي وإن كنا نستبعد القصيدة في هذه المسألة لارتباط ترتيب أسماء الممثلين بترجة التجميلية وقيمة الأجر وهو عرف في الوسط الفني.

ويتأكد التلميط السابق نكره في الطبعة النسائية من الفيلم الذي عرض عام ١٩٤٩ تحت عنوان " فاطمة وماريكا وراشيل " إنتاج وإخراج حلمي رفلة ويأتى التلميط هذه المرة مع درجة من الانحياز الديني الغير صريح ، فالبطل الأول مسلم والبطولة النسائية (المسيحية) جاءت من الدرجة الثانية على عكس الفيلم السابق الذي جاءت فيه البطولة جماعية وبالتساوي ثم جاءت أحداث الفيلم في نفس الإتجاه حيث تدور الأحداث حول شاب مستهتر يحاول الإيقاع بـ فتاة مهما كانت جنسيتها أو ديانتها بالتحايل على أسرة كل فتاة تنتمي إلى دين معين مدعياً انتماءه لهذا الدين وإلى نفس الأصول التي جاءت منها ومقلداً كل صفاتها التي جاءت تكريساً لنفس صفات كل ديانة في فيلم (حسن ومرقص وكوهين) ثم في النهاية يرتبط الشاب المسلم بالفتاة المسلمة (فاطمة) لنيل أخلاقها وقوة شخصيتها وعزة نفسها على عكس الآخرين وحتى لا يقع الفيلم في دائرة الاستهجان جعل كلا من الشخصية المسيحية واليهودية من أصول أجنبية وفي إطار مواقف كوميدية تعتمد على المفارقات الصارخة طوال أحداث الفيلم.

في ٢ مارس عام ١٩٥٢ ظهر الإنحياز المقائى واضحاً في فيلم " ليلة القدر " مما أثار حوله جدلا شديدا حيث تعرض الفيلم لمعالجة زواج بين شاب مسلم يتمسك بتعاليم الاسلام وينص إليها من فتاة مسيحية بعد إشهار إسلامها وسط معارضة شديدة من أسرتهما وإصرار هذه الأسرة على منع زواج ابنتها عن طريق إفساد أخلاقها بالحفلات الخلعية التي يفهم منها أنها عادات مسيحية.

ويعتبر هذا الفيلم بداية لتدخل المؤسسة الدينية وفرض سلطتها في منع وعرض الأفلام السينمائية فيما بعد ، حيث استقر الفيلم جميع رؤساء الطوائف الدينية المسيحية وذهب مندوبيهم للإجتماع بمدير الرقابة على الأفلام بوزارة الداخلية ، كما أرسل رئيس لجنة تقدير الفيلم الأنبياء للفيلم في المركز الكاثوليكي رسالة إلى الأنبا يوسف بابا الكرازة المرقسية في ٦ مايو ١٩٥٢ يطالبه فيها باتخاذ كافة الإجراءات المناسبة لمنع عرض الفيلم وبعد أن تحققت إدارة الأمن العالم من أن عرض الفيلم كان سبباً في بعض الاحتكاكات داخل صالات العرض قررت الرقابة على المستنقعات الفنية منعه وقيل وقتها أن الجماهير أحرقت نور العرض بالأفلام.

وبعد قيام ثورة يوليو أسرع حسين صدقي - مخرج الفيلم وطله - بتقديم الفيلم إلى الرقابة ووافقت على عرضه وقدم حسين صدقي الفيلم باعتباره فيلم الاتحاد المقدس بين عناصر الشعب المصري وجاءت الأقبيشات مليئة بعبارات من نوعية " وغداً يفرج الأحرار أنصار العدل من قيلم الروح والوطن والانسانية، ووصفت الدعاية حسين صدقي باعتباره فناناً مؤمناً بربه وبقائه ورسالته ، ومع إعادة عرض الفيلم ثارت الأزمة من جديد فأرسل رئيس المركز الكاثوليكي المصري للسينما رسالتين لرئيس الجمهورية محمد نجيب طالبه بمنع العرض ووافق محمد نجيب حرصاً على الشعور العام لكن حسين صدقي يعود في عام ١٩٥٤ لمحاولة عرض الفيلم بعد تغيير اسمه إلى (الشيخ حسن) ونجح بالفعل في عرضه وقدم له بعبارة (اليوم يتحقق مبدأ الفن في خدمة الاسلام) ويكتب على الأتيش (إيراد الحفلة الأولى تم تخصيصه للمؤتمر الاسلامي) وهكذا أفلت الفيلم بعد أن وافق الرئيس جمال عبد الناصر حتى لا يتعرض الوفد المصري المشارك في المؤتمر الاسلامي للحرص.

هذا الفيلم بما أثير حوله من صدامات فعلية ونتيجة للأثر السيئ الذي أحدثه في نفوس المسيحيين والكنيسة المصرية سبب قلقاً بالغاً للمخرجين من تقديم أفلام تقترب من الشخصية المسيحية في صورتها الإنسانية وجعلهم يكتفون بتقديمها في شكل هامشي خطي وحصرها في أدوار الصراف ، وموظف الحصابات ، ناظر العزبة .. الخ باعتبارها وريثاً للشخصية اليهودية التي كانت تتولى تلك الأعمال قبل رحيلها عن مصر ولكن في صورتها الإيجابية ودائماً ، هذا في الوقت الذي تم فيه تناول الشخصية المسلمة في كافة صورها وفي جانبيها السلبي والإيجابي على حد سواء حتى شخصية رجل الدين المسلم لم يتردد المخرجون في تقديمها على الشاشة دون حرج ورأيته في صورة الفاسد الداهم للسلطة في الزوجة الثانية والجبان في فيلم شيء من الخوف (الملقون) والرجل الهلس في فيلم الأرض. وصبر رحلة البطولة للشخصية المسيحية في السينما نصل إلى فيلم (حسن وماريكا) عرض عام ١٩٥٩ للمخرج حسن الصيقي وقام ببطولته مها صدقي / اسماعيل يس / عيد السلام النابلسي و ينتمي الفيلم إلى سينما اللامصنفون وتكرر أحداثه حول تنافس شابين مسلمين على حب فتاة مسيحية

من أصل يوناني وعلى طريقة النهايات السعيدة حل المخرج المازق بلن الفتاة طلعت بنت رجل مسلم ، ولا تدرى هل نستثنى هذا الدور من أدوار البطولة للشخصية المسيحية أم نعتبره زيادة عدد ، المهم أنه منذ فيلم وخز الضمير حتى الفيلم السابق نستثنى فقط فيلم (حسن ومرقص وكوهين) كانت البطولة المسيحية دائما أجنبية أو من أصول أجنبية والشخصية المسيحية المصرية الحقيقية مخفية .

الأهم من ذلك كله أن هذه الأفلام جميعا اكتت على استبعاد الآخر وجعلت المشاهد في صالات العرض نصفين الأول مسلم يضحك إلى حد البقاء والآخر مسيحي يبقى حتى الموت.

بداية من عام ١٩٦٣ تتجاوز السينما حاجز النمطية والسطحية وأيضا التهميش في التعامل مع الشخصية المسيحية وتقدمها في ثوب البطولة مرتين في عام واحد شخصية عيسى بن العوام في فيلم الناصر صلاح الدين أداها الفنان صلاح ذو الفقار وشفقة القبطية وأعبت الدور الفنانة هند رستم وقد نجح كلا الفيلمين في تقديم الشخصية المسيحية حية وثرية بالمعاني الإنسانية ، ففي الفيلم الأول استطاع يوسف شاهين أن يقدم الشخصية المسيحية الوطنية ، الواعية لحقيقة الغزو الأوربي رغم قسوته تحت راية الصليب ، كما قدمها في عمقها الانساني واحتفظ لها بتفاصيلها المسيحية الخاصة وفي حالة إنسجام مع الآخر المسلم نون افتعال ، على الجانب الآخر تآلق حسن الإمام في رسم شخصية شفيقة المرأة وورسها بشكل دقيق في رحلة صعودها إلى عالم الشهرة وفي سقوطها ، في جبروتها وعظمتها وفي ضعفها وإنسحاقها وقد استطاع الإمساك بالثق مشاهرها كامرأة إلا أن الصامسية المفرطة التي كانت قد تشكلت لدى المسيحيين جعلت الفيلم يتعرض لانتقاداتهم الشديدة بسبب أحد أفشيات الفيلم جاء فيه شفيقة الغانية التي حكمت مصر بحيث إعتبرها البعض منهم إساءة للمرأة المسيحية وكثرتها امرأة خير كل البشر ، تلك الصامسية التي دفعت حسن الإمام لاستشارة رجال الدين في الفاتيكان قبل أن يبدأ تصوير فيلمه التالي (الراهبة) الذي عرض عام ١٩٦٥ وأعبت بطولته أيضا هند رستم وقد نجح حسن الإمام في تقديمها أيضا كشخصية من لحم ودم والفيلم يحكى قصة فتاة مسيحية تفشل في الحب فتتجه إلى الدير ولأنها لم تكن مؤهلة لذلك تعود إلى الحياة خارج الدير وتدفعها الصدمات للحياة الأكثر صحيا حتى تتعرض لصدمة أشد فتعود مرة أخرى للدير ، والفيلم بذلك يناقش قضية في حد ذاتها مهمة للغاية وهي علاقة الرهبنة واختيار حياة العزلة بعد الصدمة التي يتعرض لها الإنسان وإن لم يركز الفيلم على هذه القضية كثيرا وقد تعرض الفيلم لانتقاد الكنيسة التي رأت أن الفيلم كان من الواجب أن يجعل الفتاة تسخل الدير عن اقتناع وهي رؤية تتعارض مع المنطق الفني وتحد من جرأة الفنان على تعرية الواقع وتناقضاته.

والملاحظ في هذا الأمر أن السينما عندما تتعرض للقضايا الوحدة والانتماء الوطني لا تتعرض للنقد على عكس ذلك تجد الكثير من النقد والاعتراض عندما تتعرض للحياة والواقع والقضايا الإنسانية

وهذا ما دفع السيناريست " صبرى موسى " ونشأ البابا لتعديل سيناريو فيلم (البوسطنى) المأخوذ عن رواية (دماء وطن) للكاتب يحيى حلى الذى تعرضت لقضية غاية فى الخطورة تمس المجتمع المسيحى وعلى العلاقة بين مسيحيين من طوائف مختلفة ، فلم يجرؤ كاتب السيناريو على ذكر هذا طوال الفيلم بل أن المخرج حسين كمال أثر عدم الإعلان عن الهوية الدينية لأبطال فيلمه واكتفى بالتعبير عنها بوضع سحاف التخيل وصورة العذراء فى بيت البطلة معتقداً فى ذلك على نكاه المشاهد وربما لهذا السبب وحده أقلت الفيلم من عواقب غير محسوبة وتم عرضه عام ١٩٦٨ .

يختفى البطل المسيحى من الكادر السينمائى بضع سنوات قبل أن يعود عام ١٩٧٥ فى فيلم (لقاء هناك) اخراج أحمد ضياء بطولة نور الشريف وسهير رمزى وتطور أحداثه حول علاقة حب بين شاب مسلم وفاتة مسيحية وفشلهما فى الارتباط نتيجة للتقاليد الاجتماعية والدينية التى تولى فى النهاية لزواج الشاب من ابنة خالته المسلمة وبخول حبيبتة المسيحية الى الدير وباعتبار الفيلم يناقش نوعاً من العلاقات الثنائية لدى المسيحيين رفضت الرقابة التصريح بعرضه قبل الرجوع للأزهر والبابا وذهب المخرج بالسيناريو لكليهما فاعترضت الكنيسة على هروب الفتاة للدير بسبب قصة حب فاشلة وطلبت أن يكون سخاوها الدير عن اقتناع وبعد أن أبدى كل منهما ملاحظات والتزم بها مخرج الفيلم تم التصريح بالموافقة وفى اليوم الأول للعرض حضر البطريرك مكسيموس الخامس حكيم بطريرك الروم الكاثوليك وسكرتير المكتب الكاثوليكى وعدد من رجال الكنيسة للتأكد من هذا الالتزام تم احراق احدى الكنائس أثناء فترة العرض واضطرت الرقابة لمنع الفيلم وفشلت كل محاولات عرضه بعد ذلك .

تعد الأفلام الثلاثة لاسلمة السيرة الذاتية ليوسف شاهين والتى بدأها بفيلم (اسكندرية ليه) عام ١٩٧٩ وتبعها بفيلم (حنوت مصرى) عام ١٩٨٢ ثم فيلم (اسكندرية كمان وكمان) عام ١٩٩٠ وكان البطل فيها مسيحى - يوسف شاهين نفسه - لقد كان هذا البطل حالة خاصة جداً ومنبع خصوصيتها جرأة شاهين فى التمرد على المألوف والثابت واصراره على مراجعة كل شئ وتعوية كل شئ حتى نفسه متجاوزاً كل إشارات المرور خاصة فى تصويره الأسرة المسيحية فى أخص خصوصيتها وتعامله معها باعتبارها شريحة اجتماعية تمثل الطبقة المتوسطة بكل عيوبها وفصائلها .

وقد لعب أنوار البطولة فى الأفلام الثلاثة على التوالى محسن محيى الدين (اسكندرية ليه) ، نور الشريف (حنوت مصرى) يوسف شاهين مناصفة مع (عمرو عبد الجليل) (اسكندرية كمان وكمان) شهدت التسميئات إقبالاً متزايداً على تقديم الشخصية المسيحية فى أفلام تطرح رؤية سينمائية جديدة وجريئة رغم التقهيرات التى طرأت على السلطة السينمائية وبالأخص سوق توزيع الفيلم التى هددت صناع السينما بعدم توزيع أفلامهم فى بعض الأسواق العربية مثل السعودية إذا كان البطل مسيحياً وكان أكثر تلك المحاولات جرأة لمخرجين شبان .

فى عام ١٩٩٢ قدم المخرج يسرى نصر الله فيلم (مرصديس) وهى التجربة الثانية له فى الإخراج بعد فيلمه الأول سرقات صيفية تدور أحداث الفيلم حول شاب مسيحى غريب الأطوار (نوبى) يحاول البحث عن ذاته وفق أحداث تبني منطقية والفيلم فى مجمله يناقش ازواجية الرؤية فى الأحداث والأشخاص الذين يتناولهم منذ معركة ٥٦ وحتى أحداث الخليج عام ٩١ ، الجدير بالذكر أن الفيلم علاوة على جرائه فى الطرح السينمائى الذى يقدمه فى ذات الوقت ممثلاً جديداً فى دور البطولة المطلقة هوزكى فطين عبد الوهاب المخرج بعد ذلك.

وفى عام ١٩٩٦ يقوم المخرج أمالى بهنسى بتقديم أول أفلامه (التحويلة) قصة مصطفى أبونكرى والفيلم يتعرض لماهيمية العلاقة بين المسلم والمسيحى ومأطراً عليها من تغيرات عصفى بالمجتمع بعيداً عن الرسائل السلطحية الموجهة عن الوحدة الوطنية فى عدد من أفلام تلك الفترة وتدور أحداثه حول شاب مسيحى يساق إلى السجن بدلاً من آخر مسلم وفشل فى إثبات هويته نتيجة لفاشية الضابط الذى قاده إلى ذلك ويتعاطف مع الشاب ضابط مسلم مما يؤدى لاعتقاله وينتهى الفيلم بتصفيية كل من الشاب المسيحى والضابط الذى تعاطف معه على يد الضابط الفاشى وتمتزوج لهماقهما معا فى مياه النيل قام بالبطولة نجاح الموجى (الشاب المسيحى) ، أحمد عبد العزيز (الضابط الفاشى) فاروق الفيشاوى (الضابط المسلم المتعاطف) لكن الفيلم الذى تجرأ واقترب من حقل الألفام المسمى (مسلم ومسيحى) كان قد تجرأ واقترب من حقل الألفام آخر هو (أجهزة الأمن) التى رأت أن الفيلم يسئ إليها فقررت منعه ولم تطلع محاولات المخرج والممثل نجاح الموجى فى اقتناعها بمرض الفيلم.

وفى عام ٢٠٠٠ ينجح فيلم (الكلام فى المنوع) إخراج عمر عبد العزيز ، سيناريو وحوار ناجى جورج فى الوصول إلى صالات العرض بعد أن ظل حبيساً بالألراج لمدة ثلاث سنوات بسبب الرقابة وظروف الانتاج والتوزيع والكلام فى المنوع ذاته.

والفيلم يقدم إضافة جديدة فى التعامل مع الشخصية القبطية حيث أنه خرج من صمت السينما المصرية وخوفها الدائم من تقييم صورة المسيحى كمجرم أو تاجر مخدرات بشكل أكثر جرأة وأقل حساسية فهو يقدم الدكتور رياض المسيحى (ماجد المصرى) فى دور مجرم هارب من العدالة بعد الحكم عليه بالإعدام فى جريمة قتل لم يرتكبها ، ويقتنع ببراعته الضابط المسلم المكلف بالبحث عنه (نور الشريف) ويقرر إثبات براعته فيدخل إلى عى النبايير (المنوع) بمستشفى الأمراض العقلية حيث تجرى ممارسة أشنع أنواع الإبتجار فى المخدرات من خلال شبكة فساد يتورط فيها أطباء وشخصيات لها وزنها ونفوذها فى المجتمع وتتواطأ معهم خطيبة الدكتور رياض (منى عبد الغنى) التى دفعها الجشع للزج بخطيبها فى جريمة لم يرتكبها تقوده إلى غرفة الإعدام.

والفيلم الثانى الذى أقلت من أزمة السينما بعد قيام بطله محمود حميدة بانتاجه (جثة الشياطين)

إخراج أسامة فوزي وشارك في بطولته ليلبة ومجموعة من الممثلين الشبان والفيلم مأخوذ عن رواية للكاتب البرازيلي لجورج أمادو وتدور أحداثه حول (طبل) الذي يموت في أول لحظة في الفيلم نتيجة جرعة زائدة من المخدرات ويظل كذلك طوال أحداث الفيلم وهي جرأة من محمود حميدة تصحب له الذي قام بدور الميت الحي في أروع مايكون أما أصنقاؤه الذين شاركوه حياة الصعلكة فيرفضون تصديق فكرة موته ويقررون ممارسة حياتهم اليومية وهو في مصيبتهم رغم موته حتى تأتي ابنته من أجل مراسم دفنه حسب التقاليد الرسومة فتتكشف هويته المجهولة لدى أصنقاؤه تلك الهوية التي تظن من اسمه الحقيقي وعائلته وطبيعة الحياة التي رفض أن يعيشها قبل أن يلتقي بهم وهي نفس اللحظة التي نكتشف فيها نحن المشاهدين أنه مسيحي من خلال طقوس الدفن والفيلم من خلال تفاصيل الأحداث يناقش معنى الحياة ومعنى الموت وي طرح سؤالاً فلسفياً من من يموتون وهم أحياء ومن منا يحيا رغم موته.

وأخيراً نصل في رحلتنا مع الشخصية المسيحية إلى المحطة الأخيرة ففي عام ٢٠٠١ قدمت السينما المصرية بالاشتراك مع السينما اللبنانية فيلماً تحت عنوان " بطل من الجنوب - عزيز حني " إخراج محمد سيف ، سيناريو وحوار أشرف محمد والفيلم مأخوذ عن القصة القصيرة (الشيخ عبد الله) لشريف الشوياشي وتدور أحداثه حول الحرب الطائفية والتعصب الديني أثناء الحرب الأهلية في لبنان من خلال أم مصرية مسيحية لعبت دورها (نجلاء فتحي) تقدر ابنها عزيز بكم بدوره (جوزيف بونصار) أثناء زيارتها للبنان خلال الحرب وتعثر عليه أسرة لبنانية مسلمة ويصبح ابناً لها وتقوم الأم اللبنانية المسلمة (كارمن لبس) بتبشئة مسلمة وتتوالى الأحداث معبرة عن صراع الأم المصرية واللبنانية على الابن من ناحية وبين الابن الذي أحب جاريته مريم المسيحية وأخيها من ناحية أخرى وعلاقة كل منها بالطرف النزاع الطائفي في لبنان من ناحية ثالثة وتثيرها على شخصيات الفيلم الذي ينتهي بموت مريم وانضمام الابن إلى كشوف المتطوعين في المقاومة ضد إسرائيل العدو الحقيقي تحت اسم (عبد الله عزيز) إشارة لاختيار الديانتين أبناء الوطن الواحد ضد المحتل

ولايفوتنا الإشارة إلى أنه جارى الآن إعداد فيلمين البطولة فيهما لشخصية مسيحية كاستمرار لصحة السينمائيين المصريين في العشر سنوات الأخيرة وتعريضهم على الأوضاع السائدة وإصرارهم على رد الاعتبار للشخصية المسيحية ووضعها في مكانها الصحيح أما الفيلم الأول هو (فيلم هندي) وقد تمزق البدء في تصويره لأكثر من خمس سنوات لإحجام بعض نجوم الشبابك الجدد عن القيام بدور شخصية مسيحية خوفاً من هبوط جماهيريتهم وفقدان بعض أسواق التوزيع في الدول العربية أما الفيلم الثاني (بأحب السينما) لانتاج وبطولة محمود حميده في ثائي تجربة سينمائية جريئة له بعد فيلم جنة الشياطين مما يدعونا لرفع القبة له ولكل المبدعين المهمومين بفن السينما وقضايا الإنسان في بلادهم وعرض قضاياها الحقيقية فنياً.

في الصفحات القادمة

وقائع تدوين

من ننوات

أدب وفقد

ناقشت فيهما

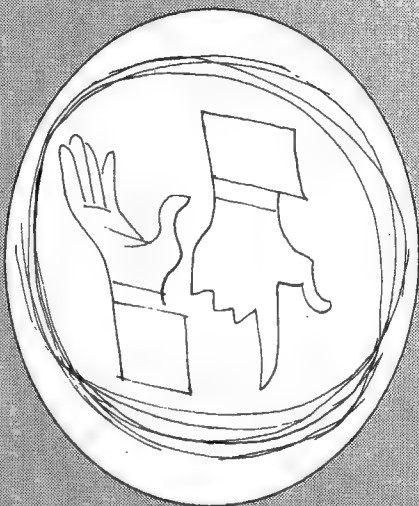
عملين جديدين

الشاعر واحد هو

عيد عبد الحليم

ورواية للمبدع

مصام باسم فهمي



ظل العائلة .. ولغة الحنين

الحكروب أوراق المكان والالم

ظل العائلة .. لغة الخنين

متابعة: صفاء النجار

وإن بدت -للموهلة الأولى- سلسلة وتلقائية لكنها- في الحقيقة تتميز بعمق نفسي وفلسفي مراوغ، ويتجلى ذلك في إحدى القصائد الأولى في الديوان وهي قصيدة «سيناريو قديم» حيث يقول عيد عبد الحليم:

الجنة هامة

في أول المنزل

فمن الذي أشعل النسيان

على الحوائط

وترك نسي

بين أصابع العائلة

فنجد في هذه القصيدة الاستفادة من تذكريات الماضي والطفولة في طرح تيمة «الاغتراب» أو «الوحدة» وهي تيمة بدأت منذ فترة كبيرة في الآداب العالمية خاصة الأسب الإنجليزية، وهي تعبر عن فكرة صدمة المدينة وصدمة العلاقات الاجتماعية والانفصال عن العائلة، لكن عيد عبد الحليم يتميز بعدم صراخه في تعبيره عن هذه الصدمة التي يعبر عنها بشكل يصل إلى عدم جرح إحساس الآخر / ساكن المدينة، معتمداً في كتابته على

استضافات النثوة الأنثوية لمجلة أدب ونقد، الشاعر عيد عبد الحليم لمناقشة ديوانه الثاني «ظل العائلة» شارك في المناقشة الناقد والروائي د. بهاء عبد المجيد والشعراء غادة نبيل وكريم عبد السلام وخالد حبيب والقصا السوداني عبد الحميد البرنس، وأدارتها القاصة والإذاعية صفاء النجار

في البداية أكد الناقد د. بهاء عبد المجيد أن الديوان حالة إنفعالية خاصة تتم عن روح خاصة لشاعر صاحب حساسية مختلفة ولغة خاصة به -تماماً- هذا إلى جانب قدرته الفائقة على بناء التشبيهات المعقدة والمركزة على وعى عقلى بالعملية الشعرية، بهدف توصيل المعنى بأقل عدد من الكلمات، فالديوان متعدد التيمات، كل قصيدة تحمل تيمة معينة تصلح لأن تكون كتاباً كاملاً حيث الانطلاق من الذات إلى موضوعات كونية ذات أبعاد إنسانية، مع ترك مساحة لتأثير الانفعالي للقصائد على ذهنية القارئ، كما أن للشاعر قدرة على رسم صور تعبيرية تلحذ المثقلى إلى مناطق شعرية وانفعالية عميقة،

النوستولاجيا» حيث يمتد الخط الانفعالي -بلائتومات- بداخل النص الشعري والذي يجيء بشكل أقرب إلى الإكتمال في قصيدة على مقعد قريب» التي يقول فيها عيد:

هبطوا من قراهم
-بدهشة-

وصعدوا للمقاهي
بيد لم تكتمل أصابعها
ارتبكوا في المصاعد
أزاحوا الغبار عن الهواء
ثم بكوا-كثيرا-

حين شاهدوا الملائكة
تبصق في وجوههم الجديدة
حالة الفانتازيا

وأضاف د. بهاء عيد المجيد أن معظم القصائد مرتبطة بذات الشاعر تصل إلى حالة اعترافية حيث الذات هي نقطة الانطلاق الأولى والمشكل الخيالي الذي تبني عليه قيم شعرية لانتهائية مولدة من حالة ذاتية بسيطة لها القدرة على بناء صرح كبير قادر على الولوج إلى عالم متسع يصل إلى حالة من الفانتازيا واللامعقول في كثير من الأحيان .

وأشار د. بهاء إلى إحدى التيمات الرئيسية في تجربة عيد عبد الحليم وهي الانفعال المؤسس» كثة في ذلك مثله إليوت» وكتيس» الذي «أكد أن القصيدة إذا لم يوجد بها الإنسان وإن لم تنبع من شعوره كما تثبت الورقة من الشجرة لن تكون هناك قصيدة».

وإعل التيمة المشكلة للنص الكلي هي «العلاقات الفرويدية الأسرية» فالعائلة هي المعادل الموضوعي للاغتراب المتأصل بداخل الشاعر بسبب عوامل عديدة منهاضياح الأحلام وتسرب الأماني وانهيال الفعل الجمعي.

وفي الديوان استدعاءات لدال «الأم» التي تفرض استدعاءات كثيرة لأعمال أدبية خالدة سواء ما كان منها إيجابيا أو سلبيا مضمرة بايحاءات دينية وفلكلورية.

ويتجلى ذلك منذ بداية الديوان حيث يقول الشاعر في صفحة الاهداء «إلى أمي .. زهرة الحنين في زمن القسوة ، وإلى كل من ذرع المحبة في أحراش الآخرين ونام في أحضان اليوتوبيا».

لكن احتضان الأم يقابله صورة أخرى هي نيد الأسرة والأب لهذا الكائن يقول الشاعر في قصيدة «عزلة الحواس»
«سيطرنا الأب من حقله
في الظهيرة»

وتظهر صورة الأب أكثر في قصيدة «صلاة خاصة لمحارب قديم» والتي تمثل مركزية النص، بما تتميز به من لعبة الاحلال والإبدال وإن كانت كلماتها جاءت بصورة متوافقة إلا أن الروح الشعرية لعبد عبد الحليم أكسبتها معان جديدة.

صياغة طرزونية

أما الشاعرة غادة نبيل فقد أشارت إلى أن

هذا بقوله:

جسدى عار- تماما-

ويطافنى تخلو من أسماء من رحلوا فهل

تقرر أُمى

أن تعينى إلى الغريال-ثانية

كى أسمع كلام الغرياء

كما أن عيد عبد الحليم يمتلك معجماً

نفسياً تتوارد فيه كلمات مثل «الاصابع،

السما ، البحر ، أطفالنا» وإلى غير ذلك من

مفردات ، لكنه ينجح فى الايقع فى فخ

التكسب على الذات كثيراً فى هذا الديوان رفيع

الـحزن-

العنوية والاسطة

أما الشاعر كريم عبد السلام فقد وصف

الديوان بالعنوية الشعرية وأشار إلى أن قراءة

ديوان عذب تعد مشكلة كبرى ، فالعنوية هنا

تعنى السعى إلى الاقتراب الحميم من الأشياء-

لكن يتبادر إلى الذهن سؤال مهم ، كيف

تتحقق العنوية هنا؟ إنها تتحقق بالسعى البناء

لعبد عبد الحليم فى بناء قصائده ويتضح ذلك

من لجوئه إلى العنوين المقطعة، بالإضافة إلى

إتكائه إلى ما يعرفه بالتاكيد- وما علق بهذه

من ممارسات وأفعال وذكريات عن العائلة حيث

يقترّب الديوان من الذاكرة فى عالم أصبحت

فيه كلمة «الافتراق» كلمة هينة ، فنحن بحاجة

إلى كلمة تقرب من الوحشية لتعبر عما يعانى

المثقف فى تلك اللحظة، وأظن أن «عيد عبد

الحليم» أقترّب من هذا الإدراك وإن كان لم

الديوان «ظل العائلة» به لغة تحاول أن تعرض

ألمها الخاص بعيداً عن الحزن الأعرج حيث

يوازن الشاعر بين تراكيب الصور والمواقف

المحسوسة من ناحية والصور المتصلة

بالتشكيل والتخيل من ناحية أخرى ، ويوظف

سخريته بداخل طبقة من الهدوء الظاهرى فى

لغة الوصف أو السرد الشعرى.

وتدليلاً على السخرية يقول فى إحدى

مقاطع الديوان :

لن تجلس- بعد الآن- معى

لن اسميك صديقاً

بعد أن أعترفت باخلاصك لى

بالإضافة إلى وجود صياغات حلزونية أو

عنقودية داخل القصائد الأطول نسبياً ويحق

للشاعر أن يسمى ديوانه «ظل العائلة» حيث

هاجس الانتماء العائلى والرفى والانتزاع

القسرى من البيئة أو القرية، أى صدمة المدينة

، ويرتبط هذا بالتاكيد بعدم القطام العاطفى

عن الأم التى يمكن أن تحل الحبيبية مكانها

ومما يدل على ذلك استخدام الشاعر لتعبيرات

مثل «عشب العائلة» و«بين أصابع العائلة» و

«بخان العائلة» وغيرها .

وأضافت عادة أرجح أن منطق الحزن هو

ما يحفظ لغة «عيد عبد الحليم» من جموح

التجريب القصدى حيث أنه لا يقتل لغة قد

تكون معاكسة للحالة التى تلبسه وأحياناً

يستخدم «عيد عبد الحليم» ذلك الجنس

الموظف ليقدم معنى وميضاً جيداً ، وأدلل على



عيد عبد الحليم

ظل العائلة



عمر

الشاعر تتمثل في دعامتين أساسيتين هما
الحكمة والسؤال كتقنية مستخدمة لإعادة
صياغة الماضي بصورة أفضل إنطلاقاً من
اليومى بإتجاه الأسئلة الكبرى.

وأوضح الشاعر خالد حريب- في مداخلته
-إلى أن الفترة الزمنية بين صدور الديوان
الأول لعبد عبد الحليم وهو «سماوات وأطنة»
ونبوانه الثاني «ظل العائلة» فترة زمنية قصيرة
لم تتجاوز العامين مما يجعل من الديوانيين
حالة واحدة.

وأضاف حريب أن عيد عبد الحليم يجتهد
في أن يكون صوتاً شارباً ونغمة مختلفة عن
الضجيج الذى يثيره عشرات الشعراء -الآن-
الذين استسلموا النص فأصبحوا يكتبون
قصائد تشبه غسيل الوجه ، فعبد يحاول أن
يقبض على براءته ، نون أن يخضع لإرهاب
النص الموجود فى النوريات والمجلات والمقامى.

يتمثل هذا المعجم الوجداني ، فى مجاولته
للدفاع عن نفسه ، فالشاعر لم يعد له
-الآن- سوى ذاته بحثاً عن أسئلة لا إجابات
لها .

وأضاف كريم- أشعر أن الديوان نص
طويل ممتد باستثناء قصيدة «بعد الحرب»
وجزء «الخطابون» من قصيدة «صلاة خاصة
لمحارب قديم» ويمكن أن يلحق بهما قصيدة
«عود ثقاب قد يضىء المرء» حيث النحول لعالم
غرائبى فالديوان حالة واحدة أثقلتها -نسبياً
بعض العناوين.

وأكد القاص عبد الحميد البرنس- فى
مداخلته -إلى أن «ظل العائلة» كعنوان يمثل
تيمة دالة ، بمعنى أن ظل العائلة قد يبدو معناه
السريع «الحماية» ، لكن المعنى الحقيقي يبدأ
من التناغم بين الصورة السمعية والصورة
الذهنية التى يتم تدعيمها من خلال الإهداء
نفسه من تفعيله رمزية «الحنين».

وأضاف البرنس : للنظرة التى يتحرك فيها

الحكروب .. أوراق المكان والألم

متابعة: نجوى على

عقدت مجلة «أدب ونقد» ندوة لمناقشة رواية «الحكروب» للروائي الأسواني عصام راسم فهمي.. تحدث فيها د. رمضان بسطاوي وسي ود. مصطفى الضيع والقاص أحمد الشريف مع مداخله من الناقدة غادة نبيل.

تحدثت مقدمة الندوة نجوى شعبان فلشارت إلى أنه عادة ما تأتي الدرر واللاقي الفنية من الجنوب وأن رواية «الحكروب» للكاتب الأسواني عصام راسم فهمي هي الأولى له، غير أن نضجها يشي بأنه قد سبقتها محاولات كثيرة للكتابة، بل ربما كانت الكتابات السابقة إبداعاً وليس محاولات «الحكروب» رواية تمس حياتنا ليس في الفترة الزمنية فقط، بل لخمسَةِ عقود قادمة، فلا يزال الجذب الروحي كما جيل «الحكروب» في شكله الجغرافي، جذب التضاريس وقفزها وتعرجاتها، كل ذلك اتاخ على نفسية ناس هم أيضاً يعانون الجذب الروحي فيما عدا شخصية أو اثنين، وهما شخصية خال الراوي والأم، والرواية مكتوبة بلغة شاعرية عالية، قد تصل إلى الغنائية أحياناً وصولاً إلى درجة رثاء الذات الشيء الذي لا يتعلق بالراوي وحده بل بغالبية الشخصيات التي يقول لسان حالها (ليس باليد حيلة).

نتهل الرواية من تاريخ مصر في أدق مراحلها، فالخال الذي قدم من جسده وأعضائه قرباناً لتحرير الوطن، قد أصيب في جسده وفي نفسيته، لكنه ظل أبداً حتى اللحظة الأخيرة صلب الروح، هذه الصلابة هي الإيجابية الرائعة والنور الأخير في نفق مظلم، ضمن شخصيات تتصارع طوال الوقت مع نفسها ومع احتياجاتها، والراوي نفسه متعطّل أغلب الوقت، وقد لجأ المؤلف عصام راسم فهمي إلى حيلة نكية بتقديم تذاكر للكشف الطبقي أو طلب للمأمورية الضرائب أو غيره كنوع من الوثيقة هي تذاكر طبية تخص الراوي وخطيته وأبيه، وطلب لجهة حكومية تغيد بأنه قد يعمل بالتجارة الحرة، ثم طلب وقف الترخيم ليعود للعمل بمصنع النسيج هروباً من تعطله بكانما هي دائرة شريرة احكمت حلقاتها حول الشخصيات فليس ثمة طريق للخلاص.

سطوة المكان

وتحدث القاص أحمد الشريف عن «الحكروب» و«سطوة المكان» فلشار إلى أن المكان في هذه

الرواية هو بمثابة المؤثرة الرئيسية من خلالها تنطلق الأحداث وتتحرك الشخصيات متفاعلة مع بعضها البعض ومثيرة بهذا المكان (الحكروب) الذى يعتبر سيفاً مسلطاً على الجميع ومحاصراً لقاطنيه . فالجبل يمثل بالآزقة الرفيعة الطويلة التى تنفصل وتتشابك فجأة، عندما يرمى على قاطنيه السيول الجارفة وتخرج من بين شقوقه العقارب القاتلة ويفتح أبواب القيط والعرق فى الصيف وبالبرد والرطوبة الموحجة فى الشتاء ، ولكن فى لحظات الصفا نغطيه صخب الحياة ونخرجه من جموده الأزل ، وهو يمنحنا حضنه الصخري الواسع ليحمينا من مؤامرات الغيب) ص ٢٨ والجبل هو أيضاً امرأة كبيرة أسطورية يخلقها الله لرجل كبير وحكت الجدة إنه لما مات زوجها حزنت المرأة وبمسرت و تسربت دماء كثيرة من عروقها وتحولت إلى جبل كبير بغير روح.

ويمكن القول أن رسوخ المكان وجبروته تسرب للراوى وجعله يقوم بعملية تجسيم مكانى ، ووضع موضع الأسطورة أو اللفز الكبير غير المجدى فضه أو حتى التحرر من قيوده فهو دنيا صغيرة) نعيشها ونتحايل عليها ومع ذلك لا طائل من المقاومة أو محاولة الهروب فالهروب من المكان أفضى بصديقه (صلاح محمد إسماعيل) إلى الموت ، التمرد عليه أصاب البعض بالأمراض، ألا يوجد من يقوم بعملية توازن واتساق لجعل الحياة أكثر احتمالاً أنه «النيل» سيدنا وسيد المكان من ١٦٦ هو من يجعل الأماكن ترضى وتليق كى يعتاد البشر عليها ويعتاد عليهم ويحدث الاتفاق . وهذه رؤية الكاتب وقدرته على جعل الحكروب / النيل أو الجذب / السماء ثنائية رغم تناقضها الظاهرى لكنها فى وحدة داخل هذا العمل الساخن وتظل خصوصية المكان وثنائياته من الركائز المهمة لرؤية الكاتب لعمله الفنى.. محاولا القيام بعملية اتزان درامى وحياتى لهذا النص.

من الشخصيات النسائية التى احتفظت بصلابتها الداخلية وقدرتها على مواجهة الأحداث وإدارة نفة البيت بأمانة ، وفى ظل غياب الابن ومرض الأب واحتياج الفتيات لأم بجوارهن . إنها (الأم) صاحبة القسوة التى لا تطاق عندما تفضب والقاهرة على الغفران والتسامح هى وحدها من يستطيع إصلاح ما أصاب علاقة الابن بالأب من صنوع وشروخ.

أوراق الألم وانفتاح الروح

ونذكر د. رمضان بسطووي أن رواية الحكروب تسعى إلى تقديم عالم إنسان من خلال علاقاته المتباينة بذاته وبالأخر وهذا العالم يتسع ليصبح مثلاً جبل الحكروب، فى أسوان ، ليحتضن من حوله ، وتصبح «أوراق اعتماد شخص الموت هى فضاء قصصى لتقديم الصور والنماذج الإنسانية التى يعيش معها ويحيا بها .ونقطة التماس التى يلتقى عندها «جمال الراوى» الشخصية الرئيسية للرواية وياقى شخصها هى نقطة الألم» بكل صوره ، الألم البدنى والألم النفسى ، والألم هنا هو فلسفة خاصة، لأنه يصبح جزءاً من نسيج الوجود، وتصبح رحلة الحياة اليومية هى مكابدة لهذا الألم ومحاولة لتقليل آثاره . الألم هنا تساؤل وفيرط وعى بمعنى الحياة

واشكالياتها ، وليس مجرد توهجات يطلقها المرء لينبثق بها حزنه الخاص، الألم هنا لوحة متعددة الألوان والدرجات وتمثل: براعة الحياة وأصواتها ، أنه تعبير عن رحلة الصלב اليومي ومن يفك مساميرنا من على الخشب، وينزلنا من على الصليب . إن الراوى يجعل من ألمه الخاص نقطة الالتقاء بكل الشخصوس التي شكلت تجربته الحياتية فالرواية تبدأ بضمير المخاطب للأب الذي تصهره غيبوبة «مرض السكر» وتتواصل في خطاب الألم وكتابته ، فهو يخاطب فيه صلاحه ألمه واكتئاب الذى يضفى جلالا خاصا ، ويخاطب فى الخال وصقى ألمه الناتج عن مرض السرطان الذى بدأ باللسان ، وبالأعضاء الصغيرة التى يتم بترها ، ويخاطب فى حالة «ألم المرض الجلدى التينيا» ومنصور عجزه الخاص وهكذا يجعل الراوى من رحلة الألم الكفك والزراعين لبراز عدم قدرته على التكيف مع الطقس اليومي الذى يعيشه فى مصنع الثلج فى مناخ شديد البرودة ، وهذه إشارة إلى عدم قدرته على التفتح الروحي والوجداني على العالم ، وكأن الفعل اليومي محاولة لعبور الألم من خلال بوابات الألم الضعيفة لدى الآخرين ، من خلال الأب الذى يرى دموع ألمه الخاص وهو يحرص عليه من لسع عقارب الجبل حين يقوم فى الليل لدخول بورة المياه ومن خلال التواصل الإنسانى مع حالة ، ومحاولة التواصل مع لوحات صلاح، وحالات الآخرين ، وهرويه من ألمه الذى يقعه عن العمل للتواصل الحسى مع نادية.

يبدو أن الرواية تقوم على فلسفة خاصة بالألم وهى التسليم بأن الألم جزء أساسى من نسيج الوجود. والحياة ، وأن مجابهته ، هى خير وسيلة تقهره ، وتجاوزها والألم هنا تعبير عن حالات وطقوس شتى يعيشها الإنسان فى حياته اليومية ، هى تعبير عن صورة من الاغتراب ، حين يغترب المرء عن نفسه وعن روحه وهى تعبير عن التشويق ، أن يشعر المرء أنه جزء أو شئ ضمن عوالم الحكروب الذى يهيمن على المكان ، ويحتضن البيوت التى أقيمت حوله.

إن الرواية رحلة فى جماليات المكان، حيث تصبح حالة مرتبطة بالألم ومحاولات التحقق المختلفة ، فالحكروب يعطى احساسا ما يهيمن على الرواية ، وهذا الاحساس يتقرر إلى علاقات تفصيلية ، مثل علاقة الراوى بشجرة الكافور التى بذرت بذرتها يوم مولده ، وصارت تماثله فى العمر ، والأب يجلس وحيدا يتحدث إليها، هذه العلاقة بين الإنسان والشجرة ، هى محاولة لتأسيس الوجود اضعاء للطابع الإنسانى عليه، فصبيح الحكروب أشبه بالأسطورة ، مثل السماء ، والأب الجانى ، والجلال المهيب ، هنا يصور الكاتب الجبل بوصفه انعكاسا متعدد الدرجات لشخصية قاطنى هذا الجبل ، والجبل هنا يعكس شيئا أبعد من مجرد كونه مكانا . إنه يعكس حالة وتجل يصعب الامساك به ، وحاولت الرواية الامساك بهذه الحالات ، ونجت فى ذلك من خلال التزاوج البصرى والوجدانى ، فالبصرى واضح فى هذه الصور التى يقمنها لنا للأوراق التى يحملها وهى ثلاث عشرة صورة تتوزع على مدار الرواية التى تتكون من تسعة فصول ، وهى نموذج

لرواية بصرية واخلال قصاصات الورق داخل متن الرواية مألوف ، وقد سبق لصنع الله ابراهيم تقديم هذا فى نماذج من الأوراق الشخصية فى وسط نص لا يقدم معالجة تقليدية هو ذاته وإنما فيها هذا الحضور الوجدانى لكل شخص من الرواية.

والحكوب كرواية مرتبطة بأزمة ثلاثية الزمن الواقعى حيث تشير الرواية من خلال الأوراق المبعثرة على امتدادها ، أن الزمن الواقعى يمتد إلى أكثر من ستة أشهر من منتصف عام ١٩٨٩ إلى بدايات ١٩٩٠ ، بينما يشير زمن الكتابة إلى عام ١٩٩٤ كما هو مبين فى نهاية الرواية ، والزمان الجمالى: داخل النص وهو زمان حر يعتمد على موجات التقاء الزمان الداخلى الذى يتمثل فى الصقيع الداخلى حين يصطك مع صقيع المصنع ، فتتفجر المقاومة وتتشتت احتمالات الراوى.

يشهد حضور الموت بوصفه أفق الزمن، حين تنتهى مكثاته ، وظلال الموت يشتد حضورها زوال الرواية ، فى الألم والمرض ، ثم يتجلى فى الفقد ، وقد عبر هذا فى صورة قصصية فى الرواية وذلك حين تراود الفكرة زوجة خاله: (فعندما تضربها فكرة الفقد على غفلة كانت تفك جدائل شعرها وتقفل بورة المياه على نفسها ، وتفتح صدرها المكس فى داخله الشجن، وتروح فى نوبة بكاء حارقة ، ثم تفتح الباب وتندفع إلى غرفة النوم، وتلقى بشعرها فوقه ، وتتشبث به وتورق بفمها على كل موضع فى جسده ، وتعضه أحياناً، وكلتها تريد الاحتفاظ بنكهة روحه قبل أن يخطفها المجهول القادم بخطوات ثابتة ، وكأنها تود لو وضعت كرائمة خالصة فى الذاكرة. ص ٧٤.

والجسد يحتل فى الرواية مكانة مهمة، ليس بوصفه مكاناً للتعبير عن الألم ، فارتعاش جسد هالة وتشظى أعضائه صلاح وجسده بعد عولته من السفر ، وألم الكتف لدى جمال ، والأعضاء التى يتم بثها من الخال ، كل هذا يجعل من الجسد موطن الألم، مثلما الجبل هو موطن البشر. هذه رواية تفتح آفاقاً جديدة ، وتقدم تجربة النص المفتوح الذى يمكن أن يمتد بلا نهاية ، لأنها تتفرع وتنمو مثل إيقاعات الليل والنهار وهى انفتاح على صور الموت والعزلة والألم والمرض ، وهى تتميز بالتعبير عن جماليات المكان فى جزء من مصر ، وقد توسل الكاتب بلغة فيها قدر كبير من الحميمية والاتصاف بالألم . بل إن الكتابة هنا لا تسعى لتقديم رواية بالمعنى التقليدى ، لكنها تسعى للتحرر من أسر قيود العمى والفقر والألم من خلال الكتابة.

تشبيه النص المسرحى

وأوجز د. مصطفى الضبع قراءته للرواية فى عدد من النقاط قرأت رواية (الحكوب) بنطقها الصعبدى الصحيح ، وكنت مشهوداً لها لسببين: أولهما أن هذه رواية اكتشف من خلالها كاتباً جديداً والثانى : أنه مرتبط بالمكان ، فالحكوب منطقة على تخوم المدينة ، يحمل الكثير من سمات

القرية والمدينة معاً ،وما ينطوى عليه ذلك من تقديم نص مغاير سواء بخصوص أسوان ، وهناك سابقون كتبوا عن المنطقة كعبد الوهاب الأسواني ومحمد خليل قاسم ، فكان على أن أدع هذه الخلفية وأنا أقرأ هذه الرواية التي تتميز بتقديم الأنثى التي كانت من قبل تمثل خطيئة ما ومن خارج المكان ، لكن هذه الرواية تؤكد أن الخطيئة نابتة من الأرض وأن معظم النساء هنا خاطئات دون وازع أو مبرر ..الأجمل مشاهد الجنس في الرواية قدمت على نحو غير مستفز على الإطلاق في لغة غير صادمة.. ربما ينطوى الأمر على حل ضمني بأن القضية ليست هي قضية الجنس، وجوده أو عدمه ، بل كيف تقدم ذلك وتوظفه بشكل فني في الكتابة ،فالمشاهد المكتوبة لا تصمم القارئ وتشعره بأن هؤلاء فعلوا ذلك دون أن يشعروا المثلقي انهم أمام عمل آثم ..لماذا؟ لأن الرواية تريد أن تقول أن هذه الأشياء التي كنا نعدّها خطايا.

هي عادة من عادات البشر . وليس معنى ذلك أنه يعلى منها بوصفها قينة ، لكنه يرفضها كما يرفض أشياء كثيرة بالنص عبر ما يقدمه من شخصيات ومن مقولات تسردها شخصيات فيما يشبه تقديم فلسفة ما ، هذه المقولات لا تقدم بشكل تقليدي بل بصورة إيحائية تحمل البعد النفسي والاجتماعي والجسماني دون تصريح بذلك، مما يجعل هذه الشخصيات في حالة تماء مع الراوى فهي ليست بعيدة عنه.

يأتى ذلك في عبارات تحمل رؤية عميقة ، لا يمكن تصورها بأنها صادرة من شخص بسيط ومتعطّل ، لكن هذا الشخص كان شأنه كالفلاسفة حين يتأملون ويرون أن من يعتلى هو بالضبط من لا يستحق وهو الأمر الحق الذي سيتضح بعد سنين.

تقدم الرواية مجموعة من التناقضات مثل الجبل مقابل الماء وتكرار كلمة الماء توحى بحالة من الفعل التطهيري بالماء ، وثنائيات مثل مرض/ صحة ، مرتفع /منخفض ، صلابه / ليونة رجل / امرأة بحرارة / برودة.

وتطل الإبداعات الصعيدية يظهر القطار والنيل ، ليقدما مفتاحين لقراءة نصوص كتاب الصعيد . وكتابة هذه الرواية هي نوع من الاعتراف عبر مخطوطة ليست للراوى وحده ، بل ضمت محيطا إنسانياتها متميزاً، يلتقط فيها الكاتب لحظات ساخنة من الشخصيات في بولغونية / تعدد أصوات / يحرك بها شخصياته بنجاح.

والنص الروائي هنا يشبه نصا مسرحيا تحديدا من خلال نسخه المخرج المسرحي الذي يضع سيناريو لتحريك الشخصيات ، وإنتاج الدلالة عبرهم .وخاصة خلال مشهد الرجل الذي يموت ، الذي يفصح عما آل إليه مجتمع الصعيد من إهمال .كما أن اللوحات الوثائقية من تذاكر كشف طبى وغيره تقوم بأنوار متعددة على مستوى النص، مكنت الراوى من إحكام الحكاية لربط الفواصل السردية عبر قطع المشهد البصرى عند نقطة ما .

لعبة الكراسى الموسيقية

على عوض الله كرا

ببطء غير ملحوظ ، متأثر ودوب ، اصطلحت غرائز الشعوب وفطرتها ، لطبقات ما تحت الطبقة الحاكمة ، مايمائل منقطع عنها ، وبها ، وبها ، تلك الطبقة العلوية : اصطلحت الآداب ، ربما كي تتقهم الاعيب تلك الطبقة - ومن هذه الآداب ، لعبة الكراسى الموسيقية .. ومفرداتها كالتالي :

* عدد من الكراسى يماثلها عدد من اللاعبين + واحد

* شخصان : أولهما يعزف على الاكورديون - مثلاً - أو البيانو .. وثانيهما يقوم بقيادة اللعبة عبر مراحل ثلاثة هي : القيام بدور الشارح (شرح ميكانيكيها ، لاجلبيتها) وهو دور افتتاحي عابر .. ثم ينهض بقضاء الدور الرئيسي الآخذ معظم الوقت في المتابعة والملاحظة .. وأخيراً مراسم منح الجائزة.

طبعاً معطلمان تقابل مع اسم هذه اللعبة في ثانيا العديد من المقالات والتدوات والكلام العابر ، وهي تستخدم كتشبيه تمثيلي لملاكمة سلطة ما (أيا كانت) مع رعية ما .. واللعبة تعبر هكذا :

ترس الكراسى حول دائرة وهمية ، والأطفال (وهائما هي لعبة ترتبط بالطولفة .. الطفولة الحقيقية ، لا المجازية) والأطفال هؤلاء ينتظرون بدء العزف ، ليهرواوا خلف يمشهم البمش ، ولحظة توقف الاكورديون يسرع كل منهم بالجلوس على كرسى ، ويظل طفل واحد هو الواقف بذعول مؤقت لما حدث ، فالكراسى كلها كانت بجواره تدور من حوله ، كانت بحوزته ، ومع ذلك التقى نفسه هو أول من يخرج من السياق .. وفي مقابل خروجه يخرج القائد كرسياً واحداً عن سياق اللعبة .. ومن المفارقات التي قد تحدث ، أن هذا الطفل الذي لم يستحوذ على كرسى داخل السياق الأصفر (= اللعبة) ، نراه يجلس على هذا الكرسى الخارج إلى السياق الأكبر الضام متفرجين من الزملاء المهالين لخروج طفل ثان ثم ثالث وهكذا ، في مقابل كل منهم يخرج كرسى ، وإلى أن يفوز الطفل الأخير . (في حياتنا : الطفل الأخير هو الذي يفوز غالباً)

لو تعاملنا مع هذين الطفلين منرى أن الأول ، إما أنه كان مهموماً بشئ ما يخرج عن الانتباه السمعى ، وحين يتغير نسق الهرولة إلى إحنانات جانبية متخاطبة ومتسارعة ، أوتوماتيكياً يفعل منهم ، ولكن بعد فوات الأوان (يلاحظ هنا أن التغيير المتزامن هو التخابط هو الذى أفاقه من عالمه الداخلى الخاص ، إلى عالمه الخارجى العام) .. أو أنه فنان بالمسابقة ، سحرته الأنعام ، فعاشها بوجهه التي من فرط عشقها ، لما يماثلها (من الأشياء غير المرئية ، وغير المستطاح إمساكها) لانتبه إلى لحظة وقوف الموسيقى .. وسواء كان مهموماً ، أو كان فناناً ، فالجنر واحد : هو انسان ذو حس على درجة ما من الشفافية ، وخاصة ونحن في مجتمعات يتحول أفرادها يوماً بعد يوم إلى مايشبه الآلات الميكانيكية المصرية ، إما أن تتأمر من خارج بعيد عنها (= فكرة الريموت كنترول) ، أو من داخل لا مكان محدد له في جسمها (= الفرائز).

والطفل الأخير الفائز عادة مايكون من هذا النوع ، هو نموذج الريدئين من البراجماتيين : أنه مع البدء ، ومع الانتباه ، مافى الوهم من فرح وسرور وموسيقى ، لايعنيه ، تركيزه كله على الخدمة السريعة التي سيتفادها حال توقف الموسيقى.

(عوام الناس هم الأجور في خلق المعانى عن الفاعلها ، وإحلال معنى لشر بدلاً منها ، فحين لاحظت أحاسيسهم التماثل الحادث بين المقطع الثانى من لفظة (الأعيب) ، ولفظة (عيب) ، أسقطوا معنى الأولى ، وسقطوا معنى الثانية عليها ، مع الإبقاء على حالة الجمع الراجع لدرجة الصوت ، والإبقاء أيضاً على بعض المعانى الصغيرة التي كان يتضمنها المعنى العام ، مثل : المراقبة والهداء والرغبة في أن يشارك الآخرون كعنصر أساسى في اللعبة ، ولكن كلية وكشروط من شروط دورانها).



«الشمس: جنيهان»

رقم الإيداع ٩٢/٧٥١٣

الأمل للطباعة والنشر